دكتورة حورية توفيق مجاهد

الاستعمار كظاهرة عالمية

"حول الاستعمار والامبريالية والتبعية"





اهداءات ٢٠٠٢

السفير فتحي الجويلي

دمنهور



الاستعمار كظاهرة عالمية

حول الاستعمار والامبريالية والتبعية

دكتورة
حورية توفيق مجاهد
أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
١٩٩٠

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


بسم الله الرحمن الرحيم
وقل رب زدني علماً

إهـــداء

إلى روح شقيقى الرائد محسن مجاهد
حامل نجمة الشرف العسكرية
الذى استشهد فى شرم الشيخ
أثناء مقاومته للعدوان الثلاثى

تقـديم الطبعة الثانية

مضت نحو خمس سنوات على صدور الطبعة الاولى من هذا المؤلف الذى يعـد أول بحث منهجى لدراسة الظاهرة الاستعمارية انطـلاقا من فرضية أساسية وهى أن الاستعمار ظاهرة عالمية فى الزمان والمكان ترتبط أساسا بظـاهرة القـوة بمفهـومها السـياسى وتتعدد أثوابها فى أشـكالها التقليـدية والجـديدة ٠ وقـد استجدت على السـاحة الدوليـة العـديد من المتغيرات فى مجال الاستعمار ـ على الرغم من عدم تغير الخريطة السياسية للعالم وثبات عدد أعضـاء الامم المتحدة عند ١٥٩ عضـوا خـلال الفترة المذكـورة ـ تدعم سلامة التحليل المنهجى المتبع فى محاولة الوصـول الى نظرية عامة للاستعمار ٠

ولعـل أهم ما استجد فى المنطقة العربية هو الانتفاضـة الفلسطينية التى بدأت فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧ ودخلت فى شهرها الثانى والعشرين والتى جذبت انتبـاه العالم الى المقـاومة الفلسـطينية للاحتـلال الاسرائيلى والتى لم تحجمها لا الدولة البوليسية الاسرائيلية وأدوات قهـرها بما فيها اطلاقهـا يد المستوطنين فى قهر الفلسـطينيين ، ولا سـقوط ٦٤٥ قتيـل حتى منتصف سبتمبر ١٩٨٩ ٠ وقد أعطى الانتفاضة دفعـة قـوية اعـلان الدولة الفلسطينية فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٨ ٠

أما فى الدول الاسـلامية فقد كانت أهـم المتغيرات هو رحيـل آخـر جنـدى سـوفيتى من أفغانسـتان فى ١٥ فبراير ١٩٨٩ بعـد ما عـاناه الاتحـاد السوفيتى من مقاومة المجاهدين الافغـان ، حقيقة أن الاتحـاد السوفيتى خلف وراءه حكومة موالية له ـ هى حكومة نجيب الله ـ الا أن المقـاومة ضـدها مازالت قائمة ، الامـر الذى دفعها الى بدء مهادنة الثوار وفتح المجـال لانتخـابات أكثر حيـادا ٠

وفى جنوبى أفريقيـا تصاعدت مقاومة الاغلبية الافريقية لحكومة الحزب الوطنى التى تسيطر عليهـا الاقلية البيضـاء من المسـتوطنين ولسـياسة

الأبارتهيد التى تمارسها . وعلى الرغم من تكريس العمليات القمعية للدولة البوليسية العنصرية الا أن المقـاومة مستمرة وقد اعطاها دفعة قـرب انتهـاء مشـكلة ناميبيـا - المتخلفـة عن نظـام الانتـداب - وذلك وفقـا للاتفاق الرباعى فى ٨ ديسمبر ١٩٨٨ بـين الولايات المتحـدة الامريكية وجنـوب افريقيـا وانجـولا وكـوبا والذى بموجبه تحصـل ناميبيا - باشراف الامم المتحـدة - على استقلالها فى ابريل ١٩٩٠ ، فى مقابل انسـحاب القـوات الكوبيـة من انجـولا والذى يتم على مراحل بدأت فى يناير ١٩٨٩ وينتهى آخـرها فى ٣٠ يونيـو ١٩٩١ . ومن الجـدير بالذكر أن انسحاب القـوات الكوبيـة من أنجـولا قد تزامن مع انسحاب القـوات الكوبية أيضـا من اثيوبيـا حيث تم رحيـل آخـر جندى منها فى ١٥ سبتمبر ١٩٨٩ .

من ناحية اخـرى فان كل من الاتحـاد السـوفيتى والولايات المتحدة الامريكية قد شـهد فى الاشـهر الاخيرة محـاولات تحررية تعـد تعبيرا عن الخروج على زعامتيهما : فالاتحـاد السوفيتى يشـهد احتجـاج ومظاهرات الملايين فى مناطق البلطيق - استوينا وليتوانيا ولاتفيا - التى ضمها أثنـاء الحـرب العالمية الثانية وقد ظهرت تلك الحركات الاحتجاجية فى الذكـرى الخمسـين لـذلك الضـم ، وقـد أعطـاها دفعـة التطـورات الاصـلاحية لجورباتشـوف (البيريسترويكا) . فضـلا عن اعـلان وزيـر خارجيـة بولندا - لاول حكومة غير شيوعية - فى ٨ سبتمبر ١٩٨٩ ، انهاء تبعية دولته للاتحـاد السـوفيتى وأولـوية مصالحهـا على الاعتبـارات والتحالفـات الايديولوجيـة . أما فى أمريكا اللاتينيـة فقـد تبـلور ما وصـفته صحيفة النيـويورك تايمـز باعـلان الاسـتقلال عن الولايـات المتحـدة الامريكية من جانـب دول أمريـكا الوسـطى الخمس فى اجتمـاع « تيـلا » فى سـبتمبر الحـالى وذلـك باتفاقهـا على خطـة لتصـفية وتسـريح جيـوش « الكونترا » التى تقـاتل ضـد نيكاراجـوا قبـل نهـاية هـذا العـام ، رغم دعم الولايات المتحـدة الأمريكية المطلق لها خلال السنوات الثمانى المـاضية .

أما بالنسبة للدول النامية عامة فقد تفاقمت مشاكلها الداخلية انعكاسا

لعلاقات التبعية وزاد عدد من يعانون من الجوع بها الى ٥٥٠ مليون نسمه وفق آخر تقدير لمنظمة الفاو فى مارس ١٩٨٩ ٠ فى الوقت الذى تفجرت فيه بوضوح خلال السنوات القليلة الماضية مشكلة المديونية الخارجية للدول النامية حيث وصلت الى نحو ١ر٣٦ تريليون دولار عام ١٩٨٩ ، والتى تنوء بها تلك الدول والتى يصل نصيب أفريقيا منها الى ٢٣٠ مليار دولار ونصيب دول امريكا اللاتينية الى ضعف ذلك ٠

تلك المشكلة التى تستوعب أكثر من ضعف الدخل القومى لبعض الدول بما فيها مصر ، والتى أعلن معها عدد من الدول النامية عجزه عن سداد الديون بعد عجزه عن خدمتها ٠ هذه المشكلة كرست التبعية وهى فى الحقيقة تلعب دور السبب والنتيجة لها ، وتؤكد من جديد ان مفتاح حل مشاكل الدول النامية هو فى يد الدول المتقدمة الامر الذى يكرس ورطة التبعية التى تقع فيها الدول النامية مما يدعو الى ضرورة تدعيم الحوار بين دول الجنوب ، وان كان مفتاح الحل هو فى الحوار بين الجنوب المتماسك والشمال الذى لن يقدم تنازلات الا بقدر ما تمليه مصالحه وانعكاسات تدنى وضع الدول النامية عليه ٠

واذا كان البعض ينادى بضرورة ايجاد نظام اقتصادى دولى جديد ، فان الامر محكوم باعتبارات سياسية حيث ظاهرة التبعية وانعكاساتها الموضوعية فى الدول النامية لا تجعل تلك الدول فى موقف تفاوضى قوى يمكنها من التغيير ٠ فالدول النامية تواجه بورطة التبعية فى ظل الاستعمار الجديد المحترف ، وليس استعمار الهواية التقليدى وفقا لتعبير جالتونج حيث تصفيته أصعب كثيرا من الاستعمار التقليدى ، اذ يتدعم بفعل ميكانيزمات النظام الدولى ٠ وقد بدأت تظهر بوضوح مظاهر التشويه الهيكلى فى الدول النامية بما يتمشى مع مصالح الدول الاغنى والاقوى ٠

والله ولى التوفيق ،،

القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٩٨٩

أ٠د٠ حورية توفيق مجاهد

مقدمة

تعتبر القوة بمفهومها السياسى المحرك الرئيسى للعلاقات السياسية الدولية (١) . فالدولة تسعى دائما ، كظاهرة عامة ، الى زيادة قوتها بغرض تحسين وضعها الدولى فى مواجهة غيرها من الدول . ومن الظواهر الواضحة فى العلاقات الدولية على مر العصور والمتعمقة فى هيكل النظام الدولى ، المحاولات المتكررة للدول المختلفة للسيطرة على أراض أجنبية عنها ، ومحاولة بسط تسلطها بكافة الوسائل السلمية وغيرها الى خارج حدودها على أساس أن سيطرة دولة على أرض أجنبية جديدة وشعوب أجنبية عنها تسهم عادة فى زيادة قوتها . وذلك يبدو طبيعيا فى ظل المجتمع الدولى الذى يتميز بالاناركية أو التحلل وعدم وجود سلطة مركزية تنظم سلوك الدول وتمنع اعتداء بعضها على بعض أو توسع بعضها على حساب الآخرين . فهناك اتجاه لا يقاوم من جهة الدول الكبرى والدول الأقوى نحو التوسع على حساب غيرها من الشعوب الأضعف ، وفرض ارادتها عليها ، وتعرف هذه الظاهرة الشائعة فى العلاقات الدولية بالاستعمار . وقد بدا واضحا اتخاذ الاستعمار كسياسة شائعة ، خاصة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . حيث استعمرت كافة مناطق آسيا وافريقيا باستثناء : الصين ، واليابان ، وتايلاند ، وأثيوبيا ، وليبريا (٢). بل ان الدول الرأسمالية وحدها سيطرت على ٦٧٪ من مساحة أراضى

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مفهوم القوة فى العلاقات السياسية الدولية راجع : د . حورية توفيق مجاهد ، « القوة : المحرك الرئيسى للعلاقات الدولية » ، مجلة الاقتصاد والادارة ، كلية الاقتصاد والادارة ، مركز البحوث والتنمية ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، رجب ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م . ص ٧٧ – ٨٨ .

(٢) كارل دويتش ، تحليل العلاقات الدولية ، ترجمة محمود نافع ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٧٩ .

العالم سنة ١٨٧٨ ، وازدادت تلك المناطق الواقعة تحت سيطرتها الى ٤ر٨٤٪ فى سنة ١٩١٤ . وقد ارتبط بهذا التوسع الضخم فيما أطلق عليه عصر الاستعمار (من عام ١٨٧٥) الذى كان من أهم مميزاته ما عرف بالامبريالية الجديدة (١) ، من ١٨٧٥ الى ١٩١٤ والتى تميزت من جهة بالتكالب السريع للحصول على مستعمرات ، ومن جهة أخرى بزيادة عدد القوى الاستعمارية (٢) .

والاستعمار يحظى بأهمية خاصة فى العلاقات الدولية ، حيث يلقى الضوء على كيفية ممارسة القوة فى أحد صورها على حساب الشعوب الأضعف ويبدو هذا الاهتمام واضحا فى الدول التى تمارسه كما يبدو أكثر وضوحا فى للعصر الحديث فى الدول النامية التى وقعت فى غالبيتها العظمى تحت وطأة الاستعمار مما كان له تأثيره الواضح فى العلاقات الدولية فيما بينها وبين بعضها بعد الاستقلال ، وفيما بينها وبين الدول ، سواء التى مارست الاستعمار من قبل ، أو الكبرى التى يخشى أن تلعب دور المستعمرين الجدد . فالعالم الذى شهد المد الاستعمارى فى الماضى يشهد الآن تقلصه فى صوره التقليدية مع محاولاته اتخاذ صور جديدة تتلاءم مع الأوضاع الدولية المتغيرة . وباختصار فان الاهتمام بدراسة ظاهرة الاستعمار جاء نتيجة لازدياد كثافة العلاقات الدولية واعتماد الدول بعضها على بعض من ناحية ، ومن ناحية أخرى نتيجة لازدياد

---

(١) هارى ماجدوف ، الامبريالية : من عصر الاستعمار حتى اليوم ، الطبعة العربية الأولى ، بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١ ، ص ١١٣ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن الامبريالية الجديدة انظر المرجع السابق ، ص ٤٣ — ٨٣ .

انظر أيضا : Andrew Mack, David Plant & Ursula Doyle, Imperialism, Intervention & Development, London : Groon Helm, 1979, p. 6.

انظر أيضا : — H. Magdoff, The Age of Imperialism : The Economics of U. S. Foreign Policy, New York & London : Monthly Review Press, 1969.

الوعى القـومى وتحرك الرأى العـام العـالمى ضـد الاستعمار فى صـوره الصريحـة الواضحة ٠

وترجع أهمية دراسة ظاهرة الاستعمار الى انهـا ظاهرة عالميـة فى الزمان والمكان ٠ وهى ظاهرة لها أهميتها فى الماضى والحاضر بل والمستقبل ، حيث من الواضـح أن رحيـل الاستعمار فى شـكله التقليدى منـذ منتصف القـرن الحالى لم يؤد الى تناقص الاهتمام بالظاهرة ، بل العكس هـو الصحيح حيث تزايـد الاهتمـام بالاستعمار فى ثوبه الجـديد فى اطـار علاقات التبعية ٠

فالاستعمار من الموضـوعات القديمـة الجـديدة التى وان كانت قـد مثلت اهتماما فى الماضى بتحليـل الظاهرة الاستعمارية من واقع التسـلط الرسـمى الا أن هـذا الاهتمـام قـد تزايـد بوضـوح برحيـل الاسـتعمار التقليـدى فى شـكله الرسـمى وتبـلور ما يعـرف بالاستعمار الجـديد فى ظل علاقات التبعية والتطـور اللا متكافىء بين الدول الأقوى والأغنى والأكثر تقدما والممثلة لمركز العالم من جهة ، وتلك الأضعف والأفقر والأكثر تخلفـا والممثلة لمحيطه من جهة أخـرى ٠ واذا نظرنا الى ترجمة هـذا الاهتمـام فى شكل دراسات عن الظـاهرة الاستعمارية نجـد أن ما كتـب فى الحقبتين الأخـيرتين عن الاستعمار تضاعف عـدة مـرات عما كتب من قبل : حتى انـه من العسـير حصر كل ما كتـب فى الغـرب عن الاسـتعمار فى الفترة الأخـيرة (١) ٠

واذا كان هـذا هـو الحـال بالنسـبة للدراسات فى الغرب فان الأمر جـد مختلـف فى العـالم العـربى : حيث تخلفت الى حـد بعيـد تلك

(١) لمزيد من المعلومات عن مدى وفرة المراجع المتعلقة بالاستعمار انظر: روجر اوين وبوب سـوتكليف ، دراسات نظـرية فى الامبريالية ، ترجمـة د ٠ وفيق جمال نظمى ود ٠ كاظم هاشم نعمة ، بغداد : وزارة التعليم العالى والبحث العلمى ، ١٩٨٠ ، ص ٣٦٢ ـ ٤٤٩ : حيث يقدم فى قائمة المراجع استعراضا لمحتويات نحو ٢٧٠ مرجعا حديثا عن الاستعمار باللغة الانجليزية ٠

الدراسات . فالاهتمام بالظاهرة من الناحية الاكاديمية لا يواكب ما لها من أهمية : ومعظم ما كتب يدخل فى مجال التاريخ السياسى بالاضافة الى بعض الانعكاسات الشخصية التى تحمل الطابع القيمى والمشحونة عاطفيا عن الظاهرة التى عانت وتعانى منها المنطقة . بل أن كثيرين من المهتمين بالظاهرة السياسية فى المنطقة العربية يسلمون بما يراه غير المتخصص من أن الاستعمار ينتمى للماضى . وهى النظرة التى ينقصها المزيد من العمق والمبنية على تصفية الاستعمار التقليدى مع عدم الوقوف أمام ظاهرة التبعية والاستعمار الجديد - الذى وان كان الكثيرون لا يفضلون استخدامه كمفهوم ، الا أنه كواقع يفرض نفسه على الممارسة السياسية والعلاقات بين الدول ، بل ويكيفها . فضلا عن أن العديد من الكتابات التى ظهرت مؤخرا فى مجال التبعية تميزت بما جاء به الماركسيون الجدد من صبغ الاستعمار قديمه وجديده بالصبغة الرأسمالية الخالصة ، مما يجعل من الصعب التعرف على مدى عالمية الظاهرة .

أما عن اهتمامى الشخصى بموضوع الاستعمار فلا أستطيع أن أحدد متى بدأ ، حيث انه فى الحقيقة نما معى : اذ ارتبط بجيلنا : فقد عشنا الاستعمار وتعايشنا معه فى صوره المختلفة : فقد ولدنا فى ظله ، ونمونا معانين منه فيما يتردد عن التدخل المباشر للدول الاستعمارية فى شئون منطقتنا العربية ويشعر به أكثر من كان يتردد على منطقة قناة السويس مثلا حيث الوجود الاستعمارى البريطانى فى القاعدة بما له من آثار سلبية خاصة فى النواحى النفسية . وشببنا ومعنا المشكلة الفلسطينية كنتاج للاستعمار الاستيطانى فى قلب الوطن العربى وكمتخلف عن الاستعمار الرسمى للمنطقة : تلك المشكلة التى دفعت فيها مصر بالذات ثمنا غاليا ترك فى كل منزل فيها شهيدا أو أكثر والتى مازالت تسيطر على الساحة العربية والدولية باعتبارها من أهم المشاكل العالمية « المزمنة » ان جاز هذا التعبير . كما وعينا وتعاطفنا مع الجزائريين فى حرب المليون شهيد ، وقد كان السبب المباشر لاشتراك فرنسا فى العدوان

الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ هو دعم الأخيرة للثورة الجزائرية . ولكننا فى نفس الوقت عاصرنا انهيار الامبراطوريات الكبرى - لتتساقط كأوراق اللعب - وذلك بظهور حركة تصفية الاستعمار التى اجتاحت الدول الافريقية - الآسيوية ، التى وإن أدت الى تصفية الاستعمار الرسمى فى شكله التقليدى ، الا أنها فتحت الباب واسعا للاستعمار الجديد وعلاقات التبعية والتنافس على الدول النامية حديثة الاستقلال فى العالم الثالث . ولقد كشفت لنا وسائل الاعلام والتقدم التكنولوجى فى مجالها الأحداث ، وبالتالى فقد عشنا الاستعمار سواء فى منطقتنا مباشرة أو فى غيرها من المناطق عن طريق الوسائل المرئية والمسموعة . وأصبحنا نعانى تارة مع الشعب الفيتنامى وأخرى مع الشعب الأفغانى .

ومن الطبيعى أن يدخل الاستعمار ضمن نطاق اهتمامى أكاديميا فى مجال النظم السياسية خاصة فى تطبيقى على الدول الأفريقية التى عانت وتعانى منه فى ثوبه القديم والجديد . فضلا عن متابعة الظاهرة الاستعمارية على مستوى الفكر من خلال اهتمامى بالفكر السياسى على مر العصور حيث اتخذ المفكرون وجهات نظر مختلفة فى شأن تلك الظاهرة . علاوة على ذلك ، فقد عالجت موضوع الاستعمار بجوانبه المختلفة لسنوات متتالية منذ عام ١٩٦٦ بدأت بمحاضراتى فى مادة العلاقات الدولية بكلية التجارة جامعة الاسكندرية ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وانتهت بالمحاضرات التى قدمتها لطلبة السنة التمهيدية بماجستير العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، والتى أصبحت النواة الحقيقية لهذا المؤلف .

أما الحدث الذى كان المحرك الأساسى لى على بلورة اهتمامى بالظاهرة الاستعمارية فى شكل عمل اكاديمى منظم فهو التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، حيث شاءت الظروف - وأقول الآن بعد بهتان ذكراها المفزعة - بل شاء حسن حظى أن أكون بالعاصمة براغ وقت ذلك الغزو السوفيتى حيث لم نستطع مغادرتها الا بعد

أن أعلن أن الحالة أصبحت طبيعية بعد ١٠ أيام . هذا الحدث كانت له آثاره الهامة ليس فقط على اهتمامى بالكتابة فى موضوع الاستعمار ، ولكن على تغيير رؤيتى عن الاستعمار الذى ظللنا نعتقد أنه ظاهرة غربية رأسمالية خالصة حيث لم نكن على وعى بانه يمارس من جانب الاتحاد السوفيتى على غيره من الدول الأصغر . فقد رايته فى دموع الآلاف وهى تشاهد القناصة السوفيت بالدبابات وهى تهدم ما يعترضها وتطأ ساعة الميدان القديمة الشهيرة ، كما رايته فى تساقط عشرات القتلى من الشباب والمقاومة الشعبية التى لم تخمد طوال فترة الغزو . حيث أن هذا الحدث قد نبهنى الى أن القهر ليس قاصرا على نظام معين أو على دولة بذاتها : وبالتالى أثار اهتمامى بموضوع عالمية الظاهرة الاستعمارية .

وقد قمنا بتقسيم الموضوع الى خمسة فصول فضلا عن المقدمة والفصل الختامى :

يتناول الفصل الأول : نحو تحديد للمفاهيم . وهو يتكون من مبحثين : المبحث الأول ويتناول تحديد مفاهيم الاستعمار والامبريالية . وذلك فى محاولة لاجلاء الغموض الذى يكتنف تلك المفاهيم خاصة الامبريالية ، حيث ان المعانى الأصلية اللفظية قد بهتت وأصبحت تلك المفاهيم تتعدد معانيها . أما المبحث الثانى فيتناول مفهوم الاستعمار فى الفكر السياسى الواقعى ، وذلك فى محاولة للتعرف على موقف المفكرين خاصة الواقعيين منهم من الظاهرة الاستعمارية مع توضيح وجهة نظر مكيافيللى الذى أرسى أبعاد ما يمكن أن يطلق عليه علم الاستعمار .

أما الفصل الثانى فيتناول دوافع الاستعمار ومبرراته ويتكون من ثلاثة مباحث : الأول ويتضمن الدوافع السياسية للاستعمار ، والثانى ويتضمن الدوافع الاقتصادية ، أما الثالث فقد خصص للدوافع النفسية والبشرية والانسانية . وذلك مع التسليم بأن أيا من الدوافع وحدها

لا يكفى لتفسير الظاهرة حيث ان التفسير الآحادى يعتبر قاصرا خاصة بالنسبة لظاهرة عالمية فى الزمان والمكان كالاستعمار .

والفصل الثالث : ركز على أنماط الاستعمار التقليدى : متضمنا مبحثين : الأول ويشمل العلاقة الثنائية غير المتكافئة : وتتضمن الاستعمار الاستيطانى ، والاستعمار الاستغلالى والتبعية والحماية . أما الثانى : فيتضمن نظام الاشراف الدولى من انتداب ووصاية فى محاولة لتوضيح كيف أن الأول كان استعمارا مقنعا ، بينما الاخير كان على العكس نظاما فعالا للاشراف الدولى .

أما الفصل الرابع : فيتضمن تطور الاستعمار وهو يتكون من مبحثين يشتمل الأول على المد الاستعمارى ، أما الثانى فيشتمل على الجزر الاستعمارى : تصفية الاستعمار ، موضحا أهم العوامل التى أسهمت فى تلك التصفية .

والفصل الخامس يتناول الاستعمار الجديد وعلاقات التبعية ، ويتكون من ثلاثة مباحث : الأول ويتناول مضمون الاستعمار الجديد والتبعية ، أما الثانى فيتناول نظرية جالتونج الهيكلية فى الاستعمار ، أما المبحث الثالث فيتناول أساليب التبعية مع التركيز على الشركات متعددة الجنسية . أما الفصل الأخير الختامى فقد اخترنا له عنوان « ورطة التبعية » . الأمر الذى يعبر بصدق عن حقيقة المشكلة التى تواجه الدول النامية التى تجد نفسها بين شقى الرحى : حيث لا تستطيع أن تعيش بدون تبعية كما أنها تعانى فى نفس الوقت من تلك التبعية . وقد حاولنا توضيح العديد من الأسباب الموضوعية التى تزكى تلك التبعية .

هــذا وفى تناولنــا للموضــوع اعتمدنا قدر الامكان على اتبــاع المنهاج التحليلى لا الوصــفى . وذلك بالتصــدى للمســائل التى تــدور حـــول كيف ولمــاذا ؟ بــدلا من المتبع تقليــديا فى هــذا المجال بتناول المسائل التى تدور حول متى وأين ؟ وذلك فى محــاولة منا لتنظير تلك الظاهرة .

والله ولــى التوفيق ،،،

أ . د حــورية توفيق مجــاهد

القاهرة فى سبتمبر ١٩٨٤

الفصل الأول

نحـو تحـديد للمفاهـيم

مع ان لفظ الاستعمار من أكثر الالفـاظ استخداما الا انه من اكثر المفاهيم صعوبة فى التعريف ، ويرجع ذلك الى عدة أسباب : **فمن ناحية** ، هناك الكثير من الابعاد الذاتية التى يحمل بهـا مفهوم الاستعمار فهـو يثير الكثير من الاحاسيس والانفعالات من الناحية العاطفية ، خاصة بين الشعوب التى وقعت فريسة له · والاتهـامات بممارسة الاستعمار أو محاولة ممارسته متداولة بين الدول المتنازعة والمتنافسـة فى العالم ، كل منها تصم به الاخرى ، **ومن ناحيـة أخرى** ، فان الاستعمار من المفاهيم الواضـحة التى تبتعد فيهـا الدلالة اللغـوية عن الدلالة السيـاسية · فاذا كانت الاولى تاتى بمعنى التعمير والاعمار (١) فان الثانية أصبحت تعنى التخـريب (٢) والاستنزاف ، حيث تتضمن بالدرجة الاولى الهـدم لا البناء والاصلاح : الهـدم بالنسـبة للشـعوب المخضعة ، والبنـاء ان وجـد فهـو لصالح من يمارس السياسة الاستعمارية · **ومن ناحية ثالثـة** ، فان الاستعمار ـ مثله مثل العـديد من المفاهيم الاخـرى فى العـلوم الاجتمـاعية ـ فقـد

---

(١) لم يرد فى معاجم اللغة العربية لفظ استعمار ، ولـكن جـاءت مشتقاته : عمار ، وتعمير ، وعمر ، وعمران · وان كان قد جـاء فى القرآن الكريم ذكر لفظ « استعمركم » ، مـرة واحـدة ، فى قوله تعالى : « هـو انشاكم من الارض واستعمركم فيهـا » (هـود : ٦١) ، الا انه يعنى نفس المـدلول اللغـوى : أى جعلكم عمارها · كما جـاء ذكر عمر ويعمـر أكثر من مـرة وذلك فى قوله تعالى : « كانـوا أشـد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها » (الروم : ٩) · « أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات » (الروم : ٩) · « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليـوم الآخـر » (التوبة : ١٨) · « ما كان للمشركين أن يعمروا مسـاجد الله شـاهدين على أنفسـهم بالكفر » (التوبة : ١٧) ·

(٢) عن استخدام تعبير « استخراب » للدلالة على الاستعمار (المغولى والتترى) ، انظر : د · جمـال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، بيروت ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣ ، ص ٤١ ·

معناه الأصلى وأصبح يستخدم فى أبعاد متعددة وحالات مختلفة . ومن ناحية رابعة ، فان الاستعمار كسياسة وكمحاولة لا يقتصر على شعب أو جنس معين حيث مارسته كل الشعوب وكل الدول الكبيرة المعروفة بطريقة أو بأخرى على مر تاريخها ، والاختلافات فى الواقع كانت فى الدرجة والنمط وليست فى المضمون والأساس وبالتالى فان طول معرفة التاريخ بظاهرة الاستعمار جعله يتشكل وفقا للظروف ، ومن ثم يصعب تعريفه : فهو ظاهرة تاريخية على درجة كبيرة من التعقيد لبست أثوابا متعددة . حقيقة أن « الاستعمار » و « الامبريالية » كمفاهيم سياسية لم تعرف الا حديثا ، حيث ترجع الى القرن التاسع عشر فقط (١) ، الا أن الممارسة الفعلية للسياسة التوسعية سبقت ذلك بكثير . وأخيرا فان هناك تداخلا وخلطا بين مفهومى الامبريالية والاستعمار ، فهناك من يستخدمهما كمترادفين ، وهناك من يفرق بينهما ، وتبدو هذه الصعوبة بوضوح فى استخدام مفهوم الاستعمار باللغة العربية حيث لا توجد كلمة عربية تفيد معنى الامبريالية . فما هو تعريف الاستعمار اذن ؟ وماذا تعنى الامبريالية التى عادة ما تتردد عند بحث الموضوع ؟

(١) استخدم مفهوم الاستعمار لأول مرة فى انجلترا فى القرن ١٩ للاشارة الى التوسع الاستعمارى فيما وراء البحار . أما مفهوم امبريالية فقد استخدم للمرة الاولى فى فرنسا عام ١٨٣٠ للاشارة الى معنى خاص : وهو أنصار امبراطورية نابليون الاول ، وبعدها بسنوات قليلة أصبحت تستخدم للاشارة لانتقادات التوسعات الاستعمارية لنابليون الثالث . ولم تنتقل لبريطانيا الا عام ١٨٧٠ حيث أصبحت تستخدم للاشارة لسياسة دزرائيلى التوسعية ومن بعد ذلك استقرت لتشير للسياسة التوسعية على الشعوب الاجنبية خاصة فيما وراء البحار . ثم انتشر استخدامها فى القرن الحالى - وخاصة من بعد لينين - لتشير لتوسع الدول الرأسمالية بالذات على حساب غيرها من المناطق المتخلفة فى العالم .

انظر :

D. K. Fieldhouse, Colonialism 1870-1945 : An Introduction, London : Butter & Tanner Ltd., 1981, pp. 1-9.

ولمزيد من المعلومات عن تطور استخدام مفهوم الامبريالية انظر :

International Encyclopedia of Social Sciences New York : The Macmillan Co., & Free Press, 1968, Vol. 7, p. 101.

المبحث الاول : مفهـوم الاستعمار والامبريالية :

فى محاولة لتاصيل المفـاهيم (١) ، يلاحظ ان كلمـة « امبريالية Imperialism »من الناحية التاريخية تعنى انشـاء امبراطورية « Empire » ، بموجبها تقوم دولة بمد حكمهـا الى خـارج حـدودها الاصـلية على شعوب متعددة الجنسيات (٢) وقد استخدمت لاول مرة للاشارة الى الامبراطورية الرومانيــة « Imperium Romanum » (٣) ومنها تداولتها الالسن . فكلمة امبريالية مشـتقة من « Imperium » (٤) وهى من أصـل لاتينى وتعنى

(١) من المراجع الاسـاسية فى مجال الاستعمار : Louis L. Snyder (ed.).,
The Imperialism Reader : Documents & Readings on modern expansionism, Princeton, New Jersey : D. Van Nostrand Co., Inc., 1962.

ولمزيد من المعلومات عن تعريفات متعددة للاستعمار والامبريالية انظر على وجه الخصوص ص ١٩ ـ ٢٦ من المرجع المذكور حيث يتضمن تعريفات مختلفة من قواميس ودوائر معارف ومصـادر عدة . ويتضمن هـذا المرجع الضخم نحو مائتى مقالة ووثيقة عن الاستعمار .

(٢) الحـكم فى هـذا المجال يعنى « قوة سياسية مؤسسة » وهى تتكون من قوة قهـر « Coercive Power » وهـذه الاخـيرة تعنى القـدرة على فرض الارادة على الآخرين الذين يكونون أضـعف ، أو غـير موافقين على قيم وأهـداف الدولة التى تتملك القـوة . فى تعريف الحكم بهذا المعنى انظـر :

Carl J. Friedrich, « Political Leadership & the Problem of the Charismatic Power. » The Journal of Politics, Vol, 23, No. 1, Feb 1961, pp. 9 - 10.

(٣) انظـــر :

Hans Morgenthau, Politics Among Nations : The Struggle for Power and Peace. New York : Alfred A. Knopf. 1985. p. 60.

أنظر أيضا طبعة ١٩٦٨ لنفس الناشر ، ص ٤٣ .

ولمزيد من المعـلومات عن مفاهيم « الامبريالية والامبراطورية » منـذ الامبراطورية الرومانية انظر :

R. Kobner, Empire, London : Cambridge University Press, 1961.

وعن معالجة الامبريالية على انها مرادفة للامبراطورية ومحاولة أمـة للسيطرة على غيرها كظاهرة تاريخية مستمرة ، انظر :

E. J. Strachey, The End of Empire : Principles of Democratic Socialism, Part 2, London : Collancz, 1959.

(٤) ومنها جاءت كلمة امبراطور Imperätor (Emperor بالانجليزية)

قـوة أو سـلطة أو سيادة . وعليه فقـد استخدمت أصلا فى مجـال الاشـارة الى الامبراطورية الرومانيـة وما تضمنته من سـلطة عليا فرضت على الشـعوب الأجنبية .

أمـا الاسـتعمار بمعنى « كولونياليـة » « Colonialism » فيعنى فى معنـاه الأصـلى استعمارا استيطانيا وهـو مستمد من كلمـة « Colony » المشتقة من لفظ « Colonia » وتعنى باللاتينية مستعمرة . وهو يتضمن حركة وانتقالا للمواطنين من دولتهم الأصـلية الى اقليم ما وراء البحـار - أجنبى عنهم - والاستيطان به استيطانا دائما وتعميره نتيجة الاستيطان .

ولكن هـذه المعـانى الأصـلية طمست حاليا وأصبحت كلمتا استعمار وامبريالية تسـتخدمان حتى بالانجليزية كمترادفين وكأنهما شىء واحد . وان كانت هناك مجهودات ومحاولات علمية للتفرقة بينهما (١) فهناك مثلا من يعرف الامبريالية بأنها « السياسة التى تقـوم بموجبها أمة بفرض حكمهـا أو آرائهـا على الآخـرين دون النظـر الى ارادتهم » ، ولـكن « بمجـرد اقامة الحـكم واستخدام القـوة القهـرية للمحافظة عليه ضـد رغبـة السـكان ، تنتـج عن هـذا عـلاقة امبرياليـة - اسـتعمارية Imperial - Colonial Relationship ، فهى اسـتعمارية بالنسـبة للمحكومين وامبريالية بالنسبة للحاكمين » (٢) ولكن هـذه التفـرقة غـير واضـحة وتعود مرة أخرى الى نقطة البداية ، ولا يتضح ما تعنيه بأنها « استعمارية بالنسبة للمحكومين وامبريالية بالنسبة للحاكمين » الا اذا حاولنا الاجتهاد بالقول بأنهـا بالنسبة للحاكمين تعنى استخدام القـوة وفرض السـلطة

---

(١) من المحاولات الجادة للتفرقة بين الاستعمار والامبريالية انظر :
Hans Kohn, « The Meaning of Imperialism, Colonialism and their Variations, 1958 » in Snyder op. cit., pp. 44-51.

(٢) N. Padelford & G. Lincoln, The Dynamics of International Politics, London : Macmillan, 1967, p. 89.

وممارسة القوة عامة ، أما بالنسبة للمحكومين فتعنى التسلط على المناطق التي يعيشون بها من قبل الدولة التى تبسط سلطانها عليهم .

وهناك من يرى أن الفرق بين الامبريالية والاستعمار هو ان الأولى تتضمن القهر والضغط والاجبار والاخضاع ضد رغبات الشعوب التى تمارس عليها ، أما الاستعمار فيمارس فى المناطق غير الماهولة - وينتج عنه تعميرها - والتى لم تتطلب حالات القهر والاجبار وممارسة القوة القاهرة لفرض الحكم حيث لا توجد مقاومة تواجه فرض الحكم والسيطرة (١) . وأصحاب هذا الراى يرون ان التفرقة بين الامبريالية والاستعمار ذاتية وتتوقف الى حد كبير على رد فعل المعنيين ممن يمارس عليهم التسلط . ولكن هذه التفرقة ليست موضوعية ، ومسالة مقاومة أصحاب البلد الأصليين لمواجهة فرض الحكم والسيطرة مسالة نسبية . فكافة حالات الاستيطان بصفة عامة واجهت مقاومة ، والفارق ليس فى وجود المقاومة أو عدم وجودها ولكن فى درجتها ونطاقها . فالاستيطان الأوروبى فى أمريكا لقى مقاومة الهنود الحمر - أصحاب البلد الأصليين - واستيطان البوير فى جنوب افريقيا واجه مقاومة من الهوتنتوتس أولا ثم البانتو الزاحفين نحو الجنوب ثانيا . حقيقة أن المقاومة التى واجهها ومازال يواجهها الاستيطان الاسرائيلى فى فلسطين (٢) أوسع نطاقا وأكثر عمقا ولكن وجود المقاومة كان حقيقة فى كافة هذه الحالات ، وهذا على سبيل المثال .

ولكن يمكن التفرقة بين الامبريالية والاستعمار وفقا لما آل اليه استخدام كل منهما على أساس أن الامبريالية تعنى السياسة الاستعمارية أيا كان النمط الناتج عنها . أى أنها تعنى الاستعمار فى مفهومه الواسع العام ويدخل تحت لوائها العديد من الأشكال والأنماط . أما الاستعمار

---

(١) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٢) وقد تصاعدت مقاومة الفلسطينيين « بانتفاضة الحجارة » التى بدأت فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧ والتى مازالت مستمرة .

فهو ترجمة هذه السياسة الى واقع عملى وأشكال متعددة منها ، الاستعمار الاستيطانى والاستعمار الصريح ، أو ما يعرف بالاستعمار الاستغلالى .

وفى مجال بحثنا ينصب تحليلنا على السياسة الاستعمارية ، أى على الاستعمار بمعناه الواسع أو ما يعرف بالمعنى الدقيق أو العلمى بالامبريالية ومع ذلك فلن نستخدم لفظ امبريالية فى الغالب ، بل سنستخدم لفظ استعمار أو سياسة استعمارية حيث أن كلمة امبريالية — التى تعتبر محل نظر عند كثير من الكتاب والباحثين حتى الغربيين منهم — لا يوجد لها مثيل باللغة العربية وهى لا تستخدم عادة فى اللغة العربية الا وهى محملة « بشحنات عاطفية » أو ايديولوجية أو على أحسن الفروض اقتصادية ، وذلك نتيجة لربطها ببعض الاتجاهات والمذاهب (١) حيث استخدمها لينين ومن بعده على أساس صبغها بالصبغة الغربية ، وذلك بتركيزه على أن « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » — وهو ما جعله عنوان أشهر مؤلفاته (٢) — ولكن كما سيتضح من تحليلنا التالى فان

---

(١) جاء فى قاموس روسى للاصطلاحات السياسية أن « الامبريالية هى الرأسمالية الاحتكارية وهى أعلى وآخر مراحل الرأسمالية » . قاموس موجز للاصطلاحات السياسية ، موسكو : وكالة نوفستى ، ١٩٨٣ ، ص ١٨٠ .

(٢) من الجدير بالملاحظة أن لينين استخدم تعبير امبريالية فى وصف مرحلة الرأسمالية الاحتكارية باعتبارها أساس الامبريالية . وحتى نسخة كتابه الاصلية بالروسية وكما ترجمت بالانجليزية هى « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » . ولكن فى الترجمة العربية التى تمت فى موسكو استخدم لفظ استعمار بصفة عامة بدلا من امبريالية وبالتالى جاء عنوان مؤلفه هذا : « الاستعمار : أعلى مراحل الرأسمالية » . كما يلاحظ أنه فى عدة مرات استخدم اللفظان معا فى المتن : أى استعمار (امبريالية) للاشارة للظاهرة . فكأن اللفظين استخدما كمترادفين فى الترجمة العربية ، الامر الذى لا ينطبق على الاصل الروسى ولا على الترجمة الانجليزية له . وربما يكون السبب الاساسى هو عدم وجود كلمة باللغة العربية مرادفة للامبريالية بل هناك فقط كلمة استعمار . انظر : الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥ — ٤٥١ . =

الامبريالية بمعنى التسلط والقهر والاخضاع تمثل سياسة استخدمتها الدول الغربية والشرقية على حد سواء ، واستخدمتها الدول والشعوب الموجودة قبل تبلور النظام الرأسمالي نفسه . أما الاستعمار بمعناه الضيق كبعد من أبعاد الاستعمار بمعناه الواسع أو الامبريالية وكمخلفات للمعنى الأصلي اللفظي المستمد من « مستعمرة » فلن نستخدمه الا معرفا كقول : « استعمار استيطاني » .

هذا ويذهب الى ذلك الرأى الخاص بالتحفظ فى استخدام كلمة امبريالية العديد من الباحثين الغربيين فى مجال الظاهرة الاستعمارية . ويعبر ثورنتون عن ذلك بقوله : « الامبريالية كلمة ليست لرجال العلم . انها تعرضت الى تحليلات عدة واعطيت ظلالا شتى وكثيرا من المعانى . وفى زمننا هذا أصبحت ألعوبة أو صيحة حرب ، أو بطاقة تصنيف فى مختبر سوسيولوجى » (١) . ويعلق على هذا هارى ماجدوف بقوله : « يفضل رجال العلم الاكاديميون المهذبون ، كقاعدة عامة ، ألا يستخدموا تعبير « امبريالية » . انهم يجدونه بغيضا وغير علمى » (٢) .

والاستعمار فى أبسط تعريفاته يعنى « قيام دولة أو مجموعة من الافراد بحكم أفراد آخرين أجانب عنهم فى أرض أجنبية » بمعنى أنه يستخدم كمرادف لأى توسع استعمارى (٣) . أما أكثر التعريفات

=

ويقارن بالنص الانجليزى فى : Imperialism the Highest Stage of Capitalism, in V. I. Lenin, Selected Works, Vol. I, Moscow : Foreign Languages House, N. D., pp. 709-842.

مع ملاحظة أن كلا المرجعين نص على أنه مطابق لنفس الطبعة الروسية الصادرة فى موسكو سنة ١٩٦٠ .

(١) انظر مقدمة : Pierre Gallet, Imperialism in the Seventies, New York : Third Press, 1972.

(٢) ماجدوف ، الامبريالية : من عصر الاستعمار .. ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٣) انظر : Barker Thomas Moon, Imperialism & World Politics, New York : The Macmillan Company, 1928.

شيوعا فهو أن الاستعمار يعنى تسلط الدول الغربية المتقدمة صناعيا على غيرها من المناطق فى افريقيا وآسيا ، أو الاستغلال الاقتصادى للشعوب المتخلفة بواسطة المجتمعات الصناعية الغنية » (١) .

ولكن فى الواقع كلا التعريفين يعتبر قاصرا الى حد كبير : فالأول يقصره على الحكم الفعلى لأرض أجنبية ، أى تغيير الحدود والخريطة السياسية ولا يأخذ فى الاعتبار الوسائل غير المباشرة للسيطرة من امتداد التسلط دون تغيير الحدود . أما التعريف الثانى فهو يقصر الاستعمار على الدول الغربية الصناعية ، وبالتالى ينظر اليه على أنه ظاهرة حديثة مرتبطة بالتطور الصناعى ، ولا ينظر الى الحالات السابقة على هذا التطور ، كما يركز على الدوافع الاقتصادية ، أى يأخذ فى الاعتبار فقط محاولات التسلط من جانب الدول الغربية ، ولا يشتمل على مثل هذه المحاولات من جانب الدول غير الغربية ، وهو أيضا لا يأخذ فى الاعتبار الدوافع غير الاقتصادية كالدوافع السياسية والاجتماعية والانسانية وغيرها .

وفى الواقع فان أشمل تعريف للاستعمار هو أنه : « السياسة التى تقوم بالممارسة الفعلية أو التمهيد أو الدعوة لامتداد السيطرة أو لتوسيع دولة أو تكوين امبراطورية » . أى أنه يتضمن كافة أنواع التسلط ، أو حتى مجرد محاولات ذلك من جانب دولة « أو كيان منظم » على غيرها من الدول أو المناطق غير المستقلة حتى ولو لم يتبع ذلك تغيير فى الحدود والخريطة السياسية ، وسواء مارسته الدولة ضد شعوب مختلفة معها ثقافيا وتقع بعيدا فيما وراء البحار مثلا أو شعوب لها نفس الثقافة ويجمعها معها تلاصق جغرافى ، وسواء مارسته بطريقة صريحة

(١) Fred Green, Dynamics of International Relations : Power, Security & Order, New York, Chicago & London : Holt, Rinehart & Winston, 1964, p. 25.

مفتوحة أو كان استعمارا مقنعا يختفى تحت ستار اتفاقية دولية أو معاهدة أو تحالف او غير ذلك . ولكن المحك الرئيسى هو ان تقوم السيطرة او التسلط او بسط النفوذ قهرا وضد رغبة من تفرض عليهم السيطرة أو ضد مصالحهم ، وهو الأهم .

فالاستعمار اذن هو : « السياسة التى بموجبها تقوم دولة او جماعة منظمة بفرض حكمها او آرائها او ايديولوجيتها على آخرين اجانب عنها فى ارض اجنبية دون النظر لارادتهم وذلك تحقيقا لمصالحها » .

وعلى هذا فمن تعريف الاستعمار يمكننا استخلاص العناصر التالية للسياسة الاستعمارية :

١ - انها تمارس من قبل دولة - وهى الوحدة السياسية الاساسية فى العلاقات السياسية الدولية - أو من جانب جماعة او كيان منظم - مثل الشركات متعددة الجنسية أو المستوطنين .

٢ - أن الهدف من ممارستها هو تحقيق مصالح ممارسيها سواء السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو غيرها .

٣ - أن ممارسة السياسة الاستعمارية تعبير عن ارادة الدولة المستعمرة - أو الجماعة - وعن مصالحها بصرف النظر عن ارادة او مصالح الشعوب التي تمارس عليها .

٤ - أن السياسة الاستعمارية لا تتضمن بالضرورة الحكم الفعلى لأراض اجنبية ، حيث يتعدى الأمر ذلك الى المد الأيديولوجي والثقافى والفكرى . وعليه فالاستعمار لا يعنى بالضرورة تغيير الخريطة السياسية أو الضم بل قد يمارس محافظا على مظهر الاستقلال .

٥ - أن السياسة الاستعمارية مظهر من مظاهر ممارسة القوة فى

العلاقات الدولية ونعنى بهـا القـوة بمفهومها السياسي القائمة على التأثير القهـرى من ترغيب وترهيب ٠

ويعتبر الاستعمار ظاهرة عالمية فى الزمان والمكان ، فهو قديم قـدم الجماعات السياسية ، وهو فى الواقع أحـد مظـاهر السياسة الخارجيـة للدول التى لا ترضى بالوضع القـائم وتهدف الى قلبه أو تعديله لصالحها ٠ وعليه فهناك علاقة قوية بين الاستعمار وتوازن القـوى حيث ان الـدول التى ترغب فى تعـديل توازن القـوى القـائم وتعديل علاقات القوى تعديلا جـذريا أو القضـاء عليهـا تعتبـر من الـدول التى تمـارس سـياسة استعمارية ٠ ومع أن الاستعمار يرتبـط بسـياسة التخلص من الوضـع القـائم كقاعدة عامة الا أن هـذه النقطـة بالـذات تثـير تسـاؤلا جدليـا استغله الكثيرون للدفـاع عن حـالات استعمارية وتبريرها وكانهـا غـير استعمارية ولا تدخـل فى اطـار الاستعمار ٠ فاذا كان الاستعمار يرتبط بالرغبـة فى الاطاحة بالوضـع القـائم والعمل على ذلك فهـو اذن سـياسة ديناميكية لا ترضى بالوضـع القـائم ٠ والسـؤال الآن هو هـل العمل من أجـل المحافظـة على امبراطورية قائمـة وتوسع سـبق أن تم ، أى السـعى للابقـاء على استمرار الوضـع القـائم من جانب المسيطرين على امبراطورية أو مستعمرات ، هل يخـرج عن اطـار الاستعمار أو هل لا يعتبر استعمارا ؟

يؤيد هانس مورجنثو هـذا الرأى (١) ٠ وان كانت هـذه النظـرة لا تتصـف بالموضـوعية ويؤيدها مؤيدو اسـتمرار السـيطرة الاستعمارية التى سـبق فرضـها ، فالاسـتعمار مظهـر لعـدم التكافؤ والقـوة النسبية فى جانب والضـعف النسـبى فى جانـب آخـر : وهـو يوجـد حيثما توجد سيطرة وضـغط وتسـلط سـواء ما يفرض منـه لأول مـرة أو ما يتمثل فى سياسة المحافظة على هـذا التسلط والضغط والسيطرة ٠

---

(١) انظـر : Morgenthau, 1968, op. cit., pp. 45-6.

وراجع الطبعة اللاحقة ١٩٨٥ ، مرجع سابق ، ص ٥٩ - ٦٠ ٠

ومن الجدير بالملاحظة أن الاستعمار حيث أنه يعتبر « سياسة قوة » فهو قائم على الضغط والاخضاع والاجبار والتسلط • والتفرقة بين القوة والنفوذ تفيد فى هذا المجال • حيث أنه من الأخطاء الشائعة الاعتقاد بأن أية محاولة من قبل دولة لمد نفوذها فى دولة أخرى أو لزيادة قوتها تدخل فى باب الاستعمار •

ففى العلاقات الدولية فى العصر الحالى **هناك استحالة لأن** تأخذ دولة ما موقف العزلة التامة عن غيرها من الدول أعضاء المجتمع الدولى ، وهى فى علاقاتها تسعى لمد نفوذها فى بعضها بعضا بوسيلة أو باخرى تحقيقا لمصالحها المشتركة والمتبادلة • ولكن المحك الرئيسى هو أن الاستعمار يرتبط بأية محاولة أو ممارسة « لبسط النفوذ قهرا » ، وفى هذه الحالة لا يسمى نفوذا بمعناه الدقيق بل هو تسلط • فقد يكون للدولة نفوذ لدى دولة أخرى بفعل العلاقات الشخصية القوية بين زعمائها مثلا أو بسبب عوامل مشتركة كالدين أو اللغة أو غيرها مما يساعد على التعاطف بينهما ، ولكن النفوذ هنا لا يعتبر استعمارا الا اذا اتبع الضغط والاخضاع والاجبار لفرض السيطرة ومد التسلط • وفى الواقع هناك شعرة واهية تفرق بين الاستعمار كتسلط واخضاع واجبار - يمارس ضد رغبات الشعوب التى يفرض عليها - وبين النفوذ كنتيجة للاقناع والاستمالة والتقبل العام • فمن الممكن أن ينقلب الاستعمار الى مجرد التمتع بالنفوذ ، والعكس بالعكس ، ويتوقف ذلك على وجود أو عدم وجود القوة كتاثير اخضاعى والاعتماد على النفوذ كتاثير استمالى • فلا يعنى مجرد تحرك الدولة فى اطار تراكيب القوى القائمة ، دون أن تسعى للاطاحة بها أو اقامة علاقات قوى جديدة فى صالحها ، أنها لا تمارس سياسة استعمارية • فالعبرة هى بما اذا كان التصرف يعتمد على القهر والتسلط أو على النفوذ والاستمالة فى اطار علاقات القوى القائمة •

المبحث الثانى : مفهوم الاستعمار فى الفكر السياسى الواقعى :

واذا انتقلنا من تحديد المفهوم الى مجال رؤية المفكرين السياسيين الواقعيين للظاهرة الاستعمارية التى تقع فى عالم الواقع والممارسة الفعلية ولا تقع فى عالم المثاليات - حيث يلفظها المثاليون باعتبارها فى رأيهم شر يجب القضاء عليه مثلها فى ذلك مثل الصراع على القوة - نجد ان المفكرين الواقعيين هم انفسهم ليسوا على اتفاق فى الدفاع عن الظاهرة الاستعمارية بلا تحفظ وان كان الاتجاه الغالب هو التأكيد على أهميتها ان لم يكن حتميتها .

فبالنظر الى ارسطو (١) - أب العلوم السياسية ورائد الاتجاه الواقعى - نجد انه كان حريصا على ابراز ان هناك حدا لحجم الدولة لا يجب عليها أن تتجاوزه ، مثلها فى ذلك مثل الكائنات الحية كالنباتات والحيوانات ، أو غيرها حيث أن هذه جميعا تفقد قوتها الطبيعية عندما تكون كثيرة جدا أو قليلة الى حد كبير جدا فهى فى هذه الحالة ان لم تفقد طبيعتها فانها تفسد . فهناك حجم امثل للدولة فى راى ارسطو : وهذا الحجم يتحدد بأن يكون الحد الأقصى للسكان هو اكبر عدد كاف لأهداف الحياة ، بحيث يمكن التطلع اليه بنظرة واحدة ويستطيع المواطنون مباشرة الحياة السياسية والالتقاء فى جمعية واحدة . وعليه فقد استبعد امكانية أن تكون أمة دولة حقيقية . فالدولة فى رايه يجب الا يزيد عددها عن ١٠٠ ألف شخص حتى يستطيع الأفراد أن يمارسوا الحياة السياسية ويعرفوا بعضهم البعض ويقيموا

---

(١) عاش ارسطو فى الفترة من ٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م .
لمزيد من المعلومات انظر : د . حورية توفيق مجاهد ، الفكر السياسى من أفلاطون الى محمد عبده ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٦ ، ص ٧٤ - ١٠٤ .

حيــاة اجتمــاعية • وقــد اقترح عــدة اقتراحــات حتى لا يزيــد عــــدد الأفــراد فى الدولة عن العــدد الذى قرره منهــا : تدخـل الدولة لتحـديد النســل ، وقتل الأطفــال المشوهين والاجهاض المبكر •

ومن هنا جــاء رفض أرسطو للاستعمار ، مــع انه عمــل لفترة معلما للأمير المقــدونى الذى أصبح فيمــا بعد الاســكندر الأكبر بانى ثانى أكبر امبراطورية فى التاريخ (١) • فقــد كان هــدفه العــودة لماض زاهــر لدولة المدينــة التى مثلت الوحــدة السياسية الأســاسية فى اليــونان القديمة فى ذلك الوقت والتى كانت بمثابة دولة فى نظامها السياسى وسيادتها واستقلالها ولكن بمثابة مدينة فى محدودية نطــاقها الجغرافى والسكانى • فقــد تطــلع للخلف لا للأمام حيث لم يــر ضرورة اتباع سياسة التوسع حتى فى اتحــاد دول المدينة اليونانيــة معــا لتكون دولــة واحــدة • فقــد اعتبر أرســطو ان الاســتعمار والتوســع هــو أحــد أسباب الثورات وعــدم الاســتقرار وذلك فى نطــاق تحليله للنظــرية العــامة للثورة • وفى هــذا كان تأثــره بعصره واضحا •

أما ابن خلدون (٢) أشهر المفكرين الاسلاميين ورائد علم الاجتمــاع الذى أرسى عــلم الســياسة على أسس موضــوعية - فانــه وان باعــدت بينــه وبين أرســطو المســافة والظــروف الا أنه تأثــر هو الآخر الى حــد بعيد بحقيقة الانقســامات السياسية الموجــودة فى المغــرب والأندلس فى عصره ، وكان تأثره واضــحا فى تحليله لمضــمون العصبيــة التى جعلهــا محورا لأفكاره الســياسية • والعصبية فى رأيــه هى نعرة كل فرد على نسبه وعصبيته • وما جعله الله فى قلوب عبــاده من الشــفقة والنعرة على ذوى أرحامهم وأقاربهم موجــودة فى الطبــائع البشرية وبهــا يكون التعاضــد

---

(١) أما أكبر امبراطورية عرفها التاريخ فهى الامبراطورية المغولية •

(٢) وقد عاش فى الفترة من ٧٢٢ - ٨٠٨ هـ •• انظر المرجع السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٩١ •

والتناصر : أى أن العصبية عبارة عن صلة الرحم وهى صلة طبيعية بين البشر ويتولد عنها الولاء والالتحام والحلف ٠ وبعبارة أخرى فان العصبية هى نعرة الانسان على من ينتسب بوجه من وجوه النسب ان يناله ضيم أو تصيبه هلكة ٠ والولاء فى العصبية أساسه قبلى محلى اى أولى ، أما فى الدولة القومية الحديثة فأساسه قومى ويعتبر أسمى درجات الولاء متخطيا الانتماءات الأولية داخل الدولة ٠ والعصبية والنعرة المرتبطة بها عند ابن خلدون قد تكون للقبيلة أو العائلة الممتدة ، أى قد تعنى العصبية بمعناها الواسع أو قد تكون للاخوة وأبناء العم ، اى الألصق من حيث صلة الرحم ٠ وفى هذه الحالة تكون العصبية اضيق ولكنها أقوى ٠ وقد رأى ابن خلدون أن العصبية مرتبطة بالرئاسة لأن الأخيرة تكون فى هذا النسب الخاص ولا تكون فى الكل ٠ ومن يتولى الرئاسة لابد أن تكون عصبيته أقوى من الكل ، وبالتالى فان الرئاسة لابد أن تكون موروثة عن مستحقيها نظرا للتغلب بالعصبية ٠ وغاية العصبية هى الملك ، فى رأيه ، فهى تجرى لغاية محددة بحيث ان العصبية الأقوى من بين عصبيات القبيل الواحد تغلب على بقية العصبيات ، وبالتالى تلتحم كل العصبيات فيها ، وتظهر وكأنها عصبية واحدة ، كبرى ٠ وفى تحليله للعصبية لا يكتفى ابن خلدون بتوضيح النواحى الوظيفية الطبيعية وأثرها ، أى لا يكتفى بتوضيح القوة الجسدية وحدها ، ولكن يرى ضرورة توافر القوة المعنوية المرتكزة على الأخلاق والدين ٠

وقد ربط ابن خلدون بين العصبية وحدود الدولة موضحا أن الدولة يجب أن يكون امتدادها الجغرافى محدودا ، على قدر أهل العصبية المكونين لها بحيث لا تتسع أطرافها ويزيد عدد من يتولون الأطراف من أهل العصبية وينفذ فى النهاية فتصبح مغنما للأعداء ٠ وهو يؤكد على أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها ٠ وفى تحليل ابن خلدون لأطوار عمر الدولة تناول التوسع ولكن فى اطار الدولة من جانب أصحاب العصبية الأقوى على الأضعف بما يؤدى

الى التغير فى الحكومة لا فى الدولة نفسها . ولم يركز على التوسع بين الدول وذلك فى ضوء رؤيته عن ضرورة محدودية الدولة فى نطاقها الجغرافى وذلك بمحدودية العصبية الغالبة بها .

وبالنظر الى مكيافيللى (١) الذى يعتبر الابن البار لعصر النهضة ، فانه على الرغم مما يقال فى شأنه نتيجة مبدئه بأن « الغاية تبرر الوسيلة » الا انه يعتبر بحق فنى متخصص فى أصول الحكم .

وقد بلور مكيافيللى نظرية فى الاستعمار متعددة الجوانب توضح الهدف من السياسة الاستعمارية وأساليب استخدامها والقواعد التى يجب أن تتبع لضمان نجاح تلك السياسة الى حد انه أرسى ما يمكن ان يطلق عليه علم الاستعمار ، فقد رأى أن على الدولة ان تأخذ الحروب الاستعمارية بجدية ، على أساس ان الدولة التى لا تتوسع على حساب غيرها تكون عرضة لتوسع الدول الأخرى على حسابها . اى أنه رأى أن تكون السياسة الاستعمارية سياسة دائمة للدولة وليست مرحلية . وقد اوضح أن السياسة الاستعمارية تحقق هدفين :

الأول خارجى :

وهو تأمين الدولة ضد أعدائها .

والثانى داخلى :

وهو صرف الشعب عن أمور الحكم وشغله عن الحاكم بالحروب الاستعمارية .

---

(١) وقد عاش فى الفترة من ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٩١ .

وبالتالى فقد وضع عدة أساليب لممارسة السياسة الاستعمارية وفقا للظروف المختلفة ، صاغها ضمن نصائحه للأمير :

- فقد نصح الحاكم بان يتوسع فى مناطق لها نفس لغة وعادات شعبه الاصلي حتى يمكن ضمها واستيعابها بسهولة ٠

- نصح الحاكم بأن يسعى الى استيعاب شعوب المستعمرات فى شعبه الأصلي حتى يضمن استمرار السيطرة على المناطق المستعمرة واستقرار حكمه بها ٠ بحيث يؤلف البلدان دولة واحدة فى وقت قصير ٠

- ينصح الحاكم بان يقوم من جهة بابادة افراد الأسرة الحاكمة فى تلك المناطق المحتلة ، وعدم احداث تبديل جوهرى فى قوانين هذه المملكات المحتلة وضرائبها فى حالة ما اذا كانت لها قوانينها الخاصة حتى لا يثير الأفراد عليه ، من جهة أخرى ٠

- كما أنه ينصح الحاكم ببناء المستوطنات التى تقيم فيها الجاليات من دولته الأصلية فى المناطق المحتلة ٠ أى أن يعتمد على الاستعمار الاستيطانى ٠ وهذه السياسة فى رأيه أفضل من الاحتفاظ بحاميات لانها لن تكلف الحاكم شيئا كما أن وجود الحاميات فى المناطق المحتلة يسىء لمشاعر مواطنيها ٠

- ان يقوم الحاكم بنقل مقر حكمه الى منطقة وسط بعد التوسع ٠ وفى حالة عدم تجانس شعوب تلك المناطق المستعمرة مع شعبه الأصلى ينصحه بان ينقل مقر حكمه الى المناطق الجديدة المستعمرة حتى يمكنه رؤية الاضطرابات والعمل على علاجها فى حالة وقوعها وحتى لا تصبح المناطق مرتعا لشهوات موظفى الحاكم المحتل وحتى لا تلجأ دول أجنبية الى مهاجمة تلك المناطق ٠

- أن يشن الحروب الاستعمارية بضراوة .

- أن يشجع المواطنين على الاستمرار فى تدعيم السياسة الاستعمارية عن طريق تخصيص جزء من أسلاب الحرب لشن حرب جديدة وتوزيع الباقى كاسلاب حتى يجنى الافراد ثمار التوسع .

- أن يعمل الحاكم على بناء جيش شعبى قوى على نمط الموجود فى الامبراطورية الرومانية ، بحيث يعتمد على المتطوعة ، على أن يبتعد عن الجيوش المرتزقة والجيوش المساعدة . فقد آمن مكيافيللى بان المرتزق ينقصه الدافع الوطنى والولاء وهو جبان فى الحرب لان حياته مصدر عيشه وبالتالى لن يضحى بها (١) . أما الجيوش المساعدة فان هزيمتها تنسب للحاكم الذى استعان بها - كقوات من دول صديقة أو مجاورة - أما نصرها فينسب لدونتها الاصلية . وهى على أى حال غير موالية للدولة التى تستعين بها وبالتالى قد تتحرك ضد الحاكم وتخرج عليه .

- على الحاكم أن ينزع سلاح أهالى الدولة الجديدة بعد ان يحتلها وضمها الى دولته ، باستثناء أولئك الموالين له الذين وقفوا فى صفه عند احتلالها . ولكن عندما تحين الفرصة فان عليه أن ينزع السلاح من هؤلاء أيضا وينقل القوة الى جنوده هو : بحيث ينقل سلاح الدولة الجديدة فى النهاية تماما الى جنوده .

---

(١) عمل مكيافيللى لفترة قائدا للحرب ضد بيزا وعلى قصر الفترة الا انها أكسبته خبرة وايمانا عميقا بعدم صلاحية المرتزقة كجنود يعتمد عليهم فى الحروب .

من كل ما تقدم يلاحظ ان مكيافيللى قد بلور نظرية عامة فى الاستعمار موضحا جدواه وأساليب ممارسته مطلقا أهميته فلم يقصرها على دولة أو حالة معينة . وآراؤه فى هذا المجال تعتبر أكثر شمولا من لينين الذى اتخذت نظريته شهرة خاصة فى القرن الحالى . وهو يختلف فى تركيزه على الاستعمار عن أرسطو الذى اعتبر الاستعمار والتوسع أحد أسباب الثورات والتحلل السياسى فى الدولة التى تمارسه . ففى الوقت الذى لم ير فيه أرسطو وافلاطون من قلبه جدوى الاستعمار وأهميته فى تخليص دول المدينة من مشاكلها ، رأى مكيافيللى بعين الخبرة السياسية النافذة خاصة فى مجال السياسة الواقعية أنه لا خلاص لدويلته فلورنسا ولايطاليا عامة الا بالسياسة التوسعية . وفى الوقت الذى نظر فيه كل من أفلاطون وأرسطو الى الخلف بهدف استعادة دولة المدينة لمكانتها وتميزها باعتبارها الوحدة السياسية الامثل فى نظرهما ، تطلع مكيافيللى للامام ليس فقط لقيام دولة اقليمية ولكن لقيام دولة قومية تكون محط الولاء الاسمى على مستوى ايطاليا ككل . ومكيافيللى لم يناد بالاستعمار بالنسبة لدولة معينة ولكن رأى ضرورته وجدواه كسياسة عامة للدولة فى علاقاتها مع غيرها .

هذا وقد سار هيجل (١) - فيلسوف الحياة الالمانية واستاذ ماركس - على نفس نهج مكيافيللى من حيث التأكيد على حتمية الاستعمار بالنسبة للدولة أيا كانت . وقد جاءت آراؤه فى الاستعمار كنتاج طبيعى لايمانه بالدولة الذى وصل الى حد التقديس . فالدولة فى رأيه تنتمى لعالم الروح مباشرة وهى تمثل وحدة التاريخ وتتضمن أيضا روح التاريخ . أما الفرد فهو أقل أهمية بالنسبة للتاريخ حيث الافراد ماهم الا مجرد أدوات لعملية التغير التاريخى للدولة . والحرية الحقيقية ليست هى حرية الفرد ولكنها حرية الدولة وتحقيق ذات الفرد داخلها وهى تعنى

---

(١) عاش فى الفترة من ١٧٧٠ الى ١٨٣١ .

تقييد الفرد بواسطة الدولة ووضعها القيود عليه . فالدولة أسمى من الفرد ويجب اطلاق سلطتها وهى تعتبر « الفكرة المقدسة كما توجد فى الارض » . وانطلاقا من رؤيته هذه للدولة ، جاءت آراؤه فى العلاقات الدولية والاستعمار . فالدولة فى رايه تمثل الوحدة الاساسية فى العالم . وهى ذات سيادة مطلقة وعليه فلا يجوز الحد من سلطاتها بل يجب اطلاق يدها فى علاقاتها مع الدول الاخرى . وقد نظر الى الحروب على أنها ليست أمرا خاطئا أو لا أخلاقيا - كما ينظر اليها المثاليون - حيث اعتبرها - ظاهرة صحية وضرورية لتقوية الدولة فى الخارج ولتوحيد الجبهة الداخلية . وقد أكد مثله مثل مكيافيللى ، على ضرورة الاستعمار والتوسع . ولكن اذا كان مكيافيللى قد انطلق فى تحليله للاستعمار من هدف أساسى هو تحقيق الوحدة القومية واستخدام الاستعمار كوسيلة أساسية فى هذا الشأن ، فان هيجل أكد على محورية السياسة الاستعمارية بالنسبة للدولة فى علاقاتها مع بعضها البعض . وكانت آراؤه مصدر الهام فيما بعد لهتلر والنازية فى السياسة التوسعية .

هذا ولم يكتف بعض المفكرين السياسيين بمحاولة تنظير مضمون الاستعمار ولكنهم ساهموا مساهمة فعلية فى مقاومته (١) .

---

(١) ومن أهم الامثلة على ذلك الامام ابن تيمية الذى حمل السيف واشترك فى مقاومة التتار - فى غزوهم للدولة الاسلامية ، كما قاوم الصليبيين . كما وجه ادموند بيرك هجوما للسياسة الاستعمارية البريطانية ، وخاصة لشركة الهند الشرقية مما اضطر الحكومة البريطانية الى تعديل سياستها . أما جمال الدين الافغانى ومحمد عبده فقد وجها هجومهما لمحاربة الاستعمار البريطانى ، ونفيا لهذا السبب وانشأ جريدة العروة الوثقى لاستمرار الكفاح ضد المستعمر . واذا كان جمال الدين الافغانى قد استمر حتى النهاية فى تلك السياسة الثورية ، فان محمد عبده وجه جهده لحركة الاصلاح الفكرى والدينى والسياسى كسبيل لمقاومة المستعمر .



الفصل الثانى

دوافع الاستعمار ومبرراته

كثيرا ما يتردد فى مجال دراسة الاستعمار ودوافعه طبيعة المجتمع الدولى والتكنولوجيا ـ أو على وجه الدقة الفارق فى التقدم التكنولوجى ـ باعتبارهما من أهم دوافع الاستعمار وأسبابه ، بل ان البعض ياخذ هذين العاملين ـ الخارجى والداخلى ـ على أنهما من مسلمات دوافع الاستعمار . على أساس أن طبيعة المجتمع الدولى الذى يتميز بالاناركية واللامركزية وافتقاره الى سلطة عليا فوق الدول تنظم سلوكها وتمنع اعتداء بعضها على بعض أو توسع بعضها على حساب الغير تعتبر محورية فى تفهم ظاهرة الاستعمار . فضلا عن أن التقدم التكنولوجى لدى بعض الدول يدفعها للتسلط على غيرها من الدول المتخلفة تكنولوجيا : حيث الحروب ينتصر فيها المتفوق تكنولوجيا ، وحيث التسلط الاستعمارى المباشر أو غير المباشر يكون للمتفوق تكنولوجيا على المتخلف تكنولوجيا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان التقدم التكنولوجى يؤدى الى زيادة الطلب على المواد الخام مما يدفع الدول الى الاستعمار كوسيلة للحصول عليها ، خاصة اذا ارتبط هذا التقدم التكنولوجى بالزيادة السكانية (١) .

ومع وجاهة هذه الآراء ومع التسليم بارتباطها بالظاهرة الاستعمارية باعتبارها أحد مظاهر ممارسة القوة السياسية فى العلاقات الدولية ، الا أننا لا نذهب مع الرأى القائل بأنها تمثل دوافع للاستعمار . حيث

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الراى انظر :

Nazli Choucri & Robert C. North, Nations in Conflict : National Growth & International Violence, San Fracisco : W. H. Freeman & Co. 1975, p. 15.

نرى أن كلا من طبيعة الوضع الدولى والتقدم التكنولوجى ليست دوافع للاستعمار ولكنها عوامل مساعدة للسياسة الاستعمارية . فطبيعة المجتمع الدولى تمثل المناخ الملائم لفرض السيطرة دون وجود قوة أعلى من الدول تنظم علاقاتها : فالقانون الدولى هو قانون بين الدول وليس فوق الدول ، والمجتمع الدولى يفتقر لقوة الزامية لفرض القانون ولتنظيم علاقات الدول . كما أن طبيعة المجتمع الدولى القائم أساسا على دول متساوية قانونا ومختلفة فى قوتها ، فهى متفاوته فى الكبر والصغر ، وفى الغنى والفقر ، وفى التقدم والتخلف : هذا التباين يشكل المناخ المناسب لممارسة الاقوى لسيطرته على الاضعف دون رقيب أو الزام للحد من التسلط ، ودون وجود بديل أمام الدول الاضعف . كما أن طبيعة المجتمع الدولى تسهم فى تدعيم التصارع على القوة بين الدول ، ذلك التصارع الذى يدفع الدول الى الالتجاء لكافة الوسائل لزيادة قوتها فى مواجهة غيرها من الدول المنافسة لها بما فى ذلك الاستعمار ، كما سيرد توضيحه عند بحث الدوافع السياسية . وعليه فيمكن القول بأن طبيعة المجتمع الدولى هى « عامل مساعد اطارى » لممارسة التوسع الاستعمارى ، ان جاز هذا التعبير .

كما أن التفوق التكنولوجى فى حد ذاته ليس سببا أو دافعا للاستعمار ، ولكنه يمثل العامل المساعد الاساسى لفرض السيطرة الاستعمارية باعتباره الاداة أو الوسيلة فى يد المتسلط . واذا كان البعض قد ذهب فى تحليله الى أن هناك ميلا مؤكدا من جانب الدول المتقدمة تكنولوجيا الى التسلط على غيرها من المتخلفة تكنولوجيا ، فان هذا لا يعنى أن التقدم هو دافع الاستعمار ولكن يعنى أنه الوسيلة التسلطية : حيث الميل للاستعمار يأتى حيثما تتوافر الوسيلة . ولكن الدافع وراء هذا الميل قد يكون اقتصاديا ، أو سياسيا أو اجتماعيا أو نفسيا . فالتقدم التكنولوجى لا يكون دافعا للاستعمار الا اذا ارتبط بأحد الدوافع المذكورة كأن يؤدى مثل ذلك التقدم الى الحاجة للحصول على المواد

الخـام اللازمـة لمواكبـة التقـدم أو ان يرتبط بالزيـادة السكانية . وعليه فيمكن النظر الى التقدم التكنولوجى فى هذا المجـال على أنه متغير تابع .

وقد اختلفت دوافع الاستعمار من اقتصـادية وسـياسية واجتمـاعية وانسانية وفقا للحالات المتعـددة التى يمارس فيهـا الاستعمار . وتجـدر الاشـارة الى انه قد تتواجـد كافة هذه الدوافـع مجتمعة فى حـالة ما . ولكن فى حالات أخرى قد تتواجد فقط أى من هذه الدوافع كسبب مباشر ، أما الدوافع الاخـرى فقـد تعتبر أسبابا تابعـة أو غـير ظاهرة أو غـير مباشرة . ففى الواقع لا يوجـد سبب واحـد للاستعمار يمكن أن يقال عنه انه هـو الذى يدفع الدولة أو الدول لاتخـاذ مثل هـذه السياسة الخارجية التوسعية . ولا يمكن اخضاع ظاهرة عالمية فى الزمان والمكان ومعقدة مثل الاستعمار لتفسير مبسـط أو سبب واحـد (١) .

فكثيرا ما تتداخل الدوافع وتتركب ، من ذلك مثلا ما ذكره البعض من أن وراء جهـود كل من أسبانيا ، وهولندا ، والبرتغال ، وفرنسـا ، وانجلترا لانشـاء امبراطوريات فى العالم الجـديد هـو ثلاثة دوافع تبدأ كل منهـا بحـرف G هى : Gold, Glory, & God الذهـب ، والمجـد ، والـرب (٢) .

كما يجـدر ، لمعرفة أسباب الاستعمار فى حـالة ما ، عـدم الاكتفاء بالشعارات التى ترددها الـدول التى تتخـذ سـياسة استعمارية ، بـل محـاولة بحث كل حالة على حـدة لتفهم حقيقة الدافـع اليهـا ، من ذلك مثلا أن الدول الغربيـة غالبـا ما تخفى الدوافـع الاقتصادية تحت سـتار دوافع انسـانية كما سـيرد بحثه ، كمـا أن الاتحـاد السوفيتى عادة ما يخفى محـاولته للتسـلط وراء نشر الايديولوجية ، واسرائيل عادة ما تخفى

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر : Greene, op. cit., p. 427.

(٢) انظـر : Snyder, op. cit., p. 1.

توسعها تحت اسم الامن . ويمكن تقسيم دوافع الاستعمار بصفة عامة الى :

١ - دوافع سياسية .

٢ - دوافع اقتصادية .

٣ - دوافع اجتماعية وانسانية وأيديولوجية .

وحيث أننا فى مجال بحث العلاقات السياسية الدولية فسنتناول بالتحليل أولا الدوافع السياسية ، خاصة وان الباحثين فى مجال العلاقات السياسية الدولية كثيرا ما يعطون للدوافع السياسية الاولوية على ما عداها حتى على الدوافع الاقتصادية التى وان كانت لها جاذبية كبيرة كشعار الا أن الاحداث التاريخية لا تؤيدها فى كثير من الاحيان .

المبحث الاول : الدوافع السياسية

تدور الدوافع السياسية أساسا حول ظاهرة القوة فى العلاقات السياسية الدولية . ويرى أصحاب هذا الرأى ان **الاستعمار ينتج طبيعيا عن ظاهرة القوة التى يتميز بها الوضع الدولى** [بمعنى أن الدولة المستعمرة تهدف فى كثير من الحالات الى زيادة قوتها بضم عناصر قوة جديدة اليها مما يؤدى الى الزيادة الكلية فى عناصر قوتها بعد اضافة عناصر قوة المستعمرات اليها] فمثلا اعتمدت انجلترا على الداخل فى سد ٣٠٪ فقط من احتياجاتها من المواد الغذائية أما الباقى فقد اعتمدت على مستعمراتها فى تزويدها به مستندة الى قوة اسطولها على وجه الخصوص . كما أن كلا من فرنسا وانجلترا استخدمت القوة البشرية لمستعمراتها فى الحروب . وفى الحرب العالمية الاولى والثانية استخدمت انجلترا وفرنسا قوات من افريقيا وآسيا فى الخطوط الامامية .. كذلك فان المستعمرات تتيح للدولة المستعمرة توافر المواد الخام اللازمة للصناعة والامن العسكرى . كما أن اليابان استفادت من مصادر الفحم والحديد الغنية فى منشوريا التى كانت تمثل المركز الصناعى للصين وكان هذا وراء احتلال اليابان لها قبيل الحرب العالمية الثانية (١) . حقيقة انها أعلنت تحويلها الى دولة منشوكو كدولة مستقلة ولكنها كانت « دولة لعبة » فى يد اليابان بما يسمح بتنفيذ مخططها التوسعى واقعيا مع مواجهة الرأى العالمى وجهود عصبة الامم .

وفى الواقع يبدو واضحا من سياسة كل من أسبانيا والبرتغال وانجلترا فى سبيل الحصول على المستعمرات ان هدف كل منها هو الوصول الى مصادر القوة التى تمكنها من احتلال مركز مرموق فى المجال الدولى وذلك بزيادة قوتها .

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر : Greene, op. cit., p. 442 ff.

واذا كانت البرتغال قد حولت نفسها الى دولة بوليسية استطاعت أن تقاوم جهود مستعمراتها فى افريقيا للاستقلال ، الامر الذى جعلها آخر القوى الاستعمارية هناك - حيث لم تستقل مستعمراتها الا فى سنوات ٧٤ ، ٧٥ ، ١٩٧٦ على التوالى بالنسبة لغينيا بيساو ثم موزمبيق ثم انجولا - فان حقيقة تمسكها للنهاية بمستعمراتها ترجع الى أنها وهى الفقيرة الصغيرة بمستعمراتها فما بال تخليها عنها ، الامر الذى اعتبر انتحارا قوميا .

ومن الدوافع السياسية للاستعمار المرتبطة بسياسة القوة ، الرغبة فى **المحافظة على توازن القوى** : فثمة دول كثيرة سعت لموازنة قوة منافسيها عن طريق بسط سيطرتها على أرض أجنبية عنها مما يضيف اليها قوة مادية ومعنوية ، فبسمارك مثلا شجع مجهودات فرنسا فى التوسع فيما وراء البحار ، خاصة فى أفريقيا فى أواخر القرن التاسع عشر حتى تعوض عن فقدها لمنطقة الالزاس واللورين الغنية بمواردها لالمانيا . ويمكن القول أيضا بأن ألمانيا لجأت الى اللحاق بغيرها من الدول الاستعمارية فى هذا المجال وان كان ذلك قد جاء متأخرا : فقد عملت على الحصول على مستعمرات خاصة فى افريقيا وجزر المحيط بغرض تعديل توازن القوى فى أوربا لصالحها ، وذلك تجاه كل من انجلترا وفرنسا . ونفس المثل ينطبق على ايطاليا - التى دخلت المجال الاستعمارى متأخرة عن بقية الدول الاوربية ، شأنها فى ذلك شأن ألمانيا - حيث توسعت فى افريقيا . وقد يأتى فى هذا الاطار توسعها قبيل الحرب العالمية الثانية فى أثيوبيا مما أفقد هذه الاخيرة استقلالها لبضعة أعوام . ومن المعروف ان سياسة التعويضات الاقليمية تعتبر أحد أساليب توازن القوى .

ومن الامثلة الواضحة فى الشرق الاوسط توسع اسرائيل بدعوى تحقيق الامن والمحافظة على توازن القوى كما تفسره من جانبها .

ويضاف الى ما سبق ذكره من أسباب التوسع الاستعمارى المرتبطة بتوازن القوى الحروب سواء الكاسبة أو الخاسرة ، أى سواء خرجت منها الدولة منتصرة أم منهزمة : فالحروب مع أنها قد تنشأ تحقيقا لتوازن القوى ، الا أنها عادة ما تطيح بتوازن القوى القائم وعلاقات القوى القائمة عليه ، وتعمل على اقامة توازن قوى جديد وعلاقات قوى جديدة . وعادة ما تسعى الدولة المنتصرة الى دفع انتصارها الى أقصاه ، وذلك بالتوسع على حساب غيرها من الدول والشعوب المنهزمة ، وبالتالى عادة ما تتبع سياسة استعمارية بعد انتهاء الحرب وتستمر فى اخضاع شعوب اجنبية عنها . مما يؤدى الى خلق وضع جديد من عدم التوازن على حساب الدول المنهزمة ، والمثل الحى أمامنا فى منطقة الشرق الاوسط بعد حرب ١٩٦٧ وتمسك اسرائيل بتوسعها فى المناطق العربية المحتلة وعدم التخلى عنها الا بشروطها وتحقيقا لمصالحها .

ومن ناحية أخرى فان الهزيمة فى الحرب أو الحرب الخاسرة عادة ما تلحق العار بالدول المنهزمة ، الامر الذى يهز من كيانها ويقضى على فخرها القومى ، ولذلك فعادة ما تسعى للتخلص من آثار الهزيمة ، بل وقد تدفعها ذكرى الهزيمة ومرارتها الى الاطاحة بالاوضاع التى فرضت عليها بعد هزيمتها ، بل وقد تسعى للتوسع اذا أمكنها ذلك على حساب غيرها خاصة ممن قام بهزيمتها كنوع من الانتقام ، وعادة فانه بقدر الهزيمة يكون قدر الرغبة فى النهضة من جديد والرغبة فى الانتقام . وهذا المثل يبدو واضحا من هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الاولى ونهضتها من جديد فيما بين الحربين ثم توسعها فى الحرب العالمية الثانية حيث اجتاحت أوربا باكملها .

وقد تعمل الدولة على ضم مناطق جديدة اليها وذلك بغرض تامين الدفاع القومى عن نفسها أو بغرض الحيلولة دون قيام غيرها بضم هذه المناطق مما قد يتبعه تهديد مصالحها القومية ، وما قد يلحقه مثل هذا الضم من أضرار بمواطنيها الذين قد لا تعود عليهم فوائد تذكر

من ضم دولتهم لاقليم ما ، ولكن تحيق بهم الاضرار اذا قامت دولة أخرى بضمه ، وهو ما يطلق عليه الضم الوقائي ، ويرتبط به الضم أو الاستعمار الاستباقي (١) : بمعنى الاسراع باستعمار أقاليم جديدة لم تكتشف بعد أهميتها أو أهمية ثرواتها ولكن قد تصبح لها قيمة مستقبلية .

فعلى سبيل المثال لجأت الولايات المتحدة الامريكية الى ضم الفليبين خوفا من أن تقوم دولة أخرى ، وبخاصة ألمانيا ، بضمها مما قد يؤدى الى تهديد مصالح الولايات المتحدة الامريكية فى منطقة الشرق الاقصى . ومعظم توسع بريطانيا فى الهند وبورما يمكن ارجاعه الى خوف بريطانيا من تهديد روسيا وفرنسا وحمايتها لتلك المناطق من قيام غيرها باحتلالها . كما أن هولندا أكملت بسرعة احتلالها لجزر الهند الشرقية فى بداية هذا القرن حيث اقترب خطر الدول الاستعمارية الاخرى . وبنفس المثل فان التصارع الاستعمارى على افريقيا ـ المعروف بالتكالب الاستعمارى The Scramble for Africa فى أواخر القرن الماضى قام على أساس هذا السبب الى حد كبير (٢) كما أن توسع الاتحاد السوفيتى فى أوروبا الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية وما حققه من مكاسب اقليمية وسيطرة استمرت بعدها يدخل فى هذا المجال . ويمكن أيضا القول بأن دخول القوات السوفيتية وقوات حلف وارسو الذى يتزعمه الاتحاد السوفيتى الى تشيكوسلوفاكيا فى أغسطس سنة ١٩٦٨ يدخل فى هذا المجال حيث جاء نتيجة لخوف الاتحاد السوفيتى من خروج تشيكوسلوفاكيا على زعامته ودخولها تحت النفوذ الغربى . وبالتالى فقد جاء احتلالها وتغيير النظام السياسى والاقتصادى بها قهرا كنوع من

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الضم الوقائى والاستباقى انظر : ماجدوف ، الامبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم ، مرجع سابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذه الظاهرة انظر Raymond F. Betts (ed). The Scramble for Africa : Causes and Dimensions of Empire, Englewood. Chicgo, Bosotn, 1966.

الوقاية ضد النفوذ الغربى الذى بدأ ينتشر فى ذلك الوقت خاصة من جانب المانيا الغربية . وكذلك فان سعى اسرائيل لضم الجولان بدعوى تحقيق الامن ، يعتبر أحد صور هذه السياسة .

يضاف الى الدوافع السياسية أن الدولة تلجأ الى الاستعمار بغرض **الوصول الى مراكز أو مواقع استراتيجية** تزيد من قوة الدولة بغرض حماية الدولة لنفسها وذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، أى حماية منها لبعض ممتلكاتها والمحافظة على مصالحها الحيوية (١) . مثال ذلك سيطرة بريطانيا على جبل طارق ومالطة وقبرص وقاعدة قناة السويس وعدن ، وكذلك رأس الرجاء الصالح وسيلان فى سبيل حماية ممتلكاتها فى الهند وطريقها لسنغافورة وهونج كونج واستراليا ، وقد اعتمدت بريطانيا فى الواقع على أسطولها الضخم لتأمين تلك النقاط الاستراتيجية وحماية تجارتها وامبراطوريتها الضخمة . وبنفس الحال يمكن اعطاء المثل على اهتمام روسيا القيصرية بمضايق البوسفور والدردنيل فى تركيا وعلى استمرار الاتحاد السوفيتى بعد قيام الثورة سنة ١٩١٧ فى الاهتمام بتلك السياسة .. ومن ذلك أيضا اهتمام الولايات المتحدة الامريكية بمنطقة البحر الكاريبى وسيطرتها على بعض المواقع فى تلك المنطقة مثل قاعدة جوانتنامو فى كوبا وفرجين ايلاند ، وذلك لحماية قناة بنما على وجه الخصوص بما لها من أهمية استراتيجية بالغة بالنسبة للولايات المتحدة - حيث تربط بين شواطئها الشرقية والغربية . كما يدخل فى هذا المجال أيضا سيطرة الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٤٧ فى ظل نظام الوصاية على جزر المحيط التى كانت تحت انتداب اليابان وهى

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الدوافع الامنية للاستعمار انظر :
John S. Galbraith, « The Security Explanation : The Turbulant Frontier as a Factor in British Expansion », in Robert J. & Robert Jervis (eds.) International Politics : Anarchy, Force, Imperialism, Boston Little, Brown & Co., 1973, pp. 395-415.

مارشـال وماريان وكارولين ـ كمناطق استراتيجية تحـت الوصـاية حيث لا تخضـع لاشراف دولى فعال ـ وذلك رغبـة منها فى حماية وتأمين هاواى التى أصبحت احدى الولايات الامريكية ، والتى أخذتهـا الولايات المتحدة الامريكية ، أساسا ، للدفاع عن الجزء الغربى من القارة الامريكية وحمايته ٠

كما يضاف أيضا الى هـذه الامثلة استعمار فرنسـا وموقفهـا من الصـومال الفرنسى وبخاصـة منطقة ميناء جيبوتى الـذى يتحكم مـع عـدن ـ المقابلة لـه ـ فى مدخـل البحـر الاحمر والذى اتضحت أهميتـه الاستراتيجية بعـد شـق قناة السـويس ، وهى الطريق الحيوى للمواصلات بين أوربا وآسـيا ٠ ولم يكن لجيبوتى فى الواقـع اهمية استراتيجية قبل هـذا الوقت ٠ وتعتبر منطقة الصـومال الفرنسى ـ التى أصبحت فرنسـا تطلق عليهـا اسم « اقليم العفار والعيسى » نسـبة للقبيلتين الرئيسـيتين فيهـا واخمـادا لفكرة انضمام الاقليم للمناطق الصومالية الاخرى فى تكوين الصومال الكبير ـ أو جيبوتى حاليا ، هى المنطقة الوحيدة التى بقيت دون غيرها فى القـارة الافريقيـة تحت الحكم الفرنسى وبعد جهود جادة طويلة استطاع الاقليم بالفعل أن يحصل على اسـتقلاله عـام ١٩٧٧ بعـد مضى نحـو ١٧ عاما من استقلال غالبية المستعمرات الفرنسية فى افريقيا ٠

وقد يكون وراء التوسـع الاستعمارى وجـود بعض المناطق الضعيفة التى لا يمكنها الدفاع عن نفسـها ، مما يشـجع الـدول الاقـوى على أن تمـد سيطرتها عليهـا باسم الاستعمار وهو ما يطلق عليه مناطق الفراغ ٠ وقد اغرى ضعف غالبية الدول الاوربيـة هتلر على احتلالها أثناء الحرب العالمية الثانية [والدول الاقوى عـادة ما تشير الى وجـود فراغ للقوة فى الدول الاضعف وان عليها هى أن تملأ هذا الفراغ]

وأخيرا فقـد تسعى الدولة للاستعمار وهى ليسـت مدفوعة بأسباب استراتيجية أو اقتصادية ولكن لرغبتهـا فى الوصـول الى تحقيق الهيبـة والمكانة والمركـز الدولى المرموق ٠ فاذ اكان مدى ما تضيفه لها مستعمراتها

من عناصر قوة مادية يتوقف على ما لهذه المستعمرات من أهمية استراتيجية وقدرات وامكانيات فان الكسب فى هـذه الحـالة يعتبر محـدودا أو نسبيا ، الا ان ما تضيفه المستعمرات من هيبة ومكانة وآثار نفسـية ومعنوية يعتبر كسبا غير محـدود أو مطلقا . ولعـل هـذا يفسر اقبال الدول على استعمار مناطق تفتقر فى وقت احتلالها الى أية اهمية تذكـر ، فالتكالب الاستعمارى والحصول على المستعمرات يمثل ركنـا أساسيا فى الهيبة والمكانة القوميـة وكثيرا ما يبرر الاستعمار الالمـانى والتوسـع بعد سنة ١٨٧١ - أى بعـد اتحـاد المانيا - على أسـاس القـوة القوميـة والهيبة (١) ويلاحظ فى هذا الشـأن أن من الاسباب السياسية للاستعمار دخول بعض الدول فى الصراع الاستعمارى مدفوعة لا بأسباب سياسية محـدودة فى الوصـول الى مركـز دولى ممتاز ، ولكن بسبب الاهـواء الشخصية التى استحوذت على أفـراد قلائل فى الدولة خاصـة الزعيم القـومى والنخبـة والطليعة الحاكمة ، تأكيدا لاهمية زعامتهم للدولة وسعيا لارجـاع ما قـد تصـل اليه الدولـة من هيبة ومكانة نتيجة للتوسـع الى زعامتهم وانجازاتهم ، بصرف النظر عما قد يكون هنـاك من قصـور فى الرؤيـة أو ارتجـال فى المشروعات التوسعية ، الامـر الذى قـد ينتهى بالفشـل ، وقد يأتى بآثار عكسية على حساب هيبة ومكانة الدولة . من ذلك مثلا سياسة كل من نابليون وهتلر وموسولينى التوسعية .

---

(١) لمزيد من المعلومات انظـر : « Organization for Imperialism The German Colonial Society, the Pan-German League & the German Naval Society, 1882-1918 », in Snyder, op. cit., pp. 63-70 esp. 65.

المبحث الثانى : الدوافــع الاقتصــادية

يرى كثير من المفكرين ان اســاس التوســع الاستعمارى يرجــع الى دوافع اقتصادية ، اما غــيرها من دوافع سياسية أو اجتماعية أو انسانية فيعتبرونها مجــرد تبرير للدوافــع الاقتصــادية الاصلية • وتتمثل أهــم الدوافــع الاقتصادية فى نقاط رئيسية : تــدور حــول الرغبة فى :

- الحصــول على موارد أولية لا تتوافــر بنفس النسبه أو لا تتوافــر كلية فى الدولة المستعمرة وبشروط لا يمكن للدولــة المســتعمرة الحصــول عليهــا من دولة مثيلة لهــا •

- الحصــول على أيد عاملة أو عنصر العمل بتكلفة اقل •

- توفــير أســواق خارجيــة للبضــائع المصنعة والمنتجــات الخاصــة بالدول المستعمرة بمعنى ايجــاد منافذ خارجية للمنتجات المحلية •

- تحقيق أكبر عائــد ممكن من اســتثمارات رؤوس الامــــوال : أى ايجــاد متنفس لاستثمار رؤوس الاموال •

- تطور ميزان المدفوعات لصالح الدولة المستعمرة •

وقد أكد الكثيرون على هــذه الدوافع الاقتصــادية على مر السنين ، وان كان التركيز قد زاد خاصــة فى القــرن الحــالى ، واكثر تلك الآراء شهرة وأهمية ، على الاقل على المستوى الايديولوجى ، هى تلك النظريات التى تركز على ربط الاستعمار ودوافعه الاقتصادية بالنظــام الرأســمالى على وجــه الخصوص موضحة أن تطــور النظــام الرأسمالى يؤدى بالدول التى تأخــذ بهــذا النظــام الى تحقيق الاهــداف الســابقة ، وينتهى الامر

بها الى الاستعمار والحروب الاستعمارية (١) وكان هوبسون - الاقتصادى الانجليزى - رائدا فى هذا المجال بآرائه التى نشرها سنة ١٩٠٢ وقد تبنى آراءه فيما بعد لينين وغيره من المفكرين الاشتراكيين الذين سبقوه مثل كارل كاوتسكى وروزا لكسمبرج وهيلفردينج وبوخارين (٢) فى محاولة لوصم الدول الرأسمالية بالاستعمار واعتباره ظاهرة رأسمالية ٠

والجدير بالذكر انه على الرغم من أن كلا من الماركسيين والاشتراكيين والاقتصاديين الليبراليين الغربيين على حد سواء يركزون على الدوافع الاقتصادية للاستعمار غير أن الماركسيين (٣) والاشتراكيين (٤) يرون أن الدولة الرأسمالية تصبح استعمارية للمزايا التى تعود عليها من ذلك بينما يرى الاقتصاديون الليبراليون (٥) أن الدولة سواء أكانت رأسمالية أو غيرها تصبح استعمارية وذلك للمثالب أو المضار التى تجنيها أو تعانى منها اذا لم تتوسع بينما يتوسع الآخرون ٠ وبينما الماركسيون والاشتراكيون يؤكدون على أن الاستعمار سببه طبيعة الدولة (ويعنون على وجه الدقة طبيعة النظام الرأسمالى للدولة) ، فان الاقتصاديين الليبراليين يؤكدون أن

---

(١) عن الدوافع الاقتصادية وارتباطها بالنظام الرأسمالى والتصارع بين الدول الاستعمارية انظر :

Endre Sik, « The Scramble as a Necessary Phase in European Capitalistic Exploitation », in Betts, op. cit., pp. 65-7.

انظر أيضا :

James E. Dougherty & Robert L. Pfalzraff, Jr., Contending Theories of International Relations, New York; J. B. Lippincott Co., 1971. pp. 172-195.

(٢) لمزيد من المعلومات عن آراء كل من هؤلاء انظر :

V. G. Kiernan, Marxism & Imperialism, London : Edward Arnold, 1974, pp. 6-68.

(٣) انظر آراء لينين ٠

(٤) انظر آراء هوبسون ٠

(٥) انظر كمثال : Lionel Robbins, « Defensive Economic Imperialism », in Art & Jervis, op. cit., pp. 311-321.

سبب الاستعمار يرجع فى جذوره الى طبيعة النظام الدولى . فالدولة قد لا تستفيد كثيرا بطريقة مباشرة اذا اتبعت سياسية التوسع الاستعمارى ، الا أنها فى رأى هؤلاء الاقتصاديين تخسر كثيرا من سياسات الحد والتقييد التى تتخذها الدول الأخرى مثل الوقوف فى وجه التجارة الحرة ، والحماية الجمركية وغيرها مما يقف فى وجه مصالح الدولة الأمر الذى قد يدفعها للتوسع ضمانا لمصالحها ، كما سبق ذكره عند بحث الاستعمار الوقائى .

نظرية هوبسون فى الاستعمار (١) :

يرى أن الامبريالية وليدة النظام الرأسمالى وما ينتج عن تبلوره وتطوره من فائض فى الناتج الصناعى دون أن يقابله استهلاك مماثل - أى فى الوقت الذى يزيد فيه الفائض الصناعى نتيجة زيادة الغنى فى جانب الرأسماليين فان الاستهلاك يقل نتيجة ضعف القوى الشرائية عند الغالبية من فئات المجتمع ، بما لا يمكنها من استهلاك ثمار التصنيع ، فالمجتمعات الرأسمالية تواجه بورطة تتمثل فى زيادة الانتاج ونقص الاستهلاك فى نفس الوقت . وبالتالى فان هذا الخلل فى النظام الرأسمالى يؤدى الى البحث عن أسواق فى الخارج (فيما وراء البحار) لتصريف المنتج والبحث عن فرص لاستثمار رؤوس الأموال . ولكن من الملاحظ أن هوبسون ليس من رأيه أن الاستعمار حتمي ولا يمكن الحيلولة دون تطوره بتطور النظام الرأسمالى - على عكس ما رآه لينين فى نظريته عن الاستعمار - اذ يذهب

---

(١) عن نظرية هوبسون انظر :

John, A. Hobson, Imperialism : A Study, London : Ceorge Allen and Unwin, 1902.

انظر يضا الطبعة اللاحقة سنة ١٩٣٨ .

ولتخليص أهم أفكار هوبسون التى وردت فى كتابه هذا انظر :

« J. A. Hobson's Classic Assault on Imperialism, 1902 » Snyder op. cit., pp. 148-155.

هوبسون بنظرة المصلح الاجتماعى الى أنه من الممكن عدم تبلور النظام الرأسمالى الى نظام استعمارى وذلك عن طريق خلق قوة شرائية فى الداخل تستوعب الفائض من المنتج الصناعى ، وبالتالى لا تكون هناك حاجة للبحث عن أسواق فى الخارج بالمستعمرات . وكان من أهم اقتراحاته تحسين حال العمال والطبقات الفقيرة ، حتى يمكن رفع قوتها الشرائية فى استيعاب الفائض ، وبهذا يمكن ايجاد أسواق فى الداخل للمنتج الصناعى ولاستثمار رؤوس الأموال ، ومن ثم تلافى السعى وراء المستعمرات والحروب الاستعمارية بين الدول المستعمرة من أجلها ، أى أن الدول الراسمالية ترى فى الحل الاستعمارى مخرجا من الورطة التى تجد نفسها فيها بتبلور النظام الرأسمالى ، والمستفيد من هذا هو الطبقة الرأسمالية التى تسير مقدرات الدول الاستعمارية وفقا لمصالحها . ومن الجدير بالملاحظة أن هوبسون كان على وعى بوجود قوى وعوامل غير اقتصادية - سواء أكانت سياسية أو عسكرية أو نفسية أو دينية - كانت من دوافع التوسع الأوروبى فيما وراء البحار فى القرن التاسع عشر . ولكنه أكد على أن أهم عامل فى الاستعمار هو النواحى المالية أو المصالح المالية فى النظام الراسمالى وهذا العامل هو الذى ينظم كافة العوامل والقوى الأخرى فى كل متماسك معطيا دفعة للاستعمار (١) . فالامبريالية فى رأيه عادت بالفائدة على بعض الجماعات القليلة الخاصة ذات المصالح ، ويذكر على وجه الخصوص البنوك الكبيرة ودور السمسرة فى لندن ، ولكنها كما يؤكد لم تكن ضرورية بل انها كانت ضارة بالنسبة لغير تلك الجماعات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

نظرية لينين فى الاستعمار (١) :

يعتبر لينين بآرائه التى جـاء بها سنة ١٩١٦ أهم من تناول موضوع الاستعمار فى العصر الحـديث · وقـد بنيت نظريته أساسا عـلى نظريـة هوبسون (٢) مع دفع التحليل الى حد القول بحتمية الظاهرة الاستعمارية فى اطار تبلور النظام الرأسـمالى · وعليه فهـو لا يكتفى بمـا رآه كـارل كاوتسكى من أن الاستعمار هـو « السياسة المفضلة » للدولة الرأسمالية أو على حـد تعبيره « هو سياسة الرأسمال المالى المفضلة » (٣) حيث اعتبر لينين أن المسألة ليست مجرد تفضيل بل ان هناك حتمية ·

ولقد أوضح لينين رأيه القائم على تحليل ماركس للنظام الرأسمالى وقوانين حركته كما اكتشفها ، بأن الامبريالية تمثل مرحلة خاصة معينـة من تبلور النظام الرأسمالى ، حيث أوضح أن القانون العام والأسـاسى للرأسمالية هو التركيز المستمر لملكية وسائل الانتاج وملكية رؤوس الأموال فى أقل عدد من الأيدى · أى ان الاقتصاد الرأسمالى يقع تدريجيا تحت سيطرة الاحتكارات والترسـتات ، وتتدعم هـذه السـيطرة الاحتكـارية بالسيطرة الدولية للكارتلات الدولية وهنا تتحول الرأسمالية الى الطـابع الامبريالى : « فالاستعمار هـو الرأسمالية فى مرحلـة الاحتكار » (٤) ـ

---

(١) V. I. Lenin, Imperialism; The Highest Stage of Capitalism. New York : International Publishers Co., 1949.

(٢) وقد ذكر لينين بنفسه فى مقدمة كتابه ··· « ولكنى قد استفدت ، على كل حال ، من المؤلف الانكليزى الرئيسى الموضوع فى الاستعمار ـ كتاب ج · أ · هوبسـون ـ بكـل الانتبـاه الـذى يستحقه هـذا المؤلف حسـب اعتقـادى » · انظر : لينين ، الاسـتعمار أعـلى مـراحل الرأسـمالية ، المختارات ، المجـلد ١ ، الجـزء ٢ ، موسكو : دار التقـدم ، د · ت ، ص ٣٠٥ · وتجدر الاشارة الى أن لينين جاء بأفكاره هذه سنة ١٩١٦ ، ولكن هذا المؤلف لم ينشر منفردا الا عام ١٩١٧ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ ·

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ · وقد استخدم فى الترجمة العربيـة الرسمية تعبير استعمار أما فى الاصل الروسى والانجليزى فقد استخدم تعبير امبريالية لنفس المعنى ·

وهذا هـو التعريف الموجز الـذى أعطاه للاسـتعمار - أو وفقا لرأيه فـان الامبريالية هى أعلى مراحل الرأسمالية وهى مرحلة الاحتكار (تلك المرحلة التى بدأت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر) . وبالتالى فـــان الحروب الاستعمارية والتسلط الخارجى حتمى بتبلور النظام الرسـمالى بفعل تناقضاته الداخلية . وقد ذهب لينين الى النظر الى تاريخ الجيل السابق باعتباره صراعـا بين الدول الرأسـمالية المتقدمـة للسيطرة عـلى المستعمرات والأسواق . وان الدول الرأسمالية قد كونت محالفات لاستغلال المناطق المتخلفة . وقد استطاعت الدول الاستعمارية أن تسـيطر بالفعل على أقاليم ومناطق نفوذ خاصة فى الشرق الأقصى وافريقيا (١) .

وعلى هذا فان لينين كان على وعى بأن التعريفات الموجزة - بمـا فيها تعريفه الموجز للاستعمار والمشار اليه سابقا - تعتبر قاصرة حيث هى ذات طابع شرطى نسبى ولا تستطيع أن تكون شاملة لكافة أوجـه العلاقات الخاصة بظاهرة فى حالة تطورها الكامل . ومن ثم فقد أعطى تعريفا أشمل بقوله : « فالاستعمار هو الرأسمالية عندما تبلغ من التطور درجة تكونت فيها سيطرة الاحتكارات والرأسمال المـالى واكتسـب فيها تصدير الرأسمال أهمية كبرى وابتدأ تقسيم العالم بين التروستات العالمية وانتهى تقسيم جميع أقطار الأرض بين كبريات البلدان الرأسمالية » (٢) .

وبالتالى فان تعريفه الشامل للاستعمار يتضمن خمسة دلائل أساسية فى رأيه هى (٣) :

« ١ - تمركز الانتاج والرأسمال تمركزا بلغ من علو تطوره درجـة نشأت معها الاحتكارات التى تلعب الدور الفاصل فى الحياة الاقتصادية .

---

(١) انظر : Dougherty & Pfalzraff, op. cit., p. 180.

(٢) لينين ، الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ، مرجع سابق ، ص ٤٠٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

٢ ـ اندماج الرأسمال البنكى بالصناعى ونشوء الطغمة المالية على أساس الرأسمال المـالى .

٣ ـ تصدير الرأسمال ، خلافا لتصدير البضائع يكتسب أهمية فى منتهى الخطورة .

٤ ـ تتشكل اتحادات رأسماليين احتكارية عالمية تقتسم العـالم .

٥ ـ انتهى تقسيم أقطار الأرض من قبل كبريات الدول الرأسمالية » .

وعليه يتمثل « الرأسمال المـالى » ومضمون هـذا المفهوم فى نفس الوقت فى (١) :

(أ) تمركز الانتاج .

(ب) الاحتكارات الناتجة عن هذا التمركز .

(جـ) اندماج أو اقتران البنوك والصناعة .

ولكن فى مجال تحليل الدوافع الاقتصـادية وان كان مـن المسلم بـه أن الدول الاستعمارية عامة حققت وتحقق مكاسـب اقتصادية الا أنه مـن غير الموضوعى اعتبار ان الاستعمار يرتبط بالنظام الرأسمالى دون غـيره من الأنظمة ، ففى الواقع لا يوجد فارق بين رغبـة بريطانيا فى تحـويل مصر الى مزرعة للقطن لمصانعها فى يوركشير ورغبة الامبراطورية الرومانية فى تحويل مصر أيضا الى مستودع للقمح ، وكذلك جهود الاتحاد السوفيتى فى تحقيق المكاسب الاقتصادية من سيطرته على أوروبا الشرقية ، وتسخير اقتصادياتها لخدمته ، ونفس الحال احتلال اليابان لمنشوريا ـ أهم اقليم صناعى للصـين كمـا سـبق توضيحه . فالاسـتعمار يرتبط عـادة بهيكل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

النظام الدولى وليس بنظام اقتصادى أو سياسى معين فى داخل هذا النظام الدولى .

ومن أهم الانتقادات التى توجه لمحاولات ربط الاستعمار بالنظام الرأسمالى ما يلى :

- انها لم توضح الأسباب التى أدت الى قيام الامبراطوريات القديمة والتوسعات التى سبقت تطور النظام الرأسمالى . من ذلك مثلا التوسعات فى العصور القديمة وعلى رأسها توسعات مصر الفرعونية والاشوريين والفرس والهكسوس وقيام الامبراطورية الرومانية ، والتوسعات والفتوحات الاسلامية وغزوات التتار والصليبيين ، وكذلك التوسعات الأسبانية والبرتغالية فى القرن الخامس عشر ، والتوسع البريطانى الاستعمارى فى القرنين ١٧ ، ١٨ الذى تم بدون أن تكون الاعتبارات الاقتصادية هى الأساس الوحيد ، بمعنى أن الرأسمالية لم تكن قد تبلورت تماما فى بريطانيا فى ذلك الوقت ، ولا فى فرنسا التى توسعت استعماريا فى نفس الفترة . وكذلك البرتغال التى اعتبرت قوة استعمارية كبيرة فى القرن ١٩ على الرغم من عدم توافر أهم أساسيات الحضارة الرأسمالية بها . كما لم توضح أسباب التوسع من جانب دول لا تأخذ بالنظام الرأسمالى مثل الاتحاد السوفيتى وتوسعه فى أوربا الشرقية .

- القول بانها حتمية بتطور النظام الرأسمالى لا يفسر كيف أن نظما رأسمالية مثل سويسرا والسويد لم تطور نظما استعمارية .

- ان حركة رؤوس الأموال لا تساير بالضرورة حركة الاستعمار ، ففى أوائل القرن ١٦ لم يكن هناك تكالب على الاستعمار ورغم هذا صدرت أموال كثيرة للخارج للاستثمار ، بينما فى أواخر القرن ١٩ وحتى عام ١٩٠٥ كان هناك تسابق على الاستعمار ومع ذلك كان هناك هبوط فى تصدير رؤوس الأموال .

فكل من روسيا القيصرية والولايات المتحدة الأمريكية كانت مدينة ، لا دائنة ، وذلك عند توسع كل منهما على مستوى القارة وبناء امبراطورية ضخمة قارية (١) .

- يرى بعض المفكرين الاقتصاديين مستندين لتقارير الأمم المتحدة وغيرها أن التبادل التجارى وحركات رؤوس الأموال تكون أكبر حجما بين الدول المتقدمة اقتصاديا وبعضها بعضا عنها بين الدول المتقدمة والمتخلفة ، ويذكر مثلا أن ٢٦ر٦ من واردات بريطانيا عام ١٩٣٧ كانت من مستعمراتها والباقى من خارج هذه المستعمرات ، ويضيفون على ذلك أن الاستثمارات البريطانية فى الخارج وزعت بين مستعمراتها وغيرها بنسبة ٣ : ٣٧ .

فمن الملاحظ ان التجارة عادة لا تنتج عن الاستعمار - أو لم تتبع العلم الاستعمارى . فالدول الاستعمارية تتاجر مع بعضها بعضا بدرجة لا تقاربها تجارتها مع مستعمراتها . فالتجارة الاستعمارية - بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها مثلت نسبة ضئيلة من تجارتها عامة (٢) . والواقع أن المستعمرات فى العادة لم يكن لديها القدرة الاستيرادية الكبيرة . فعلى الرغم من ارتفاع متوسط الميل للاستيراد بها الا أنه ليس لديها الامكانية الكافية لسداد مقابل واردات على مستوى واسع .

فبريطانيا مثلا التى مثلت أهم دولة دائنة ، وجدت أفضل وأهم أسواق استثمار لأموالها فى الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية عامة لا فى مستعمراتها .

---

(١) انظر : Greene, op. cit., p. 447.

ولمزيد من المعلومات عن الانتقادات الموجهة لنظرية لينين وللدوافع الاقتصادية وحدها انظر :

J. Freymond, Linine et L'imperialisme, Lausanne : Librairie Payot, 1951.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٦ .

وكذلك فرنسا التى كانت أيضا دولة توسعية ودائنة لم تضع استثماراتها فى مستعمراتها ولكن فى روسيا القيصرية بعد ان اصبحت الدولتان حليفتين فى التسعينيات من القرن ١٩ ، وذلك بهدف الربح ، بالاضافة الى بناء القدرات العسكرية لروسيا فضلا عن استثماراتها فى رومانيا ، أسبانيا ، البرتغال ، مصر والامبراطورية العثمانية . وعليه فانه فى الوقت الذى بلغت استثمارات فرنسا الخارجية من ٣٠ الى ٣٥ بليون فرنك وجه منها ٢١/٢ بليون فقط لمستعمراتها (١) .

وغنى عن الذكر أن الأموال تبحث لنفسها عن الاستثمار حيثما تكون الحكومات مستقرة وحيثما تحصل على أسعار فائدة مرتفعة .

- انه من الناحية التاريخية فان الاستثمار الرأسمالى لم يوجه نحو البلدان التى تملك فائض عمالة ، بل نحو تلك التى تملك نقصا فيها ، مما أدى الى استيراد العمل المتعاقد أو عمل العبيد لتأمين امداد كاف من العمل (٢) .

- ان معظم الحروب فى عصر نضج الرأسمالية لم تتم على أساس دوافع اقتصادية . أى لم تهدف أساسا لتحقيق مكاسب رأسمالية (٣) .

- وأخيرا فان النظريات الاقتصادية للاستعمار خاصة اللينينية والتى جاء بها الماركسيون الجدد فى الغرب تنتقد عادة على أساس أنها محملة بأعباء أيديولوجية ، من ذلك ما يقال من أن « شدة كراهية الماركسيين

(١) William L. Langer « A Critique of Imperialim », Foreign Affairs, XIV, Oct, 1935 pp. 103-4.

(٢) تيرنر ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٣) انظر : Dougherty & Pfalzraff, op. cit., p. 184.

ويتضمن المرجع العديد من الاراء الخاصة بنقد النظريات الاقتصادية للاستعمار خاصة تلك الماركسية ، ص ١٨٣ - ١٨٨ . انظر ايضا هانس مورجنثو ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ٤٥ - ٤٨ .

الايديولوجية للرأسمالية جعلهم يخلطون تعبيرا تاريخيا خاصا بارتجال أو نزوة استعمارية ، بظاهرة اجتماعية أكثر شمولا ، اتخذت أشكالا مختلفة عبر التاريخ » . وهى كما يوضح هانس مورجنثو تعمل على « محاولة اقامة قانون عالمى للتاريخ على التجربة المحدودة لبعض الحالات المنعزلة » . فضلا عن الانتقاد الخاص بمدى القوة التفسيرية لنظرية تخضع السياسة الدولية للاقتصاديات الدولية .

- وفى نقد شومبيتر (١) للنظرية اللينينية - حيث كان من أهم ناقديها - يؤكد على أن الاستعمار لا يمكن تقليصه الى السعى للمصالح الاقتصادية الملموسة حيث أن التاريخ ملىء بأمثلة لمجتمعات « تسعى للتوسع من أجل التوسع ، وللحرب من أجل المحاربة ، وللنصر من أجل الفوز ، وللسيطرة من أجل الحكم » (٢) .

بل ان شومبيتر قام بتحليله مؤكدا على الاختلافات بين الامبريالية والرأسمالية : فهو يعتبر الاستعمار كنوع من « التأسل » أو « الرجعى » Atavism ، أى كأحد عوامل الهيكل الاجتماعى التى لا يمكن تفسيرها بالأوضاع القائمة ولكن تفسر فقط بأوضاع الماضى . فالاستعمار لا يرتبط بالرأسمالية وبالتالى لا يرتبط بتطورها . فالاتجاه نحو التوسع ليس له هدف خاص كما أنه ليس له حدود خالصة .

وفى تحليل شومبيتر ، الذى سعى لتقديم نظرية اجتماعية للرأسمالية والذى يؤكد على أنها مسالمة ، يوضح ان العالم الرأسمالى لا يقدم

---

(١) جوزيف شومبيتر عالم اقتصادى نمساوى هاجر فيما بعد للولايات المتحدة الأمريكية وكتب أهم آرائه عام ١٩١٨ .

(٢) Joseph A. Schumpeter, Imperialism & Social Classes, Oxford : Basil Blackwell, Ltd., 1951, p. 5.

ولمزيد من المعلومات انظر خاصة ص ٦٤ - ٧٤ ، ٨٨ - ٩٨ .

انظر أيضا :

Joseph A. Schumperter, «Imperialism as a Sociological Atavism, 1919», in Snyder, op. cit., pp. 91-3.

مجالا خصبا للنزوات الاستعمارية ، فشعوبه غير محاربة أو مؤيدة للحرب بل ان هناك معارضة للحرب والتوسع والتسلح وان جهود « السلمية العالمية » مستقرها العالم الرأسمالى . وعليه فحيثما تدخلت الرأسمالية ، فان مؤيدى جهود السلام بما لهم من قوة ينهضون ، مما يجعل كل حرب تتحول الى صراع سياسى على المستوى الداخلى ، فضلا عن أن الحروب يجب أن تبرر من جانب الحكومات كحروب دفاعية . بينما الاستعمار قديما لم يكن يستتر ولا يبرر نفسه ، فان الاستعمار اليوم يتخفى ويستتر خوفا من الرأى العام . وكل توسع يجب أن يربط بحذر بهدف محدد . من ناحية أخرى فان نوع العامل الصناعى الناتج عن الرأسمالية هو دائما معاد عداء شديدا للاستعمار . فضلا عن هذا فان العصر الراسمالى شهد تطور أساليب منع الحروب والتسوية السلمية للمنازعات بين الدول . وهناك باختصار تقييد للفرص التى يحتاجها الاستعمار ليصبح قوة ضاربة .

وباختصار ، يمكن القول بانه يجب الا يدور فى الحسبان أن نقد النظريات الاقتصادية للاستعمار ينتقص من أهميتها كأداة تحليلية جذبت الكثير من الدارسين والمثقفين خاصة نتيجة لعدائها الايديولوجى للرأسمالية ، كما لا يعنى ان العوامل الاقتصادية فى الاستعمار ليس لها اعتبار هام . فالدوافع الاقتصادية كانت بلا شك تمثل عاملا قويا فى كثير من حالات الاستعمار قديما (مثل الامبراطوريات القديمة (١) وسعيها للحصول على العبيد والذهب والفضة وغيرها) . وابتداء من القرن الخامس عشر كان لأفكار مدرسة التجاريين « الميركانتيلية Mercantilism » صداها الكبير عبر القرون والتى تدور اهم افكارها فى أن الدولة يجب أن تكون قوية ، وقوتها بما ياتيها من المستعمرات من ذهب وسلع أخرى وبالتالى فان الدولة يجب ان تاخذ الاستعمار بجدية وان تدفع المستعمرات بفاعلية

(١) لمزيد من المعلومات انظر : حسين عبد الحميد أحمد ، الاستعمار فى القرن العشرين ، الاسكندرية : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

للدول المستعمرة . كما كانت الدوافع الاقتصادية وراء العديد من حالات الاستعمار ، حديثا خاصة الاستعمار البريطانى فى القرن ١٩ .

بيد أنه للحكم على الوضع حكما صادقا يجب أن ينظر للدوافع الاقتصادية وعلاقاتها بالدوافع الأخرى السياسية والنفسية وغيرها مما دعا بعض الدول لأن تخضع دولا أو شعوبا أخرى لسلطانها . ومما لا شك فيه أن الاستعمار يحقق منافع وفوائد اقتصادية للدول المستعمرة فى معظم الحالات . وهو ان لم يبد دافعا أصيلا فى كافة الحالات ، الا أنه يعتبر دافعا مباشرا أو غير مباشر فى كل الحالات . والاستعمار لم يحقق فقط مكاسب للدولة الاستعمارية ولكنه استغل المناطق المستعمرة واستنزف ثرواتها دون تعويض يذكر ـ على الرغم من ثرواتها الكامنة ، أى رغم أنها كانت مصدر ثروة للمستعمر ـ فانه تركها على درجة كبيرة من التخلف (١) .

ومن الجدير بالملاحظة أن الدول المستعمرة تسعى لفتح أسواق مستعمراتها ـ حتى وان كانت لا تمثل الا نسبة ضئيلة من تجارتها ـ لمنتجاتها هى فقط أى تحتكر تلك الأسواق لنفسها وتفرض الحظر على منتجات الدول الأخرى ، وهذه قاعدة عامة وليست استثناء ولا تنسب لدولة استعمارية بعينها . وبالتالى تتحكم الدولة المستعمرة فى السوق المحلية ولا تعطى الفرصة للتمتع بأسعار الأسواق الحرة ، وعليه فانه من الملاحظ أن الاستقلال عادة ما يتبعه ـ خاصة من جانب الدول الأكثر ثورية ـ محاولة للتخلص من احتكار الدولة الأم لها ، وذلك بمحاولة تنويع تعاملها مع الدول المختلفة كلما أمكن .

وأخيرا فانه بالاضافة الى الجدل السابق توضيحه حول الدوافع

---

(١) انظر على سبيل المثال : والتررودنى ، اوروبا والتخلف فى أفريقيا ، عالم المعرفة ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب ، ديسمبر ١٩٨٩ .

الاقتصادية هناك من ينــادى بمــا يعرف « بالنظرية الشـيطانية » (١) « The Devil Theory » للاستعمار وأساسها أن وراء الدعــــوة للاستعمار وتزكية الحـروب الاســـتعمارية قلــة مســتفيدة ممن يطلق عليهم « تجـــار الحروب » « War mongers » ممن يحققون مكاسـب شخصية من وراء ـ ممارسة دولهم للاستعمار وتزكيته وقيام الحروب فيثرون عـلى حسابها ويعملون كجماعات ضغط عـلى حكـوماتهم لاتبـاع السياسـة الاستعمارية وهم على وجه الخصوص تجار الاسلحة والمصرفيون وأصحاب مصانع الملابس العسـكرية والمعـدات وغيرهم فهـؤلاء يمثلون طفيليات الاستعمار ، أو « الشياطين » التى تزكى الحروب والاستعمار حتى تحقق لنفسها الثراء ٠ ووفقا لهذه النظرية فان الاستعمار ما هو الا مؤامرة من جانب هؤلاء الراسماليين تحقيقا لمكاسبهم الخاصة ٠

وقد أوضح باركر توماس موون (٢) ـ وهو من اهم الذين اسهموا فى تحليل الاستعمار كظاهرة ـ كيف أن هناك بعض المصالح الاقتصـادية المستفيدة مـن الاسـتعمار تتمثل فى نمــاذج مـن رجـال الأعمــال لهم مصلحة مبـاشرة فى الاسـتعمار ، وانـه مـن الممكن التعـرف عليهم وتمييزهم : فهناك أولا : منتجو ومصـدرو بعض البضـائع المسـتخدمة فى المستعمرات من أهمها صناعات الصلب والمنسوجات وكـذلك المشروبات الكحولية الزهيدة والسجائر (وهى تمثل المكانة الخاصة فى واردات الصين)

---

(١) انظر : Morgenthau, 1985, op. cit., p. 62.

وقد اكتسبت هذه النظرية أهمية وشهرة كبيرة من بعد « لجنة ناى » التى قامت بتحرياتها فى الفترة من ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ من قبل مجلس الشيوخ الامريكى عن تاثير المصالح الاقتصـادية (المالية والصـناعية على وجـه الخصوص) على تدخل الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الاولى ٠ وكانت هذه النظرية تمثل فلسفتها الرسمية ٠

(٢) انظر : Moon, op. cit., pp. 58-67.

Parker Thomas Moon, « On the Dynamics of Imperialism, 1962 », in Snyder, op. cit., pp. 27-37.

وفى بعض الحالات يعتبر الفحم مهما ، وفى أخرى يعتبر البترول مهما ولعب دورا . فهؤلاء المصدرون لهم مصلحة فى فتح أسواق وفى احتكارها ، وبالتالى ابعاد اى منافس لهم فيها من جانب دول أخرى مما يدفع الى محاولة تحقيق السيطرة الاستعمارية : أى الاستعمار . وبنفس المثل نجد مصالح المستوردين للخامات من المستعمرات . فمثلا مستوردو الشاى من الهند من التجار الانجليز ومستوردو المطاط وزيت النخيل من الكونغو من التجار البلجيك ، والفرنسيين المستوردين للنبيذ من الجزائر لعبوا دورا هاما فى الاستعمار واستمراره . فتطور تلك المصالح وزيادتها يتحتم معه وجود سلطة لحمايتها وتلك المصالح زادت بشدة بالتوسع فى الانتاج الصناعى العملاق فى أواخر القرن الماضى وخلال هذا القرن . كما ان من المصالح أيضا ما يتبلور من ملاك السفن ، فليس من قبيل الصدفة أن الدول ذات السفن الضخمة هى أيضا امبراطوريات ضخمة حيث يتطلبون محطات للتموين وقواعد بحرية لحمايتها كما يرغبون فى تنمية التجارة الاستعمارية . يضاف الى هذا صناع ومنتجو الأسلحة والمعدات والزى الحربى مما تستخدمه الدولة المستعمرة فى مستعمراتها ، وذلك فضلا عن رجال البنوك الذين يلعبون دورا غير مباشر فى كافة المصالح الأخرى بالاضافة الى مصلحتهم المباشرة فى الاستثمار .

المبحث الثالث : الدوافع الاجتماعية والانسانية والنفسية

أول ما يتبادر الى الذهن بالنسبة لهذه المجموعة من الدوافع هو انها تدخل فى معظم الحالات فى مجال التبريرات ، اذ تحاول الدولة تبرير مسلكها الاستعمارى بتلك الدوافع وتخفى وراءها دوافع اقتصادية أو سياسية حقيقية . ولكنها فى معظم الأحيان ليست الا ستارا للأسباب الأصلية الأخرى .

الأبوية « وعبء الرجل الأبيض » :

من أوسع النظريات انتشارا ، استنادا للدوافع الانسانية هو ما أطلق عليه « عبء الرجل الابيض » « White man's burden » . تلك النظرية التى استندت اليها الدول الغربية عامة فى تبرير مسلكها الاستعمارى . على أساس المناداة بان الدول ذات التقدم فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - وهى الدول الأوربية - أصبحت فى موقف أقوى يلقى عليها مسئولية الأخذ بيد الشعوب الأخرى . أى أن الرجل الأبيض (الأوربى) عليه مهمة تاريخية وواجب انسانى بان ياخذ بيد غيره من الشعوب بما يتمشى مع مفهوم « الأبوية » « Paternalism » على أساس أنه كما أن على الأب ان يرعى أبناءه القصر ويوجههم لما فيه صالحهم فان الشعوب الأوربية والدول الأوربية عليها أن تاخذ بيد غيرها من الشعوب . ومما ورد فى طيات هذه النظرية أن الرجل الأبيض أو الجنس الذى ينتمى اليه ، يعتبر أكثر تقدما عن غيره من الأجناس . وفى الواقع تؤكد الدراسات العلمية أن الرجل الأبيض ليس أكثر كفاءة أو مقدرة بالطبيعة عن أى جنس آخر وأن الفرد اذا وضع فى نفس الظروف المحيطة بصرف النظر عن الجنس الذى ينتمى اليه لن يكون بالضرورة اقل كفاءة عن غيره . هذا بالاضافة الى أن الأحداث التاريخية أثبتت أن الاستعمار الأوربى لم يأخذ بيد الشعوب المستعمرة ، بل كان فى الواقع عائقا وعقبة فى كثير من الحالات يحول دون تقدمها

وان ما وصلت اليه الشعوب المستعمرة من محاولات التقدم والاستقلال فى أثناء الحكم الاستعمارى قد جاء لمجرد وجود المستعمر وليس نتيجة لجهوده .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الدول مثل فرنسا خاصة أخذت فكرة « الأبوية » التى تتضمنها هذه النظرية بجدية أكثر نسبيا من انجلترا مثلا ، وذلك أيضا تحقيقا لمصالحها . وقد بلورت هذه الأبوية فى شكل سياسة الاستيعاب التى اتخذتها وسياسة المشاركة مبتدئة بالفرنسة الجماعية ثم فرنسة النخبة على أساس أنه لا يوجد فارق عنصرى أو لونى ولكن هناك فارقا حضاريا وثقافيا بحيث ان من يستطيع استيعاب الثقافة الفرنسية يصبح مواطنا فرنسيا أيا كان موطنه ولونه وجنسه أما غير ذلك فينتمى للرعايا المخضعين .

ويعلق البعض على تلك النظرية التى اتخذتها الدول الأوربية فى استعمارها فى العصر الحديث تاكيدا لمسئولياتها الاستعمارية بأن عبء الرجل الأبيض قد حمل فى الواقع على ظهور السود (١) .

نظرية البقاء للأقوى :

على أساس أن تطبيقها فى المجتمع الدولى يعنى البقاء للدول وللشعب الأقوى وانه لا يجوز ولا يصح للدول والشعوب الضعيفة أن تنازع

---

(١) انظر : Mack, Plant & Doyle, op. cit., pp. 8-9.

وعن قصيدة فى نظرية « عبء الرجل الابيض » انظر : كيبلينج الذى اعتبر من أهم المدافعين عن الاستعمار فى أواخر القرن الماضى .

« Glorification : Rudyard Kipling's White Man's Burden, 1899 », in Snyder, op. cit., pp. 87-8.

وللرد على « عبء الرجل الابيض » « بعبء الرجل الاسود » فى مهاجمته للاستعمار انظر :

Edmund D. Morel on « The Black Man's Burden », 1920 in Snder, op. ciit., pp. 163-4.

الدول القوية فى مركزها الدولى الممتاز . بل انه من الطبيعى للغاية أن تقوم الدول القوية بالسيطرة على الدول الضعيفة . وهذه النظرية استخدمها هتلر ودعمها أفكاره عن الجنس « الآرى » وضرورة أو حتمية سيادته وفرض تسلطه على غيره من الأجناس مما كان وراء توسعات هتلر النازية فى الحرب العالمية الثانية . وهذه النظرية العنصرية التى تعرف « بالداروينية الاجتماعية « Social Darwinism » (١) وان كان البعض يجهر بها الا أن الكثيرين وان كانوا يتخذونها نبراسا الا أنهم يستترون وراء تبريرات أخرى . ومن ذلك اسرائيل وتوسعاتها فى العالم العربى .

الزيادة السكانية أو الضغط السكانى :

من أسباب الاستعمار كما يوضحها مؤيدوه انه يتيح الفرصة للتخلص من الزيادة السكانية والفائض السكانى . وقد عملت انجلترا فى الأصل على التخلص من بعض العناصر غير المرغوب فيها فى لندن - وذلك بارسال المساجين ، والخطرين على الأمن والشحاذين الى أمريكا . وكانت الدعوة الأساسية هى تخليص شوارع لندن من العاطلين والشحاذين وتخليص السجون من الخطرين على الأمن . وقد مثل هؤلاء الرعيل الأول من المستوطنين فى أمريكا قبل اكتشاف ثرواتها وجذبها للعناصر الأخرى . كما عرفت أوروبا الانفجار السكانى أثناء الثورة الصناعية ووجدت متنفسا لها فى الهجرة الى ما وراء البحار . فقد هاجر الايرلنديون الى العالم الجديد أثناء الأزمة الثانوية فى الأربعينات من القرن ١٩ . كما هاجر أيضا الكثير من الألمان بعد الثورة الفاشلة ١٨٤٨ (٢) . كما أن الصين شهدت نتيجة زيادة سكانها الى ٢٠٠ مليون نسمة هجرة الصينيين الجنوبيين الى مناطق جنوب شرق آسيا والعالم الجديد . وفيما بعد

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر :

B. Semel Imperialism & Social Reform : English Social imperialist thought 1895-1914, London : Allen & Unwin, 1960.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر : Greene, op. cit., p. 445.

هاجر الايطاليون الى شمال وجنوب أمريكا وشمال أفريقيا . وفى كل هذه الحالات هاجر المهاجرون الى مناطق تحت حكم أجنبى عنهم . ولكن بنهاية القرن ١٩ وجد المهاجرون اللاحقون صعوبات متزايدة : فالصينيون واليابانيون ووجهوا بحصص محددة وجامدة لهجرتهم أو كحاجز تام يحول دون تلك الهجرة فى المناطق التى يستوطنها البيض . كما هو الشأن مع سياسة استراليا البيضاء .

وقد وجدت النظريات السكانية للاستعمار مؤيدين شديدين لها خاصة فى ايطاليا وألمانيا واليابان الذين جاءوا الى حقل الاستعمار متأخرين . حيث بررت كل من ايطاليا وألمانيا سعيهما للمستعمرات فى أفريقيا قبل الحرب العالمية الأولى بمشكلة الضغط السكانى « المجال الحيوى » Lebensraum . كما استخدمت اليابان نفس التبرير فى تسلطها على منشوريا قبيل الحرب العالمية الثانية (١) .

ولكن يلاحظ أن هذا السبب وان كان يصدق على بعض الحالات كالمذكورة آنفا الا أن هناك حالات أخرى تثبت عدم جدواه كسبب وتثبت أنه يدخل فقط فى سبيل المبررات ويتخذ كستار يخفى الأسباب الأصلية . فمثلا فى سنة ١٩١٤ كان لألمانيا مستعمرات فى أفريقيا تصل مساحتها الى نحو ٩٣١ ألف ميل مربع يسكنها نحو ١٢ الف أفريقى فقط ، ومع ذلك فان عدد الألمان القاطنين بها لم يتعد ٢٠ ألفا وكان أكثر من هذا العدد من الألمان يقيمون فى باريس فى ذلك الوقت . أما فى سنة ١٩٣١ فقد كان هناك عدد من الايطاليين يقيمون فى مانهاتن (بنيويورك) يزيد على عدد من يقيم من الايطاليين فى المستعمرات الايطالية (ليبيا وأرتريا والصومال) (٢) . وربما يكون للظروف أو المعيشة أثرها ولكن الوضع يفتح المجال للتساؤل .

وفى الواقع فانه فى الوقت الذى اعترفت فيه الدول التوسعية ـ أو

---

(١) انظر : Dougherty & Pfalzraff, op. cit., p. 116.

(٢) راجع : Padelford & Lincoln, op. cit., p. 93.

ما عرفت بدول المحور فى الحرب العالمية الثانية (اليابان والمانيا وايطاليا) بأن وراء التوسع عامة من جنبها دافع أساسى هو الضغط السكانى ، الا أنه فى نفس الوقت كانت تلك الدول تنادى بتشجيع زيادة النسل بين مواطنيها فى الدولة الأصلية وتعطيهم حوافز على ذلك (١) ، مما يؤكد أن الزيادة السكانية لم تكن سوى شعار وتبرير للتوسع والاستعمار وليست دافعا حقيقيا . وبصفة عامة فان معظم الشعوب ترفض فكرة الهجرة والاستيطان الدائم فى مناطق حتى وان كانت لها نفس الثقافة والبيئة .

ومن الملاحظ أيضا ان التوسعات الاستعمارية فى بعض الحالات أعطت متنفسا أو منفذا لبعض العناصر التى شعرت بالملل والكسل فى دولتها الأصلية ، ووجدت من الصعب عليها التكيف (٢) . فمن ذلك مثلا نجد أن الطبقات الارستقراطية التى تدهورت فى أوروبا عامة وجدت فى الاستعمار متنفسا لها للسيطرة التى فقدتها على شعوبها فى أوروبا والتى يمكنها الاستعمار من ممارستها على شعوب أجنبية عنها .

نشر ثقافة أو ايديولوجية أو دين معين :

قد تكون تلك العوامل القيمية وراء بعض حالات التوسعات والفتوحات . ومنها التوسعات النابليونية فى أواخر القرن الثامن عشر لنشر مبادىء الثورة الفرنسية من « حرية واخاء ومساواة » . ومن الناحية التطبيقية حاولت فرنسا أن تستوعب الشعوب الأخرى فى ثقافتها وتنشىء ، اعتمادا على ذلك ، امبراطورية ضخمة فيما وراء البحار خاصة فى أفريقيا وآسيا ـ تعوضها عن عدم تحقيق الامبراطورية فى أوروبا .

ومن أمثلة ذلك أيضا مجهودات الاتحاد السوفيتي فى التوسع والتسلط تحت اسم نشر الايديولوجية . وذلك أثناء أواخر الحرب العالمية الثانية

---

(١) Greene, op. cit., p. 445.

(٢) لمزيد من المعلومات :

D. W. Brogan, The Price of Revolution, London : H. Hamilton, 1951 p. 271.

على وجـه الخصوص . ويبدو القهر واضحا فى حالتى المجر سنة ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا سـنة ١٩٦٨ فى محاولة مـن الاتحـاد السـوفيتى لفرض الأيديولوجية بالقوة تحقيقا لمصـالح الدولـة « الأب » ذات التفـوق الأيديولوجى .

وقد تبع محاولات نشر الدين الاسلامى والمسيحى فى العالم توسعات وفتوحات ، وكما هـو معروف لدينا فان نشر الدين الاسلامى وان كـان دافعا أصيلا وراء الفتوحات الاسلامية ، الا أنه انتشر تدريجيا وسلميا على أساس من الاقناع (١) .

أما الحروب الصليبية فقد تعـددت الدوافـع من سـياسية الى اقتصادية الى دينية ولكنها أختفت تحت ستار الدين مستخدمة شـعار الصليب ، الأمر الذى يتطلب بعض الايضاح : فالحروب الصليبية كمـا يؤكد المدافعون عنها هى حـروب مقدسـة موجهة مـن الله لحماية الدين المسيحى ودرء خطر تهديد الزحف الاسـلامى عنه حيث وصل التوسـع الاسلامى الى جنـوب فرنسـا ، وطوقت الـدول الأوروبيـة المسـيحية وأصبح البحر الأبيض بحيرة اسلامية مما أسهم فى التدهور الاقتصـادى للدول الاوروبية خاصة فرنسا (٢) . وعلى الرغم من أن تلك الحروب رفعت

(١) انطلقت الفتوحات الاسلامية على أساس عالمية الاسلام والدعوة اليه عملا بقوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل : ١٢٥) ، « لا اكراه فى الدين » (البقرة : ٢٥٦) . وقد كان العدو يخير قبل شن الحرب بين ثلاثة أشياء هى : الاسـلام أو الجـزية أو الحرب . لمزيد من المعلومات انظر : د. وهبى الزجيلى ، العلاقات الدولية فى الاسلام : مقارنة بالقانون الدولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١ ، ص ٤١ - ٤٣ ، أبو الأعلى المودودى ، شريعة الاسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية ، القاهرة : دار الصحوة ، ١٩٨٥ ، ومن الدراسات الهامة فى هذا المجال انظر : سير توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ .

(٢) لمزيد من المعلومات انظر : أنور الجندى ، الاسلام وحركة التاريخ ، رؤيا جديدة فى فلسفة تاريخ الاسلام ، بيروت : دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٨٠ ، ص ١٨١ - ٢٥٥ . انظر أيضا ، سيد على الحريرى ، كتاب الاخبار السنية فى الحروب الصليبية ، القاهرة : مطبعة النيل ، ١٨٩٩ ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، القاهرة : مكتبة الانجلو ، ١٩٨٢ ، جـ١ ، ص ١٣٢ - ١٤٥ .

وقتها شعار حماية الأماكن المقدسة والحجاج المسيحيين مما يلحق بهم على أيدى المسلمين ، الا أن الثابت هو أنه لم تكن هناك مخاطر حقيقية بل ان هذا العامل الدينى استخدم لكسب الرأى العام فى أوروبا لدعم تلك الحروب فى مواجهة ذلك التهديد المتوهم . فقد كانت هناك أهداف سياسية واقتصادية أصيلة وراء تلك الحروب تتمثل فى الحيلولة دون سقوط روما والقسطنطينية فى يد المسلمين ، وتحسين الأحوال الاقتصادية المتدنية فى أوروبا بفتح طرق التجارة والحصول على ما بأراضى المسلمين من ثروات تخرج الشعوب المسيحية من مشاكلها الاقتصادية على أساس ان هذه الأراضى التى بيد المسلمين وخاصة فى آسيا : « تفيض لبنا وعسلا » ، وفقا لقول البابا اوربان الثانى فى حثه المسيحيين على الاشتراك فى تلك الحروب الصليبية ودعمها (١) . وقد وصل الأمر الى اعلان البابا والمجمع غفران ذنوب من يشترك فى تلك الحروب التى وجدت بالفعل استجابة كبيرة عند الكثيرين : حيث اعتبرها البعض رحلة حج جماعية مقدسة ، واعتبرها البعض الآخر هجرة حقيقية جماعية بحيث ضمت جماعات متكاملة - بهدف التخلص من الجوع والفقر - ومثلت مجتمعا كاملا منقولا (٢) . ومع أن هذه الحروب استمرت قرنين من الزمان (٣) ، وكان النصر فى النهاية للمسلمين على أيدى قادة مثل نور الدين وصلاح الدين الأيوبى - الذى استرد بيت المقدس - والظاهر بيبرس وقلاوون ، الا أن انتهاء الغزو الصليبى المادى لا يعنى انتهاء الغزو الفكرى والنفسى والخلقى الذى مهد له الأول الطريق والذى اتخذ منذ ذلك الوقت شكل نشاط التبشير والاستشراق (٤) .

---

(١) يقول البابا اوربان الثانى فى خطابه الذى القاه فى مجمع كليرمونت فى نوفمبر عام ١٠٩٥ : « وانتم أملكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا » ، انظر النص فى الحريرى ، مرجع سابق ص ١١ .

(٢) د . جمال حمدان ، مرجع سابق ص ٤١ .

(٣) من عام ١٠٩٥ الى ١٢٩١ .

(٤) انظر : عبد الرحمن حسن الميدانى ، أجنحة المكر الثلاثة : وخوافيها التبشير - الاستشراق - الاستعمار ، دمشق - بيروت : دار القلم ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، ص ١٣ - ١٤ وما بعدها .

والرابطة قوية بين البعثات التبشيرية المسيحية وبين الاستعمار الأوروبى . فقد سبق المبشرون الجيوش الاستعمارية ومهدوا لها وصحبوها كما اعتمدوا فى نشاطهم على تدعيم الادارة الاستعمارية (١) . وعلى العكس من ذلك فقد قاومت الزعامات الاسلامية عامة الغزو الاستعمارى بل ولم يستقر الحكم الاستعمارى الا بعد القضاء على تلك الزعامات (٢) .

وكثير من الأسباب الموضحة لنشر الدين أو الأيديولوجية تدخل فى باب التبرير : فمثلا قامت الولايات المتحدة الأمريكية بضم الفيلبين سنة ١٨٩٩ تحت شعار الرغبة فى « تمسيح الفيلبيين » ، ولكن واقع الأمر أن الكاثوليكية وجدت طريقها الى هناك قبل ذلك بـ ٢٥٠ عاما وكانت نسبة المسيحيين ٩٠٪ (٣) .

العوامل النفسية :

هناك الكثير من الدوافع النفسية التى يعتبرها البعض وراء بعض حالات الاستعمار . على أساس أن الرغبة فى احتلال الدول لمركز مرموق وهيبة ومكانة فى المجتمع الدولى ليست قاصرة فقط على حكومات الدول وزعمائها ولكن الأفراد عامة يرغبون فى أن يروا دولتهم تمتد سيطرتها على الخريطة لتكون دولة أو امبراطورية مسموعة الجانب . فالتوسع والسيطرة يتمشى مع الطبيعة البشرية ورغبتها فى السيطرة والقوة . والاستعمار يعتبر فى رأى البعض نوعا من الخلل أو التطرف ، مثل القومية التى قد

---

(١) وكان لهذه الرابطة القوية بين التبشير والاستعمار أثرها الهام من جهة فى انتشار الكنائس المستقلة وهى ظاهرة خاصة فى افريقيا حيث يوجد بها نحو ٦٠٠٠ كنيسة مستقلة كل منها تمثل مذهبا مستقلا ، ومن ناحية أخرى فى انتشار الاسلام الذى نظر اليه على أنه دين الرجل الملون عامة والاسود خاصة .

(٢) لمزيد من المعلومات انظر على سبيل المثال : د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم ، المسلمون والاستعمار الاوربى لافريقيا ، عالم المعرفة ، ١٣٩ ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب ، يوليو ١٩٨٩ ، وعن رؤية سياسية للجهاد انظر : رودلف بيترز ، الاسلام والاستعمار : عقيدة الجهاد فى التاريخ الحديث ، القاهرة : دار شهدى للنشر ، ١٩٨٥ .

(٣) انظر : Greene, op. cit., p. 451.

تدفع الأفراد للتضحية بحياتهم فى سبيل دولتهم ، كما أن الاستعمار أيضا قد يدفعهم الى بذل اقصى جهود وتضحية من أجل السيطرة على الغير ، حتى وان كان هذا الغير فى مناطق نائية من العالم وليست ذات قيمة معروفة . فهناك دائما استمرار لأفكار الفخر والهيبة والنزعة العسكرية التى ميزت العصور الوسطى (١) .

وقد عبر البعض عن ذلك بأنه يمثل « مرض الخرائطيين » الذى عم أوروبا ، والذى أساسه الشعور بالرضاء بأن يرى الفرد دولته تسيطر على أجزاء مترامية متفرقة فى خريطة العالم ، ففكرة أن « الامبراطورية البريطانية لا تغرب عنها الشمس » كانت مصدر فخر أساسى للرجل الانجليزى ، وقد أدت هذه الأفكار الى آثار بعيدة المدى فى خلق وتزكية الفخر القومى .

ومن الملاحظ أن كلا من الحروب الكاسبة والخاسرة (٢) على حد سواء تخلف آثارا نفسية قد تزكى دفع عجلة الاستعمار : فالأولى قد تؤدى الى حماس الشعوب وراء حكوماتها بهدف دفع الانتصار الى اقصاه وضم أراض جديدة فى شكل أسلاب وتعويضات لخلق وضع جديد من علاقات القوة بينها وبين عدوها المنهزم ، والثانية قد تؤدى الى هزة نفسية وشحنة عاطفية تزكى من الرغبة فى التخلص من الهزيمة وتحقيق انتصار ومحاولة دفعه الى أقصاه بحيث ينقلب ما أمكن الى مكاسب استعمارية . ومن الأمثلة الواضحة على الحالة الأولى اسرائيل وانتصارها فى حرب ١٩٦٧

---

(١) انظر : William L. Langer : « Psychologiical Factors in Imperialism, 1935 » in Snyder, op. cit., pp. 97-100.

ولمزيد من المعلومات عن تلك العوامل وغيرها من دوافع الاستعمار انظر مقالة أحدث لنفس المؤلف :

William L. Langer, « Farewell to Empire » in Arend Lijphart (ed,) World Politics, Boston : Allyn & Bacon, Inc., 1966. pp. 185-201. From Foreign Affairs, Vol. 41, No-1, Oct. 1962. pp. 115-30.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر :

Morgenthau, 1985, op. cit., pp. 67-9.

الـذى فتح لهـا المجـال أمـام التوســع فى ضـم الأراضى ومحــاولة التشبث بهـا وتحقيق أكبـر مكاسـب مـن ورائهـا . حقيقـة انهـا فى النهاية قبلت التخلى عن توسعها فى سيناء واعادتها لمصر ، ولكن بشرط وثمن أسامى كان الصـلح مـع مصر وهى أهـم وأقوى الـدول العربيـة المعاديـة لهـا . وهى مازالت متمسـكة ببقيـة الأراضى التى ضـمتها ، ولا يكون تخليها عنها اذا تـم الا بحساب للمكاسـب والخسـائر . الأمر الذى تتحكم فيه فى النهاية . كمـا أن من الأمثلة الواضحة على الحـالة الثانية هزيمـة ألمانيـا فى الحـرب العـالمية الأولى التى كـانت دافعـا لنهضتها فيما بـين الحربين ومحاولة الانتقام ، وذلك بتوسـعها الـذى اجتاحت به أوروبا وامتدت الى ما وراء البحار .

تفسير النخبة (١) : هناك من يؤكد على الاعتبـارات الاجتماعيـة او الاقتصادية الاجتماعية فى تفسير دوافـع الاسـتعمار . فمن نـاحية ، رأى شـومبيتر ان الاسـتعمار ياتى كنتـاج لوجود نخبـة حاكمـة ذات طموحات ونزعة عسكرية كمـا أنـه سبيل لايجـاد فرص للعمل خاصـة للارستقراطية العسكرية المنحلة التى لم يعد لها مكان فى الوطن ، وللطبقة الوسطى المتضخمة والتى تفشت فيها البطالة بعـد التصنيع حيث يفتح لها مجال فى المستعمرات . فالـدافع الحقيقى لبريطانيا من التوســع فى القرن التاسع عشر هـو « توفير أعمال للأولاد » (٢) ، وفقا لتعبيره . ومن ناحية أخرى ، يوضح هلجرتين أن الصلة بين الرأسمالية والاستعمار وطيدة من حيث أنهما يمثلان الحرب ضد العمال داخليا ، وضد مواطنى المستعمرات خارجيا .

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر :
Schumpeter, Imperialism & Social Classes, op. cit., pp. 3-6, 64-74, 88-98.

(٢) انظر ما يكل بارات براون ، « نقد للنظريات الماركسـية عن الامبريالية » ، فى أوين وسوتكليف ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .
انظر أيضا : Art & Jervis, op. cit., pp. 364-398.

الفصل الثالث

انمـاط الاستعمار التقليدى « الرسمى »

لا يوجد نمط واحـد للاستعمار · فهناك أشكال متعددة تختلف فى العادة تبعا للظروف التى تواجهها الدولة المستعمرة · فالظروف والأوضاع التى تلاقيها الدول المستعمرة هى التى تشكل النمط الاستعمارى فى معظم الأحوال · ولا يعنى هـذا أن الدول المسـتعمرة لا تبدأ أساسا بسـياسة مرسومة ترجـو اتباعها فى مستعمراتها ، بيد أن التطبيق عادة ما يختلف عن الأطار المرسوم ، والدول الاستعمارية كثيرا مـا تجد نفسها مدفوعة لاتباع نمط اسـتعمارى لا يتمشى مـع السياسة الاسـتعمارية التى تتبعها ويمثل استثناء للنمط الذى اتخذته لنفسها ·

كما أن الاستعمار ، يتميز بالمرونة الى درجة أنه استطاع أن يغير ثوبه ويشكل نفسه على مر العصور تحقيقا للأهداف الاستعمارية ·

وهناك من فقهاء القانون الدولى من يفرق بين ما يطلق عليه : « دول ناقصة السيادة » ويدخل فى عدادها المنـاطق تحت التبعية والحمـاية والانتداب والوصاية ، ومناطق معدومة السيادة وهى المستعمرات (١) ، ولكن بالنسبة لدارسى العلوم السياسية فانها جميعا انماط مختلفة مـن الاستعمار : اذ ان الدولة لا تكون دولة الا وهى تامـة السيادة ومظهرها الخارجى هـو الاستقلال · أما الاقليم الذى لم يحصل على أهم مميزات الدولة والذى يعطيها تميزها عن غيرها وهـو السيادة فانه لا يمكن تسميته بدولة · فالسيادة لا تكون منقوصـة · وبالتالى فان لفظ دولة ناقصـة

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر : دكتور بطرس غالى ودكتور محمـود خيرى عيسى ، المدخل فى علم السياسة ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٤ ، ص ٥٠٠ ـ ٥٠١ ·

السيادة فى نظر دارس العلوم السياسية غير علمى وغير دقيق . فالمناطق التى لم تحصل بعد على سيادتها واستقلالها يمارس عليها فى العادة نمط أو آخر من الاستعمار .

المبحث الأول : العلاقة الثنائية غير المتكافئة :

أولا : الاستعمار الاستيطانى : Colonialism

وهو المشتق من معناه الأصلى المستمد من كلمة Colony وهى من اصل لاتينى Colonia التى تعنى مستعمرة ، بمعنى قيام مجموعة من الأفراد بالسيطرة على غيرهم من شعوب أجنبية عنهم فى أرض أجنبية عنهم . كان الاستعمار الاستيطانى يتميز بانتقال العنصر البشرى على مستوى واسع نسبيا وقيامه بالسيطرة على الشعوب الأصلية . ومن الملاحظ أن الدول الأوربية المستعمرة اتبعت هذا النمط فى العالم الجديد ـ بالأمريكتين وفى جزر الهند الغربية واستراليا ـ حيث الظروف كانت ملائمة للاستيطان . فالكثافة السكانية لأصحاب البلاد الأصليين ـ من هنود حمر وغيرهم ـ كانت ضئيلة الى حد كبير مما مكن من التغلب عليهم وتحقيق الاستيطان بفاعلية . كما أن الظروف المناخية ملائمة بالاضافة الى الثروات الضخمة الزراعية والتعدينية التى بدأ اكتشافها وعملت كعامل جذب أساسى للاستيطان . أما فى أفريقيا وآسيا ، حيث الكثافة السكانية ضخمة اذا قورنت بالعالم الجديد وحيث الظروف المعيشية والمناخية غير مواتية ـ وذلك أهم ـ فلم يتبع الاستعمار الاستيطانى الا فى حالات نادرة على رأسها مثلا : استيطان البوير فى جنوب افريقيا وكذلك بعض الأقليات الانجليزية فى نفس المنطقة وفى روديسيا وكذلك فى المرتفعات فى كينيا ـ اذ خفف الارتفاع من طبيعة المناخ ـ بينما فى جنوب أفريقيا فانها بالاضافة الى الارتفاع تتمتع بمناخ بحر أبيض . وبنفس المثل فان المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر جذبهم اليها طبيعة مناخها وظروفها المعيشية الملائمة ، مما كان أهم أسباب الاصرار على عدم اعطاء الجزائر استقلالها ومما أخر استقلالها عن جاراتها وجعله

مكلفا فى الأرواح ففى الوقت الذى استقلت فيه تونس والمغرب سنة ٥٦ استقلت الجزائر سنة ٦٢ وبعد حرب المليون شهيد . ويلاحظ أن غرب افريقيا لم يجذب المستوطنين الاوروبيين ولم يعرف مشاكل التفرقة العنصرية التى خلقها الاستيطان نظرا لأن مناخه الاستوائى والمدارى — مع عدم الارتفاع الذى يلطف من حدة الحرارة ، بالاضافة الى الرطوبة — اسهم فى عوامل طرد فكرة الاستيطان . هذا بالاضافة الى أن الغابات الاستوائية تتميز بالمستنقعات التى تعتبر مأوى لكثير من الحشرات وعلى راسها « ذباب التسى تسى Tse Tse » الذى يسبب مرض النوم والذى خشيه كثيرا الأوربيون وكان حائلا أمامهم دون الاستيطان (١) . وباختصار فان الاستعمار الاستيطانى يوجد اذا وجد المناخ الملائم لتحقيقه مع القدرة على قمع بعض المقاومة التى قد تثور والقضاء عليها واقامته بتكلفة متقبلة فى الأرواح والأموال .

ويلاحظ أن الاستعمار الاستيطانى أصبح فى طى التاريخ خاصة بعد التكالب الاستعمارى وبازدياد وعى أصحاب البلد الأصليين ! ومع ذلك فهناك مثل حديث لممارسته عنوة استنادا الى امكانيات القمع فى الدولة البوليسية ، وذلك بعمل اسرائيل على اقامة المستوطنات فى كثير من المناطق العربية المحتلة بعد سنة ١٩٦٧ وهو الأسلوب السابق اتباعه فى شكل الهجرة الجماعية لليهود فى فلسطين ، الذى قضى عليها فى النهاية باقامة دولة اسرائيل مستخدمة الاستيطان كنقطة الارتكاز (٢) .

---

(١) من الطريف ان دول غرب افريقيا التى سبقت فى الاستقلال التى كان من أهم ما ساعدها على ذلك عدم وجود الاقلية المستوطنة القوية على عكس جنوبى افريقيا وشرقها — جرت مناقشات بين زعمائها بأن تستخدم تلك الدول على اعلامها ذبابة التسى تسى رمزا عن الامتنان لتلك الحشرة التى حالت دون الاستيطان الاوربى .

(٢) لمزيد من المعلومات عن الاستعمار الاستيطانى فى اسرائيل وجنوب افريقيا انظر : د. مجدى حماد ، الاستعمار الاستيطانى فى اسرائيل وجنوب افريقيا ، بيروت : دار الحياة ، ١٩٨١ .

ثانيا : الاستعمار الصريح « الاستعمار الاستغلالى » :

ولفظ Colonialism الذى يعنى أصلا الاستعمار الاستيطانى أصبح يطلق على الاستعمار بشكله الصريح أو المفتوح الذى يعنى ضم منطقة والحاقها بالدولة المستعمرة ، وكثيرا ما يطلق عليه اسم الاستعمار الاستغلالى كما أن المعنى الشائع هو الضم أو الالحاق ، أو الاحتلال . وفى حالة الاستعمار الصريح أو المفتوح فان القوة العسكرية عادة ما تستخدم ويتحقق عن طريقها فرض السلطة من جانب المستعمر .

والمستعمرة ليس لها شخصية دولية وتعتبر ملحقا بالدولة المستعمرة تمارس عليها كافة حقوق السيادة .

ولا يتبع هذا النمط من الاستعمار انتقال عنصر بشرى على نطاق واسع ، وان كان يتبعه عادة انتقال ادارة استعمارية تتولى تسيير الأمور فى المناطق المستعمرة وضمان تحقيق مصالح الدولة المستعمرة . كما أن اطلاق لفظ « مستعمرة استغلال أو استعمار استغلالى » على هذا النوع تمييزا له عن الاستعمار الاستيطانى لا يعنى أن النمط الأخير لا يتبعه استغلال للاقليم وثرواته ، ولكن فى حالة الاستعمار الاستيطانى فان الاستغلال يكون عادة لصالح المستوطنين أما فى الحالة الثانية ، فالاستغلال يكون لصالح الحكومة الاستعمارية للدولة المستعمرة .

هذا وعادة ما يثور التساؤل حول كيفية ادارة المستعمرات أى انماط الحكم الاستعمارى أو النماذج المتبعة فى الادارة الاستعمارية . ومن الطبيعى أن الدول الاستعمارية قد استخدمت أنماطا مختلفة فى حكمها لمستعمراتها ، وبالتالى تعددت تلك الأنماط مما يجعل من الصعب معالجتها . . ولكن بنظرة الى أهم الأسس التى قامت عليها النظم الاستعمارية فى حكمها لمستعمراتها تطبيقا على افريقيا التى مثلت دولها

اهم مجموعة من الدول حديثة الاستقلال من الناحية العددية نجـد التـالى (١) :

فبريطانيا وفرنسا حصلت كل منهما على نصيب الأسد من المستعمرات الافريقيـة وتميزت سياسـة فرنســا فى حكمها لمستعمراتها بالنمطيـة وبالادارة المباشرة وبسياسة الاسـتيعاب فقـد قسـمت مسـتعمراتها الى اتحادين رئيسيين (اتحاد غرب أفريقيا الفرنسية ومقره داكار فى السنغال ، واتحاد أفريقيا الاستوائية الفرنسية مقره الكونغو ـ برازافيل) على رأس كل اتحاد حاكم عام مسئول أمام وزارة المستعمرات فى باريس مباشرة وكل اتحاد يضم عـددا من المستعمرات (الأول ٨ مستعمرات (٢) والثـانى اربعة) (٣) على رأس كل مستعمرة حاكم مسئول أمام الحاكم العـام وكل مستعمرة مقسـمة الى دوائر عـلى رأس كل منهـا قومنـدان الدائرة وكل دائرة الى أقسام على رأس كل منها رئيس قسم وكل قسم الى مقاطعات على رأس كل منها رئيس مقاطعة تضم عدة قرى على رأس كل منها رئيس قرية . وقد كانت الادارة حتى مستوى القسم فى يد الفرنسـيين أنفسـهم وكانوا أسـاسا من الضـباط والاداريين وقـد انفقت فرنسا نحـو ٩٠٪ من ميزانية المستعمرات على الادارة وحدهـا . أمـا بالنسبة للمستويين الأخيرين فقد تركا فى أيدى الزعماء الافريقيين مع تعيينهم من بين الموالين للادارة الاستعمارية . وكان النظام مركزيا هيراركيا مرتبطا بفرنسـا مباشرة . ومن أسس السياسـة الاسـتعمارية الفرنسية الاسـتيعاب التى بدأت أساسا بالفرنسـة الجماعية ثـم بفرنسة النخبـة عـلى أسـاس أن الفرنسة الجمـاعية سـتجعل فرنسا مسـتعمرة لمستعمراتهـا حيث يختل

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر :
Thomas Hodgkin. Nationalism in Colonial Africa, Washington Washington University Press, 1957.

(٢) هى السنغال ، موريتانيا ، غينيا ، السودان الفرنسى (مالى حاليا) ، ساحل العاج داهومى ، فولتا العليا والنيجر .

(٣) هى الكونغو ـ برازافيل ، جابون ، تشاد ، وأوبنجى شـارى (افريقيا الوسطى حاليا) .

التوازن لصالح المستعمرات نتيجة للتفوق العددى للمستعمرات وبالتالى فان سياسة فرنسة النخبة قصد بها استيعاب من يستطيع استيعاب الثقافة والحضارة الفرنسية بحيث أن الفارق ليس لونيا أو عنصريا ولكنه فارق حضارى . وقد أخذت فرنسا مهمة البث الثقافى بجدية - على أمل بناء امبراطورية لها فيما وراء البحار تعوضها عما فاتها فى أوربا . وبالفعل استطاع المستوعبون أن يتحركوا لأعلى كمواطنين فرنسيين بحيث أنه عند استقلال الدول الناطقة بالفرنسية فى أفريقيا ١٩٦٠ كان هناك ٣٩ ممثلا فى الجمعية الوطنية من أفريقيا فضلا عن نائب رئيس الجمعية الوطنية بالاضافة الى أربعة وزراء .

وهذا على خلاف السياسة البريطانية التى قامت على الاختلاف والتعدد فضلا عن الادارة غير المباشرة وعدم اتباع الاستيعاب بالاضافة الى النظرة الاقتصادية للمستعمرات : فقد عاملت بريطانيا بنظرتها البرجماتية كل مستعمرة على حدة بل أنها عاملت فى كثير من الأحيان الأقاليم المختلفة داخل المستعمرة الواحدة معاملة خاصة مستقلة وفقا لطبيعة الظروف فى كل حالة . ونتيجة لنظرتها الاقتصادية أساسا لرؤيتها العملية للاستعمار فقد اتبعت الادارة غير المباشرة بمعنى الحكم من خلال الزعماء الافريقيين ، بحيث عملوا من ناحية كممثلين لشعوبهم ومن ناحية أخرى كعملاء للحكم الاستعمارى . فضلا عن أن بريطانيا لم تتبع سياسة الاستيعاب وجعلت هناك مسافة بين الانجليزى والمواطن الافريقى .

أما البرتغال فقد اتبعت نظام ادارة مركزيا مباشرا كما نادت بسياسة الاستيعاب من الناحية النظرية فقد قامت سياستها على الوحدوية السياسية : تحت شعار « دولة واحدة - حكومة واحدة وشعب واحد » وبالتالى اعتبرت أن علاقاتها بمستعمراتها من صميم شئونها الداخلية - كما أنها وهى الفقيرة اقتصاديا قد أقامت سياستها الاقتصادية على أساس الوحدوية الاقتصادية . اما الاستيعاب فقد رفعته كشعار أو كصمام أمان ضد الرأى العام الداخلى والخارجى وان كانت لم تأخذه بجدية مثل

فرنسا . فهى من ناحية ، ألزمت من يرغبون فى الاستيعاب بضرورة المرور فى سلسلة معقدة من الامتحانات وجد ان متطلباتها لا يستطيع ان يستوفيها ٤٠٪ من البرتغاليين أنفسهم . ومن ناحية أخرى فان الاستيعاب عنى بالمساواة القانونية دون المساواة فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية .

أما بلجيكا فقد اتبعت نموذجا فريدا فى حكمها الاستعمارى ، وذلك فى مستعمراتها الوحيدة وهى الكونغو البلجيكى (زائير حاليا) حيث اتبعت النموذج الافلاطونى الذى أرادت أن تجعل به من الكونغو مثلا أعلى للحكم الاستعمارى فى التنمية الاقتصادية فى محاولة للتخلص من الآثار السلبية السيئة التى خلفها حكم ملكها ليوبولد الثانى « لدولة الكونغو الحرة » الذى أدارها كمزرعة خاصة .

وقد اتبعت الحكومة منذ ١٩٠٨ ذلك النموذج الفريد القائم على اعتبار أن مهمة الافريقيين هى الانتاج ، بينما مهمة الحكم يتولاها « الفلاسفة الحكام » البلجيك من الاداريين والعسكريين ، ومن ثم فهو يعرف بالنموذج الافلاطونى . وبالتالى فقد اهتمت بالتعليم الفنى حيث كان بالكونغو عند الاستقلال أفضل نظام تعليم فنى فى أفريقيا ومع هذا لم يوجد بها خريج جامعى واحد . كما عملت الحكومة البلجيكية على اعطاء تنازلات للشركات الاستثمارية الاحتكارية لاستغلال ثروات الكونغو الغنية خاصة اقليم كاتنجا ، مما زكى مصالح تلك الشركات فى بقاء الوضع القائم فى ظل الادارة الاستعمارية وشجعها على تأييد محاولات الاقليم للانفصال فيما عرف بأزمة الكونغو التى واجهتها الدولة عند حصولها على الاستقلال .

ثالثا : التبعيــــة (١) : (التبعية القانونية ـ المناطق التابعة) :

وهى تقوم على اخضاع دولة لاقليم او منطقة فى علاقة غير متكافئة وغير محددة بالضرورة على أساس سند قانونى (٢) • ويعتبر هذا النمط من أهم ممارسات العصور الوسطى الاقطاعية ومخلفاتها • وهى تتمثل فى علاقات تكافلية متبادلة وحقوق وواجبات (٣) • هـذا وتجدر التفرقـة بين التبعية بهـذا المعنى ـ أى التبعية القانونية ـ وهى من أنمـــاط الاستعمار فى شكله التقليدى أى من أشكال ممارسة التسلط على المنـاطق غير المستقلة ـ والتبعية بالمفهوم الحـديث التى تـدخل فى اطـار مـا يعرف بالاستعمار الجـديد والتى تمـارس فى دول مستقلة وبوســائل تسلطية غير مباشرة بمـا يحافظ على رمـز الاستقلال وهـو الســيادة القانونية • وسيرد تحليل هذا النمط الأخير عند بحث الاستعمار الجديد • وقد يرجع اللبس الى أن لفظ تبعية فى اللغة العربية مستخدم فى الحالتين ، بينما فى اللغات الأخرى هناك اختلاف فى اللفظ المستخدم • وان كـان البعض يفضل أن يستخدم لفظ اعتمادية بدلا من التبعية للاشــارة الى التسلط فى الدول المستقلة ، خاصة حديثة الاستقلال ، فى ظل الاستعمار الجديد • ولكن كما سيرد بحثه فـان المفهوم الأكثر دقة فى التعبير عـن الظاهرة الأخيرة هـو التبعية •

وعليه فقد يكون من المفيد لسهولة التحليل استخدام مفهوم التبعية القانونية أو المناطق التابعة فى التعبير عن ذلك النمط المعبر عن علاقـات التبعية فى ظل الاستعمار التقليدى للتمييز بينها وبين التبعية كمفهـوم شائع الاستخدام فى ظل مـا يعرف بالاستعمار الجديد •

---

(١) وهناك من يطلق عليها اسم الدولة التابعة « Vassal State » ويطلق على الدولة المتبوعة اسم « Suzerain State » ولكننا نفضل عـدم استخدام تعبير « الدولة التابعة » حيث الدولة لا تأخذ صفتها كدولة الا بوجود عنصر السيادة القانونية ـ على الاقل ـ بينما فى حالة المناطق التابعة فان هذه السيادة لا تتوافر •

(٢) هناك بعض الحالات توضح رابطة التبعية على أساس معاهدة دولية : وهى الحال بالنسبة لتبعية بلغاريا لتركيا وفقا لمعاهدة برلين المبرمة فى ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ •

(٣) انظر : Payot, op. cit., p. 103.

وقد كان لمصر وضع مميز فى علاقة التبعية بينها وبين الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى التى انهت تلك العلاقة بهزيمة تركيا (١) . ولكن تبعية مصر لتركيا لم تمنع بريطانيا - وهى احدى الدول الموقعة على معاهدة لندن الموضحة لوضع مصر قبل الدولة العثمانية - من أن تقوم باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ مستفيدة من ضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على رد ذلك الاحتلال . وعليه ففى الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤ كانت مصر فى موقف خاص : فهى من ناحية تابعة للدولة العثمانية ومن ناحية أخرى تقع تحت الاحتلال البريطانى والسيطرة البريطانية مع تمتعها ببعض أوجه الاستقلال الذاتى داخليا وبعض أوجه الشخصية الدولية المحدودة خارجيا .

أو قد تصل التبعية الى أقصاها فى شكل يجعلها لا تختلف عن الاستعمار الصريح أو المفتوح ، وقد كان هذا هو مثل ما اتبعته الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا فى أفريقيا . وقد تتلون العلاقة فى ظل التبعية وتبدأ باعطاء بعض الحريات للاقليم التابع وتنتهى بتقييد حريته بل قد تذهب الى ضمه . ومن ذلك ان علاقة كوريا باليابان فى ظل التبعية تطورت الى أن وصلت الى حد السيطرة التامة لليابان على مقدرات كوريا ، الأمر الذى انتهى باندماجها فيها سنة ١٩١٠ . مع أن الامر بدأ فى صورة مختلفة : ففى أواخر القرن ١٩ قامت اليابان ببسط نفوذها على كوريا واستطاعت بالفعل أن توقع معها معاهدة صداقة وتجارة سنة ١٨٧٦ وقد نافست اليابان الصين فى النفوذ بكوريا ونتج عن ذلك حكم صينى - يابانى لكوريا ، ولم تجد الاخيرة ثورة ١٨٩٤ ، حيث قامت الدولتان باحتلالها بجيوشهما وانتهى أمر الصراع بين اليابان والصين الى الحرب بينهما ، الامر الذى انتهى بهزيمة الصين وفقدها

---

(١) استمرت التبعية رسميا من سنة ١٨٤٠ - ١٩١٤ . وكانت مصر تعتبر ولاية عثمانية ولكن بموجب معاهدة لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ ، وفرمانات : ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وأول يونيو من نفس العام ، وما عرف بالفرمان الكبير فى ٨ يوليو سنة ١٨٦٧ ، كان لمصر وضع مميز .

لسيطرتها على كوريا ، فقامت اليابان ببسط سيطرتها عليها ، من ثم التجأ امبراطورها الى السفارة الروسية . ودخلت روسيا فى ميدان الصراع مع اليابان على كوريا ولكن بهزيمة روسيا فى حربها مع اليابان فى بورت سموث سنة ١٩٠٥ وتوقيع الصلح بينهما اعترفت روسيا فى المعـاهدة بينهمـا فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ بأن لليابان مصالح سياسية واقتصادية عليا فى كوريا ، وقد اضـطر امبراطور كوريا لتوقيع معاهدة بتبعيته لليابان فى نوفمبر سنة ١٩٠٥ تم بمقتضاها : تنازل الامبراطور عن حقه فى ادارة السياسة الخارجية لكوريا وتوجيهها بحيث تتولاها اليابان التى يكون لحكومتها مندوب سام فى سيول عاصمة كوريا كما يكون لليابان مستشارون ماليون وسياسيون فى حكومة كوريا . وقد ظلت كوريا محتفظة ببعض مظاهر شخصيتها الدولية حيث ظل لها التمثيل الدبلوماسى السلبى ـ وهو تلقى الممثلين الدبلوماسيين الاجانب وتقديم أوراق اعتمادهم للامبراطور الكورى ـ ولكن تبلور الامر الى اجبار اليابان لامبراطور كوريا على التنازل عن العرش ، وأخيرا أعلنت ضمها لكوريا فى ١٨ يونية سنة ١٩١٠ ولم ينته الوضع الا بعد هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية حيث دخلت كوريا مرحلة جديدة فى الصراع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية .

أو قد تكون الرابطة اسمية شرفية دون دفع رمز التبعية وهو الجزية كما هى الحال بالنسـبة لجزيرة كريت التى استقلت سـنة ١٨٩٩ وظلت تابعة اسما لسلطان تركيا حتى ضمت الى اليونان سنة ١٩١٣ .

رابعـا : الحمـاية (١) :

الحماية مظهر من مظاهر العلاقات غير المتكافئة بين دولتين احداهما قوية والأخرى ضعيفة ، أو بين دولة أقوى واقليم لم يصـل الى عـداد

(١) لمزيد من المعلومات عن أنماط الاستعمار انظر :
Water C. Langsam, « Techinques of Imperialism, 1870-1939 », in Snyder, op. cit., pp. 55-7.
وعن الحماية Protectorship على وجه الخصوص انظر : Claude-Albert Co-lliard, Institutions des Relations Internationales, Paris : Dalloz, 1974. pp. 94-101.

الدولة ولم يحصل على أهم خاصية تعطى للدولة تميزها وهى السيادة . والمنطقة الموضوعة تحت الحماية - التى يسميها البعض الدولة المحمية (وان كنا لا نفضل استخدام لفظ دولة الا للوحدة كاملة السيادة والاستقلال) - تفقد بالضرورة سيادتها الخارجية أى اختصاصاتها الخارجية - وتمارسها عنها الدولة الحامية التى تتولى بصفة عامة التمثيل الدبلوماسى وعقد المعاهدات ، وتمثيلها فى المنظمات والمؤتمرات الدولية ، والحماية من أى عدوان خارجى . وبالتالى لا تتمتع المحمية بالشخصية الدولية كاملة بل تتمتع بها وتمارسها عنها الدولة الحامية وان كان رئيسها يتمتع بالامتيازات الدبلوماسية لرؤساء الدول . أما فى الشئون الداخلية ففى العادة تترك للمحمية الشئون الداخلية وان كان هناك استثناء على ذلك فى بعض الحالات حيث تتولى الدولة الحامية ممارسة الاختصاص فى مجالات بعض الخدمات كما أن لسكان المحمية خاصة فى حالة الحماية الاختيارية جنسية مستقلة عن الدولة الحامية .

والمفروض أن تتميز الحماية بانها تقوم على سند قانونى - معاهدة حماية بين الدولة الحامية والاقليم الموضوع تحت حمايتها - تنظم على اساسها العلاقة بينهما . وان كانت الحماية على مصر ١٩١٤ قد أعلنت بتصريح من جانب واحد وهو جانب بريطانيا . وبنفس المثل فان حماية المانيا على اقليم بوهيميا - مورافيا جاء بموجب أمر فى ١٦ مارس ١٩٣٩ . كما يشترط ايضا اعلان اتفاقية الحماية للدول الاجنبية وأن تعترف الدول ايضا بوضع الحماية . ويختلف الوضع والعلاقة بين الدولة الحماية والاقليم الموضوع تحت حمايتها - المحمية - فى كل حالة وفقا لطبيعة ما ينص عليه فى اتفاقية الحماية .

أ) وهناك من يفرق بين **الحماية الاختيارية** وهو ما يطلق عليها « Protectorat de droit des gens » على أساس أنها تقوم بين دول لها نفس المدنية ولكن احداها قوة كبيرة والأخرى تتميز بالمحدودية الشديدة التى لا تمكنها من ممارسة اختصاصات الدولة وسيادتها وهى تدخل فى

عـداد « الدويلات » لا الدول وهى الحال بالنسبة لحماية فرنسا عـلى موناكو ، وحماية ايطاليا على سان مارينو ، وحماية سويسرا ليختنشتين . وبنفس المثل فان جمهورية اندورا تحت حماية فرنسا فى الأمور الدنيوية بينما تتولى أسبانيا الحمايـة الدينية لهـا . والحماية الاسـتعمارية أو الحماية الاجبارية وهى تعبير عن أحـد انماط الاستعمار . ولكن بدلا من الالتجاء الى الاحتلال والضم الاقليمى فان السيطرة الاستعمارية تحتفظ بالهيكل الحكومى والادارى المحلى وبالنظام السياسى ولكنها تمارس عليها السيطرة وتفرض « وصايتها » أى تسلطها عليها بقوة .

والحماية الاستعمارية ليست قاصرة على المناطق غير الأوربية أو غير المتقدمة فقد مورست بين دول أوربيـة على أخرى فى نفس القـارة : من ذلك حماية المـانيا عـلى اقليم بوهيميا ومورافيا فى تشيكوسـلوفاكيا فى ١٥ مارس ١٩٣٩ وفقا لاحلاف هتلر كمـا وضع اقليم سلوفاكيا الـذى أعلن استقلاله تحت حماية المـانيا .

ولكن من الملاحظ أنه على الرغم من ان هناك أساسا قانونيا للحماية يجعلها تختلف عن الاستعمار ، فانه فى كثير من حالات الحماية الاستعمارية لم تفرق الدولة المسيطرة بين ما اذا كان الاقليم تحت الحماية أو تحت الاستعمار الصريح . وقد قامت فرنسـا على وجه الخصوص بعدم التفرقة فى المعاملة حيث عاملتها جميعا كمستعمرات ويبدو هـذا مثلا من سياستها فى الهند الصينية ـ وما عرف باسم « الحكومة العامة للهند الصينية » التى ضمت مستعمرة هى كوشين شين Cochinechine ومحميات بالمعنى الحقيقى هى كمبوديا وفيتنام ، ومحمية تمارس ادارة مباشرة هى : لاوس . وقد الحقت فرنسـا المحميات فى آسـيا بوزارة المستعمرات ، أمـا محميات تونس والمغرب فقد ربطت بوزارة الخارجية الفرنسية . وحتى فى المحميات الافريقية فقد احتلت الادارة المباشرة مكانة خاصة .

أما النوع الثالث من الحماية : فهو ما يطلق عليه بالمحميات الأمريكية فهى ذات مميزات خاصـة ونظمت لوقت طـويل العلاقات بين الولايـات

المتحدة الأمريكية وبعض الدول الصغيرة فى أمريكا الوسطى وهى اليوم ذات شكل ضعيف .

ومن الملاحظ ان الحماية عامة لا تتميز بالاستقرار : فهى تقوم على علاقات قابلة للتغير ، كما انها فى كثير من الحالات تستخدم كستار أو قناع وخطوة للضم والاستعمار الصريح . كما أن التطور الطبيعى هو ان تنتهى الحماية بالاستقلال وتصبح المحمية دولة مستقلة . وهناك امثلة عديدة لمحميات تحولت الى اقاليم مستعمرة : وقد اعلنت فرنسا فى عدة حالات عن طريق تصريح منفرد انهاء الحماية الاستعمارية على اقاليم وتحويلها الى مستعمرات بالمعنى الصريح أو الواضح ، مثل الوضع فى تاهيتى التى أعلنت كمحمية بموجب معاهدة ٩ سبتمبر ١٨٤٢ استبدلت بالضم بموجب قانون فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٠ . ومدغشقر كانت محمية بموجب معاهدة ١٧ ديسمبر ١٨٨٥ التى عدلت فى ١٨٩٥ الا انها تحولت الى مستعمرة بموجب قانون ٦ أغسطس ١٨٩٦ ثم أصبح لها وضع اقليم ما وراء البحار قبل أن تصبح مستقلة سنة ١٩٦٠ . كما ان سلطنات موهيلى وانجوان وكومور الكبرى وضعت تحت الحماية بموجب ثلاث معاهدات فى ١٨٨٦ ولكنها ضمت بموجب قانون فى ٢٥ يولية ١٩١٢ . وكوريا كانت محمية يابانية بموجب معاهدة فى ١٧ نوفمبر ١٩٠٥ ولكنها أصبحت بعد ذلك مستعمرة يابانية بعد معاهدة ٢٢ اغسطس ١٩١٠ .

والترنسفال وضعت تحت الحماية البريطانية بموجب اتفاقية بريتوريا سنة ١٨٨١ ولكنها ضمت على أثر حرب البوير بموجب معاهدة ٣١ مايو سنة ١٩٠٢ . ولقد كان ضم الترنسفال ودولة اورانج الحرة نقطة الانطلاق للاستقلال فى اطار دومينيون جنوب افريقيا - الذى ضم دولة البوير القديمة والمستعمرات البريطانية القديمة فى ناتال والرأس .

وحماية بريطانيا على الجزر الايونية بموجب معاهدة باريس فى ٥ نوفمبر ١٨١٥ استمرت نحو ٥٠ عاما ولكنها اعيدت لليونان بموجب

معاهدة لندن فى ١٤ نوفمبر ١٨٦٣ . أما حماية بريطانيا على مصر التى أعلنت رسميا بموجب تصريح منفرد فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ لم تستمر سـوى ٨ سنوات وأعلن انتهاؤها بموجب اعلان من قبل حكومة بريطانيا - الدولة الحامية - فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

والحماية المالية الأمريكية التى فرضت عـلى جمهورية الدومينيكان (بموجب معاهدة ٨ فبراير ١٩٠٧) ، وهندوراس (معاهدة ١٠ يناير ١٩١١) ونيكاراجوا (معاهدة ٦ يونيو ١٩١١) وكذلك الحماية على هايتى (معاهدة ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٥) تدريجيا ترك العمل بها كما تم تحول مماثل بالنسبة لكوبا التى أعطت المعاهدة بينها وبين الولايات المتحـدة الأمريكية للأخيرة حق التدخل لاقرار الأمن الداخلى والمحافظة على تماسك الجزيرة واستقلالها حتى أنهيت أساسا سـنة فى ٢٩ مـايو ١٩٣٤ تاركـة للولايات المتحدة فقط قاعدة جوانتنامو البحرية . كما أن المحميات الفرنسية فى الهند الصينية فى آسـيا (وهى فيتنام (أنـام) وكمبوديا ولاوس) تطورت هى الأخرى نحو الاستقلال ولكن بعد ان مرت بمرحلة وسـيطة كدولة مشـاركة Etat Associé (١٩٤٩ - ١٩٥٤) فى اطار الاتحـاد الفرنسى . وان كان التطور بالنسبة لفيتنام تميز بمرحلة طويلة من العداء والصراع استمرت مـن ١٩٤٦ الى ١٩٥٤ . وقـد كان لتونس والمغـرب وضـع خاص .

فقد وضعت تونس فى ظل نظام الحماية تحت حماية فرنسا بموجب معاهدة باردو فى ١٢ مـايو سـنة ١٨٨١ التى أكملتها اتفـاقية المرسى فى ٨ يونيو سنة ١٨٨٣ . وقـد امتـد اختصـاص فرنسا حتى عـلى الشئون الداخلية أكثر كثيرا مما تخوله الاتفاقية ونظمت ادارة مركزية حقيقية .

ولكن الاتفاقيـات الفرنسية - التونسـية فى ٣ يونيو سـنة ١٩٥٥ ، أوجدت استقلالا داخليا يتمشى مع المفهوم الحقيقى للحماية . وكان هـذا النظام الذى أنشأته خطوة فى سبيل الاستقلال : الذى تم بموجب بروتوكول

اتفاق فرنسى ـ تونسى فى ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ الذى أكمله اتفاق ١٥ يونيو سنة ١٩٥٦ .

أما بالنسبة للمغرب فان الوضع الدولى كان لفترة طويلة معقد للغاية ومثلت « المسألة المغربية » قبل ١٩١٤ مشكلة حساسة حلت فى اطار الوفاق الاوروبى « المؤتمر الأوروبى أو الكونسرت الأوروبى » . فمن الناحية الاقتصادية ، فالاقليم المغربى كان يحكم بواسطة مبدأ عرف « بالباب المفتوح » وضعه ميثاق الجزيرة فى ١٧ أبريل سنة ١٩٠٦ وأكدته الاتفاقية الفرنسية ـ الألمانية فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ يوضح خاصية الانضمام بالنسبة للدول الكبرى .

من الناحية السياسية : فان معاهدة فاس فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ اقامت حماية فرنسا على المغرب . ولكن النظام أصبح أكثر تعقيدا نتيجة وجود مناطق متعددة : منطقة فرنسية ، منطقة أسبانية ، منطقة دولية ـ اقليم طنجة .

وقد اعترفت الاتفاقية الفرنسية ـ الاسبانية فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ لاسبانيا ـ فى المنطقة الجغرافية المعروفة بالمغرب الاسبانية ـ ببعض الاختصاصات التشريعية والادارية تفرض على السلطة التى يحتفظ بها ممثل السلطان فى هذه المنطقة ، الخليفة .

أما منطقة طنجة فقد اخضعت لنظام التدويل .

ولكن الحماية الفرنسية كانت على حدود نظام الادارة المباشرة كما حدث فى تونس ، وقد الغيت بواسطة الاعلان المشترك الفرنسى ـ المغربى فى ٢ مارس سنة ١٩٥٦ والذى ذكر أن اتفاقية فاس سنة ١٩١٢ لا تتمشى اطلاقا مع المتطلبات الحديثة وتعترف باستقلال المغرب . وقد الغى نظام المنطقة المعروفة بالمغرب الاسبانية بموجب الاتفاقيات الاسبانية / المغربية فى ٧ أبريل سنة ١٩٥٦ بينما الغى نظام وضع طنجة بواسطة مؤتمر ٨ ـ ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

المبحث الثانى : نظام الاشراف الدولى

كان من أهم آثار الحرب العالمية الأولى ان ارتفعت الصيحات ضد الاستعمار خاصة مـا يتعلق بالمستعمرات التى كانت تحت سيطرة الدول المنهزمة فى الحرب ، مع التاكيد على ضرورة عـدم عودتها للاستعمار فى انماطه التقليدية فى شكل العلاقة الثنائية غـير المتكافئة . ومن ثم كـان التفكير فى ضرورة ايجاد نظـام اشراف دولى تخضع لـه تلك المنـاطق التى لم تحصل على استقلالها ، وبالتالى جاء نظام الانتداب فى ظل عصبة الأمم كأول منظمة عالمية عامـة ، ثم وريثه نظام الوصاية الدولى فى ظل الأمم المتحدة وريثة عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية .

وعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية بين كل من نظام الانتداب - الذى أثبت عمليا أنه نظام استعمار مقنع - ونظام الوصاية - الذى أثبت فاعليته كنظام اشراف دولى ، الا أن هناك تشابها جوهريا بين النظامين يتمثل فى ان العلاقة الثنائية غير المتكافئة حلت محلها علاقة ثلاثية دخلت فى ظلها المنظمة العالمية كطرف ثالث بحيث يقوم بادارة الاقليم الـذى لـم يحصل على استقلاله دولة مسئولة أمام المنظمة العالمية عن تلك الادارة .

أولا - نظام الانتداب (١) :

نشأ نظام الانتداب Mandate System فى ظل عصبة الأمم بعـد الحرب العالمية الأولى وذلك بناء على اقتراح جنرال سمتس رئيس وزراء جنوب أفريقيا فى ذلك الوقت (٢) وذلك بهدف التمشى مـع روح عصبة الأمم والجـو السـائد بعد الحرب العـالمية الأولى الذى لم يكن مؤيـدا

---

(١) انظر : Colliard, op. cit., pp. 162-9.

(٢) يلاحظ أن جنوب أفريقيا كانت تحكم بواسطة الحزب المتحـد الذى تغلب عليه العناصر البريطانية ولس البوير وان سياسة التفرقة العنصرية المعروفة « بالابارتهيد » لم تصبح السياسة الرسمية للدولة الا سنة ١٩٤٨ بعد أن فاز الحزب الوطنى القائم على البوير فى الانتخابات على أساس سياسة الابارتهيد .

لفكرة ضم الأراضى والمستعمرات مع محاولة ايجاد صيغة جديدة متقبلة للاشراف على مستعمرات الدول المنهزمة فى الحرب العالمية الأولى . فقد جاء اقتراح جنرال جون سمتس الأصلى فى ديسمبر سنة ١٩١٨ فى مؤتمر باريس للسلام متضمنا الاقتراح بان توضع كافة المناطق غير الألمانية وغير المجرية من الامبراطورية النمساوية - المجرية وبعض أجزاء محدودة من الامبراطوريتين الروسية والعثمانية تحت مسئولية عصبة الأمم المقترحة . فقد طبق نظام الانتداب خارج أوربا على المستعمرات السابقة لألمانيا والمناطق التى انتزعت من الامبراطورية العثمانية . وذلك فى محاولة لايجاد صيغة عملية مقبولة حيث فكرة الضم قد هجرت فى مبادىء ولسون والتى قام عليها عهد عصبة الأمم . وانه يكون من الممكن للعصبة ان تفوض سلطاتها ، مع بعض التقييدات والشروط ، لعدة دول كوكلاء لها أو دول منتدبة . وقد أخذ الرئيس ولسون هذه الفكرة واقترح تطبيقها ليس كما اقترح جنرال سمتس ولكن على كل مستعمرات ألمانيا باستثناء كياوتشو فى الصين ، وكذلك على فلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، والاردن ، والعراق (١) .

وأوضحت المادة ٢٢ من عهد عصبة الأمم المبادىء الأساسية العامة لنظام الانتداب .

على أساس أن تلك المناطق تسكنها شعوب ليست قادرة على أن تسير امورها بنفسها فى اطار الظروف الخاصة الصعبة للعالم الحديث . واعتبر أن رفاهية هذه الشعوب وتقدمها يمثل مهمة مقدسة للحضارة والمدنية وان ذلك يتأتى عن طريق اعطاء أمر شعوب تلك المناطق للدول المتقدمة التى تستطيع بحكم مواردها وتجربتها أو بحكم موقعها الجغرافى أن تضمن تحقيق تلك المسئولية . وبهذا ، ففى الوقت الذى دعمت فيه سيطرة الدولة القائمة بالانتداب على الاقاليم المنتدبة الا انه قد حلت مسألة السيادة : حيث ان تلك الاقاليم لا تقع تحت سيادة تلك الدول المتقدمة ، بل هو

(١) انظر : Langsam, op. cit., p. 57.

نظام للاشراف الدولى فى ظل العصبة (١) . وعليه فانه نظريا ، ومن حيث المبدأ لا يمكن اعتبار نظام الانتداب نظاما استعماريا على نهج الضم أو التبعية أو الحماية أو غيرها . فالمفروض ان الدول المنتدبة عليها مهمة دولية معينة معطاة لها من قبل المنظمة ومسئولة عنها أمام احدى مؤسساتها وهى اللجنة الدائمة للانتدابات La Commission Permanente des Mandats

ونظرا لاختلاف ظروف المناطق المنتدبة واختلاف درجة تقدمها : فقد أوضحت المادة ٢٢ فقرة ٣ من العهد أن طبيعة الانتداب يجب أن تختلف وفقا لدرجة تقدم الشعوب ، وموقعها الاقليمى الجغرافى ، وكافة الظروف المؤثرة من اقتصادية وغيرها .. وعليه فقد تم التمييز بين ٣ فئات أو أنواع من الانتداب :

انتداب أ : طبق على بعض المناطق التابعة للامبراطورية العثمانية من قبل ، والتى بلغت درجة من التقدم وتقترب من مرحلة الاستقلال الذى تستطيع أن تصله بمساعدة الدول المنتدبة : وعليه فقد رئى أن تطبيق هذا النظام فى الشرق الأوسط سيكون لفترة قصيرة للغاية وان تدخل الدول المنتدبة سيكون محدودا .

انتداب ب : يطبق على الشعوب فى مناطق أفريقيا الوسطى التى لم يكن لها نصيب كبير من التقدم . وبالتالى فان دور الدولة المنتدبة هنا يكون أكبر وأهم : فعليها أن تتولى ادارة الاقليم ، وعليها أن تقيم وتضمن الحرية الاقتصادية للدول الأخرى الأعضاء فى العصبة ، وأن تحافظ على نظام نزع السلاح الذى يتضمن تحريم انشاء حصون أو قواعد عسكرية أو بحرية أو تلقى المواطنين تعليما عسكريا ما لم يكن للبوليس أو للدفاع عن الاقليم ، كما أن على الدولة المنتدبة ضمان حرية العقيدة والدين وتحريم ما يتعلق بتجارة الرقيق ، ونقل الأسلحة والكحول وغيرها ..

---

(١) لمزيد من المعلومات عن نظام الاشراف الدولى انظر : د . حورية توفيق مجاهد ، محاضرات فى التنظيم الدولى ، كلية التجارة جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

انتداب جـ : وطبق على اقليم جنوب غرب افريقيا وبعض جـــزر المحيط الهادى وهـو يختلف كثيرا عن سابقيه اذ يقترب من مفهوم الضم الذى يعرف فى الاستعمار الصريح . فالاقليم الخاضع لـه يـدار فى ظل نظام الانتداب كأى جـزء من اقاليم الدولـة المنتدبة مع تحفظ أسـاسى وهـو ضرورة احترام المحافظة على الضمانات الخاصة بالشعوب والسابق توضيحها فى انتداب ب .

ولكن من الناحية الواقعية نجـد ان نظـام الانتداب كما طبق لـم يخرج فى مجموعه عن استعمار مقنع تحت شعار الاشراف الدولى فقـد كانت هناك العديد من الثغرات التى استطاعت أن تنفذ منها الدول المنتدبة .

فمن ناحية : لم ينص عهد العصبة على ما هـو الجهـاز فى العصبة الذى يجب أن يحدد الدول المنتدبة ولقد تم ذلك خارج العصبة ، وقـد تولت الاشراف على تلك المناطق الدول المنتصرة والمتحالفة معها (١) :

فالبالنسبة لانتداب أ فقـد مارسـت فرنسـا الانتداب على سـوريا ولبنان ، أما بريطانيا العظمى فمارست الانتداب على العراق ، وفلسطين ، وشرق الاردن .

أما انتداب ب فقـد اقتسـمت فرنسـا وبريطانيا كـل من توجـو والكاميرون وأعطيت بريطانيا تتجانيقا كمـا أعطيت بلجيكـا رواندا - اورونـدى (٢) .

---

(١) يلاحظ من التوزيع الفعلى للانتداب على الدول المنتدبة انه يتوافق مع الخطوط التى اتفق عليها فى بعض المعاهدات السرية التى تمت بين الدول المتحالفة اثناء الحرب العالمية الأولى وقد تم ذلك وفقا لمصالح تلك الدول المنتصرة دون مراعاة لمصالح تلك الاقاليم الموضوعة تحت الانتداب بالدرجة الاولى : انظر المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٢) Ruanda-Urundi انفصلتا وأصبحتا بالاستقلال : رواندا (مع تغيير فى حرف من اسمها لتصبح Rwanda) وبوروندى Burundi .

أما انتداب جـ : فقد تولت جنوب افريقيا الانتداب على جنوب غرب افريقيا ، والامبراطورية البريطانية الانتداب علـى نورو ، ونيوزيلنـدا الانتداب على ساموا الغربية ، واستراليا الانتداب على غينيا الجديدة ، أمـا اليابان فقـد مارست الانتداب عـلى جـزر كارولين ، ومـاريـان ، ومارشال (١) .

هـذا ويختلف دور الدولـة المنتدبـة وفقا لنوع الانتـداب ، ففى انتداب أ يكون دورهـا الارشـاد والتوجيه بالنسبة للمنـاطق التى تحت انتدابها ، وفى انتداب ب فان دورها هـو ادارة تلك المناطق ، أمـا فى انتداب جـ فان دورها هو ادراتها وكأنها جزء لا يتجزأ من اقليمها .

وقد كان من المفروض أن يخضع دور الدول المنتدبة وتصرفها لبعض الرقابة من جانب العصبة عن طريق ضرورة تقديمها لتقرير سنوى للجنة الدائمـة للانتدابـات ، التى تتولى تلقى تلك التقـارير وفحصها وتعطى لمجلس العصبة رأيها فى كل الموضوعات المتعلقة بتطبيق نظام الانتداب .

وقد انشئت بالفعل لجنة للانتدابات ، وكانت هى ولجنة نزع السلاح اللجنتين الدائمتين الوحيدتين فى العصـبة ، وبلغ عدد أعضـائها ٩ فى بادىء الأمر ثـم ارتفع الى ١٠ يعينهم مجلس العصبة ويختارون عـلى أساس فردى شخصى بمقتضى كفاءتهم فى الادارة الاستعمارية أو لقيمتهم الشخصية ، وقد انتمى غالبيتهم للدول المنتدبة .

ولقد كانت اللجنة أساسا استشارية ترفع رأيها للمجلس الذى كـان لـه حق اصدار التوصيات .

وكان نظام الانتداب مؤقتا :

---

(١) ويلاحظ من هذا التقسيم ان اليابان قد أعطيت لها مستعمرات المانيا شمال خط الاستواء أما تلك الواقعة جنوبه فقد تركت لاستراليا ونيوزيلندا .

فبالنسبة لمجموعة أ استقلت العراق بموجب معاهدة مع بريطانيا فى ٣٠ يونيو ١٩٣٠ وان أعطى لبريطانيا قواعد جوية بها ... وأعطى لها حق استخدام الموانى والسكك الحديدية فى وقت الحرب ونظمت مساعدة فنية فى الأمور العسكرية كما نص فى المادة الاولى على التشاور بين الدولتين فى الشئون الخارجية المتعلقة بمصالحها المشتركة . وعليه فان من الواضح أنه قد نتج عن نظام الانتداب واليد العليا فيه لبريطانيا فى العراق مع تقدمها نوع من الحماية أو « الصداقة الحامية » .

وأعطت المعاهدة الانجلو - عراقية الفرصة للجنة كى تقرر الشروط التى ترى انها يجب أن تجتمع ، وفقا لقرار ٤ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، حتى يمكن وضع نهاية للانتداب وهى :

١ - أن يكون للاقليم حكومة وادارة يمكنها أن تتولى مهمة الوظائف التى تحتاجها الدولة .
٢ - أن يكون الاقليم قادرا على المحافظة على سلامته الاقليمية .
٣ - أن يكون فى حالة تمكنه من ضمان الاستقرار والهدوء السياسى .
٤ - أن تكون لديه الموارد المالية التى تمكنه من تسيير الأمور التى تتطلبها واجبات الدولة .
٥ - أن يمتلك سلطة تشريعية (مجلس تشريعى) وتنظيما قضائيا لتحقيق العدل العادى .

وقد انضمت العراق للعصبة فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

ويعتبر استقلال العراق أهم استثناء فى حالات الانتداب حيث استقل باتفاق رضائى ودون اراقة دماء أو تفاقم أزمات كما حدث فى سوريا ولبنان من جهة ، والمشكلة الدائمة التى تخلفت عن الانتداب على فلسطين من جهة أخرى . وبنفس المثل استقل الأردن ١٩٤٦ وانتهى الانتداب عليه .

أمـا بالنسبة لسوريا ولبنان فقـد كان الأمـر مختلفا : اذ تبلورت معاهدتان سنة ١٩٣٦ الأولى بين فرنسا وسوريا فى سبتمبر ، والثانية فى نوفمبر بين فرنسا ولبنان بهدف وضع نهاية للانتداب ، وقد رأى الاطراف ايجاد تحالف دائم بين الدولـة المنتدبة السابقة وبـين الدولـة الجديـدة المستقلة ، مع توحيد السياسة الخارجية فيما يتعلق بمصالحهما المشتركـة الخارجية وحق سوريا ولبنان فى ضـمان أمنهما مـع عودتهمـا اذا أرادتا لمساعدة فرنسا ، كمـا رئى انضمامهمـا للعصـبة ولكن قـامت الحرب سنة ١٩٣٩ ولم تكن المعاهدتان قد صـدق عليهما من البرلمان الفرنسى - وقد تم بحث أمر استقلالهما خارج العصبة وبطريقة صـحبتها المشـاكل . وقد أعلن باسم جنرال ديجول فى ٨ يونية سـنة ١٩٤١ السعى لاستقلالهما واتخاذ معاهدتى سنة ١٩٣٦ كاسـاس . ولكن المفاوضـات طال أمـدها وانقطعت فى خريف سنة ١٩٤٥ وعلى اثرها تدخلت بريطانيا ووقع اتفاقان بين فرنسا وبريطانيا مؤكدين فيهما عـلى الاسـتقلال وعـلى انسـحاب القوات الفرنسية والبريطانية الموجودة فى سوريا ولبنان ، الامر الذى تم فى أبريل سنة ١٩٤٦ بالنسبة لسوريا ، وفى نهاية العام بالنسبة للبنان ولكن لم ينتج عن نهاية الانتداب توقيع أى معاهدة خاصة مع فرنسا .

الانتداب على فلسطين :

وهو ما تخلف عنه حتى الوقت الحاضر المشكلة التى عانى منهـا العالم العربى لاكثر مـن أربعين عاما الا وهى مشكلة فلسطين وتشريـد الفلسطينيين من موطنهم ليصبحوا لاجئين فى العديد من الدول العربية وقد جرت مشكلة فلسطين معها بقية الدول العربية وظلت الحرب قائمـة بينها وبين اسرائيل التى ودلت من نظام الانتداب على فلسطين وسياسة بريطانيا فى ظله . فالمشكلة لم تنتج من وجـود اليهود والعرب فى فلسطين ، ولكن مـع وجـود العديـد من التصريحـات المتناقضـة للطرفين من جـانب بريطانيا على وجـه الخصوص وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى . ففى الوقت الـذى وعـد فيه سـير هنـرى ماكمـاهون رئيس وزراء بريطانيا

الشريف حسين بتحقيق ايجاد جماعة عربيــة سياسية كبيرة على امتداد الشرق الأوسط فى مجموعه ، وعـــد فيــه اليهــود وفقــا لتصريح بلفور Balfour فى ٢ نوفمبر ســنة ١٩١٧ بوطن قومى لهم فى فلسطين (لــم يوعدوا بفلسطين وطنا قوميا ولكن بوطن قومى لليهود فى فلسطين) (١) . وتصريح بلفور هــذا انضمت اليه فرنســـا وايطــاليا وادمج فى ميثــاق الانتداب وخاصة فى ديباجته .

وقد نشأت المشكلة من هجرة اليهود لفلسطين تحقيقا للوطن القومى المنشود والموعــود ، وعند قيام الحرب العالمية الثانيــة كان عدد اليهود محدودا للغاية فى فلسطين ، فلم يزد عن ٦٠ الفا بحيث أن عددهم كــان أقل من المسيحيين بها الذى كان عددهم ٧٠ الفا بينما بلغ عدد العرب من المسلمين ١٠ أضعاف عدد اليهود أى نحو ٥٥٠ الفا (٢) .

وقد عملت السياسة البريطانية على السماح ان لم يكن على تفضيل وتشجيع هجرة اليهود لفلسطين وان كان تشرشل قد أوضح فى سنة ١٩٢٢ بأن « فلسطين لن تتحول الى وطن قومى يهودى ، ولكن سينشأ الوطن القومى اليهودى فى فلسطين » وقد رأى ميثاق الانتداب فى مادة / ٤ منه الاعتراف بجهاز أو كيان يهودى لــه صفة استشارية الى جوار السلطات المنتدبة . كما نص فى مــادة / ٦ على دوره فى شئون الهجرة : وبالتالى فقد انشأت المنظمة الصهيونية على هذا الأساس فى سنة ١٩٢٩ « الوكالة اليهودية » وقامت العديد من المؤسسات المالية المختلفــة بشراء الأراضى حتى تحقق الهجرة وازداد العدد باطراد وبلغ سنة ١٩٣٦ نحــو ٤٠٠ الف وتضخمت تل أبيب من الفى ساكن الى مدينة من ١٥٠ الفا . ولم تفلح جهود بريطانيا التى لم تكن جادة فى خلق أجهزة مشتركة وحدثت

---

(١) انظر نص التصريح والتعليق عليه فى :
« The Balfour Declation on Palestine, 1917 » in Snyder, op. cit., pp. 375-6.

(٢) انظر : Colliard, op. cit., p. 168.

اضطرابات بين الطرفين خاصة فى سنة ١٩٢٩ عند حائط المبكى ثم فى سنة ١٩٣٦ .

وأمام استحالة اقامة دولة ذات قوميتين (ازدواج قومى) فى فلسطين فقد تبلورت خطط التقسيم بواسطة بريطانيا منذ سنة ١٩٣٦ وقدمت للجنة الانتداب ، وقبل الحرب مباشرة اتخذت بريطانيا عدة خطوات للحد من الهجرة الى حد كبير ، ثم اخذت الجماعات اليهودية تستخدم سياسة العنف والارهاب فى سنة ١٩٤٥ . وبعد فشل مؤتمر لندن فى يناير ١٩٤٧ فيما يتعلق بخطة التقسيم طلبت بريطانيا من الأمم المتحدة أدراج مسألة فلسطين فى جدول اعمال الدورة التابعة للجمعية العامة ، وقد قررت المملكة المتحدة فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ الجلاء عن الاقليم ورحلت القوات البريطانية فعلا فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . وكانت الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قد قررت تنفيذ خطة لتقسيم فلسطين ثم نشأت دولة اسرائيل وانضمت للأمم المتحدة فى مايو سنة ١٩٤٩ . وهكذا انتهى الانتداب فى اطار من الاضطرابات والمشاكل وفى اطار حرب فعلية بين دول الجامعة العربية وبين المنظمات اليهودية فى فلسطين ثم دولة اسرائيل ، وقد تفاقم الأمر بمقتل وسيط الأمم المتحدة كونت برنادوت وتم عقد هدنة سنة ١٩٤٩ فى ظل جهود الأمم المتحدة . وبالتالى فالانتقال من الانتداب للاستقلال فى فلسطين تم بظروف غير عادية ولطائفة من المواطنين دون الأغلبية وفى اطار العنف والاضطرابات ، وقد ضم الأردن منطقة الضفة الغربية التى اعتبرت فلسطين المسلمة فى سنة ١٩٥٠ ، كما تردد الرأى بتدويل القدس والأماكن المقدسة ، ولكن الأمر لم يتحقق واتخذت اسرائيل بعد سنة ١٩٦٧ القدس عاصمة لها .

وهكذا انتهى انتداب أ وهى اكثر المناطق تقدما .

اما عن انتداب ب ، ج : فقد مر بتطور مخالف ، وتحولت معظم هذه الاقاليم فى ظل الاشراف الدولى ولكن من نظام الانتداب الذى انتهى

قانونا بانتهاء العصبة الى نظام الوصاية ، خليفته ، والذى نشأ فى ظل الأمم المتحدة ويختلف عنه فى الجوهر والتطبيق .

ونظام الانتداب كما طبق لم يخرج كثيرا خاصة فى النوعين الأخيرين عن أن يكون استعمارا مقنعا - وهو يختلف فى هذا كثيرا عن نظام الوصاية .

ثانيا : نظام الوصاية الدولى :

ونظام الوصاية « Trusteeship Ststem » يعنينا بحثه لعدة أسباب مع أننا لا نذهب الى القول كما يرى البعض (١) بانه نظام استعمارى حيث انه من حيث النظرية والممارسة يعتبر نظام اشراف دولى فعال وذلك :

- حتى يتضح الفارق بينه وبين نظام الانتداب وتوضيح كيف يمكن الجزم بأن نظام الانتداب نظام استعمارى على خلاف نظام الوصاية .

- من حيث أن غالبية الدول التى كانت تحت الانتداب فى مجموعة ب ، ج قد مرت بنظام الوصاية كمرحلة انتقالية من الانتداب الذى لم يأخذ بيدها واعتبرها بمثابة مستعمرات للدول المنتدبة الى الاستقلال بجهود الأمم المتحدة فى ظل نظام الوصاية .

- ان نظام الوصاية عامة وان كان لا يعتبر نوعا أو نمطا من

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٩ - ١٨٢ .

ولمزيد من المعلومات عن نظام الوصاية انظر من المراجع الأساسية :

James M. Murray, Jr., The United Nations Trusteeship System Urbana, Illinois : The University of Illinois Press, 1957. & Inis L. Claude, Jr., Power & International Relations, New York : Random House, 1962 & Inis Claude, Jr., Swords Into Plowshares : The Problems & Progress of International Organization, New York : Random House. 1964 & Stephen S. Goodspeed, The Nature & Function of International Organization, New York : Oxford Nniv. Press, 1968.

الاستعمار الا أن تطبيقه على المناطق الاستراتيجية يجعله الى حد كبير نوعا من الاستعمار لتلك المناطق ولكن فى اطار دولى مشروع .

وقد جاء نظام الوصاية الذى نص عليه فى الفصل ١٢ من ميثاق الأمم المتحدة وفقا لما تصوره الرئيس روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية .

كما اعتبر نظام الوصاية وبكل وضوح وفقا للمادة / ٧٦ نظاما مؤقتا انتقاليا للأخذ بيد المناطق الموضوعة فى ظله للاستقلال وادارة نفسها بنفسها .

فنظام الوصاية ألقى على عاتق الدول القائمة بالوصاية مسئولية تنمية الأقاليم الموضوعة فى ظله سياسيا واقتصاديا واجتماعيا والأخذ بيدها للاستقلال ، وكذلك تطور التعليم وتشجيع احترام حقوق الانسان والحريات الرئيسية دون التفرقة بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ، وتنمية الشعور بتكافل شعوب العالم واعتمادها على بعضها بعضا . ولكن من الملاحظ أنه لم ينص فى نظام الوصاية على نظام نزع السلاح المنصوص عليه فى الانتداب .

ونظام الوصاية يمكن تطبيقه وفقا للمادة / ٧٧ من ميثاق الأمم المتحدة بموجب اتفاقات الوصاية على ٣ فئات من الأقاليم :

الفئة الأولى : الأقاليم التى تحت الانتداب وقت قيام الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ .

الفئة الثانية : الأقاليم التى أمكن اقتطاعها من الدول الأعداء على اثر الحرب العالمية الثانية .

الفئة الثالثة : الأقاليم التى تضعها اختياريا تحت نظام الوصاية الدول المسئولة عن ادارتها .

هذا ولم تطبق هذه الفئة الثالثة حتى الآن حيث لم تضع أية دولة مسئولة عن ادارة اقليم هذا الاقليم فى ظل نظام الوصاية - وان كان قد فتح الباب أمام ذلك لأى دولة اختياريا ٠

فلم يقصد بنظام الوصاية أن يكون بديلا للاستعمار فى كافة صوره ، وقد أوضح هذا بما لا يدع مجالا للشك قرار من الجمعية العامة فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٧ اكد على ان نظام الوصاية لم يطبق على كافة الأقاليم غير المستقلة بحكم القانون ، أى أنه رهن بموافقة الدولة القائمة بالادارة أو الاستعمار ٠

أما الفئة الثانية ، فلم تطبق الا على اقليم واحد وهو الصومال الذى كان مستعمرة ايطالية (١) حيث أعطيت الوصاية لايطاليا على الاقليم بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية وذلك لمدة ١٠ أعوام وفقا لاتفاق الوصاية فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ على الرغم من أن ايطاليا لم تكن بعد عضوا فى الأمم المتحدة (٢) ٠

أما عن الفئة الأولى فقد ضمت كافة الأقاليم التى كانت تحت انتداب ب وكافة المناطق التى كانت تحت انتداب جـ فيما عدا اقليم جنوب غرب أفريقيا وفقا لما سنوضحه ٠

فغالبية المناطق التى طبق عليها نظام الوصاية هى تلك التى سبق ان طبق عليها نظام الانتداب فى فئتيه ب ، جـ ٠

فقد تولت فرنسا الوصاية على جزء من توجو والكاميرون ٠ كما

---

(١) اما عن بقية المستعمرات الايطالية فقد استقلت ليبيا فى ١٩٥١ اما ارتيريا فقد ضمت لاثيوبيا فى ظل نظام فيدرالى وما لبثت أثيوبيا ان اعتبرته جزءا لا يتجزأ منها ومازال الصراع المسلح دائرا به فى محاولة من الاقليم للاستقلال ٠ وان نشطت بعض الدول وعلى رأسها مصر عام ١٩٨٩ فى السعى لايجاد حل للمشكلة ٠

(٢) لمزيد من المعلومات عن الصومال فى ظل نظام الوصاية انظر :
حورية توفيق مجاهد ، الصومال فى المحيط الدولى ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية التجارة جامعة القاهرة ، سنة ١٩٦١ ٠

تولت المملكة المتحدة الوصاية على بقية توجو والكاميرون ، وتنجانيقا . وتولت بلجيكا الوصاية على رواندا - اوروندى وتولت استراليا الوصاية على غينيا الجديدة ، كما تولت نيوزيلندا الوصاية على ساموا .

اما الولايات المتحدة الأمريكية فقد قامت بالوصاية الاستراتيجية على جزر المحيط الهادى (ماريان ومارشال وكارولين) كما تولت المملكة المتحدة واستراليا ونيوزيلندا الوصاية على نورو .

وبالنسبة لجنوب غرب افريقيا فهو الاقليم الوحيد الموضوع تحت الانتداب فى سنة ١٩٤٥ ولم يوضع فى ظل نظام الوصاية . ففى هذا الاقليم سعت الدولة المنتدبة وهى جنوب افريقيا الى المحافظة على الوضع القائم فى ظل الانتداب - أى تخليد نظام الانتداب فى تطبيقه عليه مع انه كنظام قد انتهى بانتهاء المنظمة التى وجد فى ظلها وهى عصبة الأمم بنهاية الحرب العالمية الثانية . اذ رفضت جنوب افريقيا باصرار وضعه فى ظل الوصاية . وقد أبدت محكمة العدل الدولية رأيها الاستشارى فى ١١ يوليو سنة ١٩٥٠ مؤكدة أن نظام الوصاية لا ينطبق اجباريا على جنوب غرب افريقيا وأن هذا الاقليم يظل دائما فى ظل نظام الانتداب وان مسئوليات الانتداب تقع على عاتق جنوب افريقيا . . وأكدت على أنه لا يوجد أى التزام قانونى على حكومة جنوب افريقيا لتحويل الانتداب الى الوصاية . ولكن استمرار الانتداب أثار مشكلة الرقابة الدولية عليه حيث انتهت الأجهزة التى انشأت لذلك - لجنة الانتدابات ومجلس العصبة - وذلك بانتهاء العصبة .

ولكن اساءة استخدام جنوب افريقيا للاقاليم واتباعها نظام الابارتهيد فيه - التفرقة العنصرية - أسوة بما تتبعه داخليا ، أدى الى اثارة الرأى العام خاصة من جانب الدول الأفرو - آسيوية فكان أن اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٦٦ تقدمت به ٥٤ دولة أفرو آسيوية ، وذلك بأغلبية ١١٤ صوتا ضد ٢ وامتناع ٣ عن التصويت وينص على أن جنوب افريقيا فشل فى التزاماته وواجباته وقررت

أن الانتداب قد انتهى وأن جنوب غرب افريقيا أصبح تحت مسئولية الأمم المتحدة وقد أنشات لجنة خاصة لتولى تحقيق ادارتها للاقليم · وأعلنت المنظمة أن جنوب غرب افريقيا أصبح ناميبيا · ولكن جنوب افريقيا مازالت تمارس سيطرتها عليه ، ولم تفلح بعد جهود الأمم المتحدة فى تحرير الاقليم · وان كان قد تم الاتفاق فى ديسمبر ١٩٨٨ على منحه الاستقلال فى ابريل ١٩٩٠ فى مقابل انسحاب القوات الكوبية من انجولا على مراحل ·

ولقد وضع ميثاق الأمم المتحدة عدة ضوابط لضمان نجاح الاشراف الدولى فى ظل نظام الوصاية · فقد أنشىء مجلس الوصاية كجهاز مستقل على قدم المساواة مع الأجهزة الرئيسية الأخرى (١) فى المنظمة · كما شكل هذا المجلس بطريقة تضمن المساواة العددية بين الدول المشرفة على أقاليم تحت الوصاية ، سواء أكانت كبرى أو غيرها ، وغير المشرفة (متضمنة الدول الكبرى غير المشرفة) وذلك ضمانا لفاعلية الاشراف وعدم ترك المجلس تماما بيد الدول المشرفة أو الكبرى وحدها ·

فضلا عن هذا فقد الزمت الدولة القائمة بالاشراف على تقديم تقرير سنوى عن تقدم الاقليم من نواحيه المختلفة نحو الاستقلال ، ونظمت الزيارات الدورية للاقاليم من جانب مجلس الوصاية ، كما يشجع المجلس أيضا تلقى الدعاوى والشكاوى والعرائض من الأقاليم الموضوعة تحت الوصاية ·

ويبدو واضحا من كل ما سبق الفارق بين نظام الانتداب - كاستعمار مقنع - ونظام الوصاية كنظام اشراف دولى فعال ، وتبدو فاعليته بوضوح من أن غالبية المناطق الموضوعة فى ظله قد حصلت على استقلالها كما يتضح من ملحق (١) ·

---

(١) وهى الجمعية العامة ، مجلس الأمن ، المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، الامانة العامة ، ومحكمة العدل الدولية ·

الفصل الرابع

تطـــور الاستعمـــــار

قد لا نستطيع تحديد متى بدأ الاستعمار وكيف تطور فى العصـــور الغابرة ، ولكن ما يمكننا تاكيده هـو انه قديم قدم الجماعات الانسانية وليس فقط الجماعات السياسية المنظمة أو شبه المنظمة · ويمكننا القول انه طالمـا يوجـد قـوى وضـعيف فـانه كثيرا مـا يلتجىء الاقـوى الى السيطرة على الأضعف تحقيقا لمصالحه ، وينطبق هـذا على الأفراد فى علاقاتهم مع بعضهم البعض ، وفى علاقاتهم مع غيرهم من المخلوقات ، كما ينطبق على الجماعات السياسية حتى قبل قيام الدولة بمفهومها الحديث والتى أصبحت وريثة دولة المدينة ، والقبيلة ، والامـارة الاقطـاعية ، والامبراطورية القديمـــة · وغنى عن الذكر أن أكبر امبراطوريتين فى التاريخ وهما امبراطورية الاسكندر والامبراطورية المغوليـة ـ جاءتا قبل العصور الحديثة وما ارتبط بها من انتشار المد الاستعمارى ·

وقد مر الاستعمار فى تاريخه الحديث باتجاهات هامة يمكن تلخيصه فى ثلاثة مراحل أساسية (١) : أخذ الاستعمار فى المرحلتين الأوليين شـكل المد ، ثم انقلب الى الجزر فى المرحلة الأخيرة ·

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر :

Norman J. Padelford & George A, Lincoln, International Politics : Foundations of International Relations, New York : The MacMillan Co., 1954, pp. 238-244.

انظر أيضا : هارى ماجدوف ، الامبريالية : من عصر الاستعمار حتى اليوم ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ـ ٨٣ و ١٠٠ ـ ١١٧ ·

ومن المراجع العربية انظر : د · جمال حمـدان ، مرجـع سابق ، ص ١٣ ـ ٢١٤ ·

المبحث الأول : المـد الاستعمارى :

المرحلة الأولى :

تشمل الفترة من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر : وأهم ما يميز هذه الفترة التى تعرف بعصر الاستكشافات هـو أن الأوروبيين عامة عملوا على استكشاف باقى أنحاء المعمورة وكان المحرك الرئيسى هو الانقلاب التجارى . ومع هـذا الاستكشاف بـدأ ظهـور بوادر امتـداد القوة الاوروبية الى الامريكتين وآسيا وجزر المحيط الهادى حيث تبلورت بوضوح أهمية المحيط كعامل ربط بين أنحاء العالم . وفى هـــذا العصر كانت الدول الاوروبية الحديثة مثل البرتغال واسبانيا وهولندا وفرنسـا وانجلترا هى التى قامت بتأسيس مستعمراتها الأولى فى الانحاء الأخرى من العالم بعد اكتشافها حيث لعب الاستعمار الاستيطانى دورا محوريا .

وقد وصلت هذه المرحلة الى قمتها أثناء الثورتين الفرنسية والأمريكية وعلى مدى قرن من الزمان بعدها . وبعد هاتين الثورتين وخاصة الثورة الفرنسية اهتمت معظم الدول الاوروبيـة بمشـاكلها وبمـا تحت يـدها من مستعمرات ، فلم يشهد هـذا العصر توسعات جديدة . وفى هـــذه الفترة حـدثت أول حركـات تحررية فى المستعمرات ، وذلك بانفصـال المستعمرات الثلاث عشرة فى أمريكا الشمالية عـن انجلترا ومـا لبثت ان تبعتها مستعمرات اسبانيا فى أمريكا اللاتينية .

وقد تبعت فترة وصول الاستعمار الى قمته فى المرحلة الاولى فتـرة تعرف باسم القـارية ، بمعنى محـاولة بعض الدول التوسع فى القـــارة نفسها وليس الامتداد خارجها . وأهم مظاهر هذه القارية فى أوربا هـو التوسعات النابليونيـة فى فرنســا بغرض تكوين امبراطورية تمتد مـن اسبانيا الى موسكو ومن بحر الشمال الى مصر . ولكن هذه الامبراطورية لم تدم طويلا وان كانت قد أخذت مجهودا من بقية الدول الأوروبية للقضاء

عنيها وعلى هذه القارية التى مثلتها والعودة الى سياسة توازن القوى السابقة ٠

ومن مظاهر القارية ايضا توسع الولايات المتحدة الأمريكية الى الغرب على حساب المناطق التى كانت مستعمرة من دول أوروبية أخرى وذلك فى الفترة من حرب الاستقلال عام ١٧٨٣ وحتى منتصف القرن التاسع عشر حيث وصلت الى حدودها الحالية (١) ٠ ولم تستطع فى الواقع أن تقر الحكم الا بعد الابادة شبه الجماعية للمواطنين الأصليين وهم الهنود الحمر ٠ وفى هذا الوقت ايضا كانت هناك توسعات روسيا القيصرية التى مثلت فكرة القارية فى أوراشيا حيث بدأت تتوسع وتزداد الى سيبيريا شمالا ووسط آسيا حتى الشاطىء الغربى للمحيط الهادى شرقا ، أما جنوبا فقد توسعت الى حدود ايران والى جبال الهملايا (٢) ٠

المرحلة الثانية :

بدأت المرحلة الجديدة للاستعمار - ويطلق عليها الكثيرون مرحلة « الامبريالية الجديدة » فى أواخر القرن التاسع عشر واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية واختلفت اشكالها وكان المحرك الرئيسى لها هو الانقلاب الصناعى ، وفى هذه المرحلة انضمت الى الدول الاستعمارية القديمة دول جديدة هى المانيا وايطاليا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان والاتحاد السوفيتى ٠

---

(١) وقد تم التوسع بصفة عامة عن طريق الشراء : حيث قامت بشراء لويزيانا من فرنسا ، أو عن طريق الاستيلاء حيث استولت على فلوريدا من اسبانيا ، وعلى تكساس من المكسيك ، كما انتهى بها الحال على الحصول على أوريجون بعد صراع مع كندا وتمت تسوية الحدود بينهما ، واستولت على كاليفورنيا من المكسيك وسوت حدودها مع شراء قطع أخرى صغيرة ٠ ماجدوف : الامبريالية من عصر الاستعمار ، مرجع سابق ص ١٤٩ - ١٥٠ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ - ١٠٠ ٠

ففى الفترة الأولى من هذه المرحلة - ١٨٧٠ الى ١٩٣٠ - وكان المسرح الأساسى للاستعمار هــو افريقيا وآسـيا حيث اسـتعمرت افريقيا كلهـا (وكان لبريطانيا وفرنســا نصـيب الأسـد) وكذلك جنـوب شرق آسيا وجزر المحيط الهادى (١) . وقد تميز القرن التاسع عشر بالانقلاب الصناعى الذى تمخضت عنه السيادة العالمية لبريطانيا التى استطاعت ان تفرض « السلام البريطانى » « Pax Britannica » وقــد غطت امبراطوريتهـا المترامية فى كافة أنحاء العالم نحـو ربع مساحة اليابسة (أى اكثر مـن ١٣ مليون ميل مربع) ، كما ضمت نحو ثلث سكان العالم (أى نحـو بليون نسمة) (٢) .

ويمكن القول باختصار أنه عند الحرب العالمية الأولى كانت كافـة مناطق العالم غير المستقلة قد قسمت بـين الدول الاسـتعمارية المختلفـة سواء فى المرحلة الاولى أو فى ظل المرحلة التى تليها . وبعـد الحــرب العالمية الاولى وبهزيمة المانيا وتركيا على يد الحلفاء أجبرتا على التخلى عن ممتلكاتهما التى وزعت كأسلاب على بقية الدول المنتصرة ، وذلك فى ظل نظام الانتداب كما سبق توضيحه .

أما الفترة الثانية من المرحلة الثانية وهى من ١٩٣٠ الى ١٩٤٥ فانها تعتبر بمثابة الموجـة الثانية للاستعمار . والتى جاءت على وجه الخصوص فى أواخر الثلاثينيات وتحركت الدول الاستعمارية سريعا خاصة بعـد أن وقفت عصبة الأمم عاجزة عن اتخاذ أى عمل ايجابى . فقد قامت اليابان بالعمل على تحقيق مشروع امبراطورية كبـرى فى شرق آسيا تمتد مـن منشوريا والصين الى الملايو وبورمـا والفليبين واندونيسيا . أما ايطاليا

(١) مثلا حصلت ألمانيا على مناطق فى افريقيا هى جنوب غرب افريقيا ، وتنجانيقا وتوجو والكاميرون ورواندا - أوروندى . كما حصلت ايطاليا على بعض المناطق الافريقية وهى الصومال الايطالى وارتيريا وليبيا أما اليابان فقد ضمت كوريا وفورموزا وبعض الجزر القريبة منها . وأخيرا قامت الولايات المتحدة الامريكية باستعمار ساموا وجزر هاواى والفليبين وبعض الجزر الصغيرة .
(٢) انظر د . جمال حمدان ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

فقد غزت اثيوبيا سنة ١٩٣٦ واعلن ملك ايطاليا نفسه امبراطورا على الحبشة أيضا . كما حاولت ايطاليا الاستيلاء على تونس واليونان .

لكن أهم التوسعات فى هذه الفترة كانت هى التوسعات الهتلرية فى المانيا التى هدفت الى تعديل الوضع القائم فى أوروبا بل حاولت قلبه تماما ، ليس فقط فى أوروبا بل فى افريقيا والشرق الاقصى . وهدفت الى انشاء توازن قوى وحدوى على نمط الامبراطورية الرومانية . ولكن بهزيمتها فى الحرب العالمية الثانية انتزعت منها أراض كثيرة وأصبحت المانيا اصغر مما كانت عليه قبل تلك الحرب ، وقسمت الى جزءين : المانيا الغربية والمانيا الشرقية مع تقسيم عاصمتها برلين أيضا . اما ايطاليا فبهزيمتها فقدت كافة مستعمراتها فيما وراء البحار غير ان الصومال قد وضعت تحت وصايتها لمدة ١٠ سنوات حتى استقلت . اما اليابان فقد اخذت منها كافة مستعمراتها وكافة الأراضى التى سيطرت عليها ومنها كوريا وفورموزا وجزر المحيط الهادى التى كانت تحت انتدابها . وقد شهدت السنوات الأخيرة من هذه المرحلة وفى نهاية وأثناء الحرب العالمية الثانية بعض التحركات الاستعمارية المعاصرة أظهرها النشاط السوفيتى الشيوعى . ففى سنة ١٩٤٥ أخذ الاتحاد السوفيتى أراضى من رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والمانيا وفنلندا ، وكذلك من الصين واليابان ، فضلا عن الاستفادة من وجود قواته أثناء الحرب فى أوروبا الشرقية والعمل على تشجيع الأحزاب الشيوعية بها وخلق حكومات عميلة له بما يضمن دوران تلك الدول فى فلكه بعد الحرب . وبعبارة أخرى عمل الاتحاد السوفيتى ، الذى كان من دول الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، على تعديل حدوده بما يتمشى مع صالحه فى الأراضى والمناطق التى توغلت فيها جيوشه فى الحرب العالمية الثانية . وقام الاتحاد السوفيتى بضم استونيا وليتوانيا ولاتفيا فى منطقة البلطيق .

المبحث الثانى : الجزر الاستعمارى : تصفية الاستعمار :

وتمثل هذه الحلقة الثالثة والأخيرة من تطور الاستعمار وهى تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى الآن . وأهم ما يميزها هو تصفية الاستعمار «Decolonisation» فى أنماطه المختلفة التى عرفها . وذلك بظهور الحركات القومية التحررية فى الدول الآسيوية والافريقية وما تبعها من القضاء على الاستعمار تباعا وظهور الدول حديثة الاستقلال فى آسيا وافريقيا على وجه الخصوص بعد انتشار روح القومية فى هذه المناطق وانتشار الرأى العالمى ضد فكرة الاستعمار فى أشكاله القديمة .

ففى الوقت الذى راى فيه الكثيرون أن اهم ما يميز التاريخ الاستعمارى هو السرعة الكبيرة التى تمت بها السيطرة الاستعمارية والمد الاستعمارى فى القرن التاسع عشر وخاصة فى ربعه الاخير ، فانه لا خلاف على أن أهم ما ميز الظاهرة الاستعمارية هو السرعة الكبيرة التى تمت بها تصفية الاستعمار فى شكله التقليدى ، وذلك بصورة لم يشهدها التاريخ من قبل . ففى حين كان عدد الدول المؤسسة للامم المتحدة سنة ١٩٤٥ (٥١) دولة نجد أن عدد الدول الأعضاء وصل الى ١٥٩ دولة فى أكتوبر ١٩٨٤ - أى بعدها بتسعة وثلاثين عاما فقط (١) . وهو ما يعنى أن عدد الدول الأعضاء فى المنظمة العالمية العامة (٢) تضاعف أكثر من ثلاث مرات فى تلك الفترة . ولكن نسبة زيادة الدول الافريقية بالذات هى التى تجذب

---

(١) انظر ملحق ١ ، ٢ . وقد ظل هذا العدد ثابتا حتى الآن (سبتمبر ١٩٨٩) .

(٢) الامم المتحدة لا تتبع العالمية المطلقة بل العالمية النسبية بمعنى انها لا تضم بالضرورة وبطريقة تلقائية حتمية كافة الدول فى العالم ، بل انها تضم الغالبية العظمى من دول العالم التى يشترط توافر عوامل موضوعية واجرائية لتصبح عضوا . وبالتالى فقد تكون هناك دول غير راغبة فى الانضمام : والمثل الذى يضرب فى هذا المجال هو سويسرا محافظة منها على حيادها القانونى ، أو دول راغبة فى الانضمام ولكنها غير قادرة عليه : وأهم الامثلة الصين الوطنية بعد طردها من الامم المتحدة واحلال الصين الشعبية محلها ، وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية . ولكن الامم المتحدة عامة اقتربت من العالمية المطلقة .

الانتباه وتعتبر جديرة بالملاحظة حيث أن عدد تلك الدول الذى الذى كان أربعا فقط عند تأسيس المنظمة - وهى أثيوبيا وليبيريا ومصر وجنوب افريقيا بما لمعظمها من وضع خاص - قد وصل سنة ١٩٨٤ الى ٥٢ دولة أى تضاعف ثلاث عشرة مرة بنسبة ١٣٠٠٪ فالنصف الثانى من القرن العشرين يمثل بحق مرحلة تصفية الاستعمار وانهيار الامبراطوريات الاستعمارية التى شملت العالم أجمع والتى تساقطت كما يعبر البعض كمجموعة من أوراق اللعب • ففى الحقبتين التاليتين للحرب العالمية الثانية طرأت تغيرات هيكلية على الامبراطوريات الكبرى وراء البحار وتغيرت خريطتها اذ تحرر نحو ثلث سكان العالم من الحكم الاستعمارى (١) ، حيث نجحت نحو ٤٠ دولة فى الحصول على استقلالها فى تلك الفترة المحدودة ثم لحقتها بقية الدول فى حركة تصفية الاستعمار •

وكما أن الاستعمار كظاهرة جذب انتباه المهتمين بدراسة العلاقات الدولية فان تصفية الاستعمار فى صوره المختلفة التقليدية تلقى الاهتمام الأكبر فى محاولة لتفسيرها وتحليل انعكاساتها • وهى وان ظهرت مؤشراتها منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى بعد ارساء الحكم الاستعمارى مباشرة الا أنها تبلورت فى ظل الحرب العالمية الأولى وما بعدها وكثفت لتصبح ظاهرة عامة بعد الحرب العالمية الثانية •

وقد أسهمت عدة عوامل فى تصفية الاستعمار بصرف النظر عن خصوصيات كل حالة على حدة • نذكر على رأسها : الحربين العالميتين الأولى والثانية ومبادىء ويلسون فى حق تقرير المصير ، والثورة فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩١٧ ونمو الحركة الشيوعية العالمية والثورة فى الصين سنة ١٩٤٩ ، واستقلال الهند بهدى من مبادىء غاندى فى الكفاح السلمى (الاحمسا) ، وجهود الأمم المتحدة فى مجال تصفية الاستعمار ، وحركة الوحدة الافريقية ، والثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ ، ومؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ ، ومنظمة تضامن الشعوب الأفرو آسيوية ، واستقلال غانا

---

(1) Tony Smith, « Anticolonial Nationalism and Western Responses» in Mack, Plant & Doyle, op. cit., p. 26.

سنة ١٩٥٧ ، وفشل الأساليب العسكرية فى القمع كما وضح فى الجزائر وتجربة فرنسا بها وفيتنام بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ومن قبلها فرنسا ، وتجربة البرتغال فى غينيا بيساو ، وموزمبيق وانجولا . فضلا عن نمو الوعى القومى وحركات التحرر نتيجة التحريك الاجتماعي . فتصفية الاستعمار فى دولة ينتج عنه أثر تراكمى ويساعد على انتقال الفكرة من دولة لأخرى بفعل عنصر التقليد والتاييد المعنوى والدفعة التى يحققها استقلال دولة مجاورة . فبداية الاستقلال عمل كمحرك لبقية الاستقلال .

والمهم هو نمو الرأى العام العالمى ضد الاستعمار : فقد تغير الرأى العام الداخلى والعالمى من تقبل الاستعمار الى رفضه . فاستهجان الاستعمار اصبح عاما وشاملا ، ولم تعد المهاجمة موجهة ضد اساءة استخدام السلطة فى بعض الحالات - كما حدث بالنسبة لدولة الكونغو الحرة واساءة الملك ليوبولد الثانى - ملك بلجيكا - سلطاته بها حيث ادارها كضيعة خاصة كما سبق توضيحه مما ادى الى تحرك الراى العام الداخلى والخارجى ضده .

وسنكتفى فى هذا المجال بتحليل أبعاد بعض هذه العوامل التى إسهمت فى تصفية الاستعمار .

اولا : اثر الحربين العالميتين (١) :

من الواضح للمحللين السياسيين والمراقبين أن الحرب العالمية الاولى أعطت لثورة الملونين الصدارة أو أسرعت بها . وقد اسهمت عدة عوامل فى ذلك على راسها : مبدأ الرئيس الامريكى ويلسون فى حق تقرير المصير الذى تضمنه عهد عصبة الامم ، وتبلور مفهوم الجامعة الاسلامية وجهود

(١) لمزيد من المعلومات انظر :
Rudolf Von Albertini, « The Impact of Two World Wars on the Decline of Colonialism», Colonialism & Decolonisation». Journal of Contemporary History, Vol, 4, Number 1, 1969, pp. 17-35.

جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى مصر فى حركة الاحياء الدينى وجهودهما فى مكافحة الاستعمار ، وبالاضافة الى الثورة الروسية . ويركز المراقبون الألمان على استخدام الحلفاء للقوات السوداء والملونة ضد البيضاء الأمر الذى اعتبروه جريمة .

وفى الواقع فان حركات التحرر الحديثة أخذت طريقها لآسيا والجزيرة العربية ومصر وبعض مناطق شمال افريقيا قبل الحرب العالمية الاولى ، ويبدو هذا بوضوح فيما حدث بالهند ، وجاوا ، والهند الصينية ، ومصر والجزائر . ولكن من الملاحظ أن الحرب نفسها لم تؤد الى الانتفاض ضد القوى الاستعمارية أو وضع مطالب راديكالية عليها على العكس فان المناطق المستعمرة عامة تعاونت مع الدول الاستعمارية ضد المانيا التى لم تفلح جهودها فى تحريك الشعوب الى جانبها وضد الدول الاستعمارية كما تعاونت معها ضد الامبراطورية العثمانية (١) . واثناء الحرب انسحبت القوات الاستعمارية من الهند والهند الصينية وشمال وغرب أفريقيا . كما فتح المجال من الهند الصينية الى غرب أفريقيا للتجنيد من الجنود الوطنيين . وفى خلال الحرب قدمت الهند ١ر٣ مليون محارب وعامل ، والهند الصينية ١٥٠ ألف ، والجزائر ٣٠٠ الف بينما قدمت أفريقيا الغربية الفرنسية ٢٠٠ الف شخص للحرب . وهذا التجنيد للعمل فى الجيوش الاستعمارية وان كان لم يلق مقاومة تذكر فى بادىء الامر الا انه أصبح تدريجيا يتم عن طريق القهر والاجبار مما أدى الى الانتفاضات ضده . ومن ناحية أخرى فقد قامت الدول الاستعمارية بتمييز المحاربين القدماء - متطوعى الحرب - وقامت بربطهم أكثر بها كجماعة مميزة . ومن ناحية ثالثة فان مئات الآلاف اقتلعوا فى ظل هذا التجنيد من مجتمعاتهم التقليدية والمحدودة كما ووجهوا بتجارب

(١) لمزيد من المعلومات انظر : بيترز ، مرجع سابق ، ص ٥٥ - ١٣١ .

واكتشافات جديدة تماما وأصبحوا مؤهلين اجتماعيا ونفسيا بدرجة كافية لتقبل الشعارات والصيحات التى ترفعها الطليعة من المثقفين الذين قادوا الحركات القومية . ومن المعروف أن التجنيد يعتبر من أهم عوامل التحضير والتحديث والتحريك الاجتماعى عامة .

فضلا عن أن التنازلات السياسية والاصلاحات التى نتجت عن الحرب العالمية الاولى ، وكمحاولة من جانب الدول الاستعمارية لكسب الولاء أثناء الحرب وللتحريك ضد الأعداء ، كانت لها آثارها كمؤشرات لبداية تصفية الاستعمار . وقد كان للحرب وظروفها تأثيرها على تقوية الحركات الوطنية والقومية ووصولها للجماهير . فقد تأثرت التجارة ، بل انها خربت فيما بين الدول المستعمرة ومستعمراتها كما نمت الصناعات الوطنية وزاد العمال وأصحاب الاجور زيادة كبيرة حادة كما تبلورت جزور النقابات العمالية . وارتفعت الاسعار وتبلورت العديد من المشكلات بعد الحرب . وقد وعدت انجلترا وفرنسا بالاصلاح وخاصة الاولى بنظرتها البرجماتية العملية ، ولكن لما لم يتم هذا بصورة مرضية فى معظم الحالات ازدادت صيحات الوطنيين وبدت واضحة آثار الحرب .

وبصفة عامة فان الحرب قد أدت من ناحية الى تدهور الدول الاوربية فى القوة والهيبة . ومن ناحية أخرى أدت الى تحلل امبراطوريات استعمارية وخروج دول استعمارية من عداد الاستعمار وذلك بتصفية ممتلكات كل من الامبراطورية العثمانية وألمانيا . ومن ناحية ثالثة نما الرأى العام الداخلى والخارجى ضد الاستعمار . وبدا هذا واضحا فى حق تقرير المصير ونظام الانتداب الذى كان حقيقة استعمارا مقنعا ، كما سبق توضيحه ، ولكن بصفة عامة فان مبدأ عدم اعادة ما اقتطع من الدول المنهزمة من مستعمرات الى حظيرة الاستعمار صراحة يعتبر سابقة وخطوة على سبيل تصفية الاستعمار .

أما بالنسبة للحرب العالمية الثانية فقد تركت آثارا بعيدة المدى ،

والبعض يشبهها بالحروب النابليونية وما خلفته من آثار على المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا (١) . فهذه الحرب كانت بالفعل عالمية كما كانت المناطق المستعمرة فى جنوب شرق آسيا مسرحا لعمليات حربية حاسمة ، ولكن الاهم هو أن فرنسا انهارت ، مع أن حكومة فيشى استطاعت أن تستمر فى السيطرة على بعض المراكز فى شمال أفريقيا والهند الصينية كما كسب ديجول أول سيطرة اقليمية فى أفريقيا الاستوائية - وقد استخدمت برازافيل فى الكونغو كمقر له ومنطقة ارتكاز للانطلاق . أى أن المستعمرات مثلت عمقا استراتيجيا للدولة الأم نفسها . أما بريطانيا العظمى فقد هزمت هزيمة شديدة فى سنغافورة ، وفى مجال السياسة الدولية فان سقوط هذا الحصن فى جنوب شرق آسيا لم يفتح فقط الطريق لليابان لاحتلال كل المنطقة ولكن يعتبر رمزيا قد بشر بانهيار النظام الاستعمارى ككل وكشف سر تدهور بريطانيا كقوة بحرية عالمية .

ولقد أسهمت الحرب العالمية الثانية وحدها بانعكاساتها السياسية والاجتماعية فى دفع عملية تصفية الاستعمار وقد بدا ذلك واضحا بالنسبة لجنوب شرق آسيا حيث خلق الاحتلال اليابانى لها ظروفا جديدة تماما . فبينما أضعفت الادارة الاستعمارية فى شمال وغرب أفريقيا وكذلك فى الهند وسيلان الا أنها استطاعت أن تستمر ، اما فى جنوب شرق آسيا فقد دمرت تماما وكان لهذا صداه القوى . وفى الواقع فانه من ١٩٤٠ - ١٩٤٥ قطعت كل من فرنسا ، وبلجيكا ، وهولندا عن مستعمراتها . واحتلت اليابان كل الممتلكات الأوربية فى الشرق حتى حدود الهند وشمال غينيا الجديدة . وقد رحب الكثير من الوطنيين باليابانيين كمحررين . وعمل اليابانيون أثناء احتلالهم لتلك المناطق على تشجيع المطالب الوطنية مما قوى التصميم على حق تقرير المصير . كما وجهوا

(1) D. K. Fieldhouse, « Decolonisation ». in Mack, Plant & Doyle, op. cit., pp. 40-53.

جزءا من جهودهم فى الحرب على التركيز على مفهومهم عن المشاركة فى الازدهار مع تكثيف حملات الدعاية المعادية للغرب والبيض . وقد أحل اليابانيون اللغات القومية فى الهند الصينية محل اللغات الأوربية . ومن الملاحظ أن شعارات العداء للاستعمار كانت متبادلة بين اليابان والحلفاء والمستفيد الأخير هو الحركات الوطنية . كما شجعت اليابان التدريب العسكرى وأنشأت قوات عسكرية وطنية فى بورما والملايو والهند الصينية وبالتالى فان القوميين وجدوا تحت أيديهم أداة للقوة موجودة بالفعل لتستخدم فى مواجهة الدول الاستعمارية عند عودتها . كما انتقلت زعامة الحركات الى الجماعات الراديكالية التى كانت قبل الحرب مقيدة بل مشلولة نتيجة العمل البوليسى أو كانت تمثل أقلية غير ذات اهمية (١) ، وبعد اعادة أحتلال قوات الحلفاء لهذه المستعمرات سنة ١٩٤٥ وجدت فرنسا وهولندا استحالة أن تعيد من جديد اقامة حكم استعمارى كامل . وحتى فى بورما وجدت بريطانيا أن الرغبة فى الاستقلال قوية جدا ، وبالتالى تنازلت عنها سنة ١٩٤٨ . وباختصار فان الاحتلال اليابانى قضى على الأسس الضعيفة للسلطة الأوربية فى جنوب شرق آسيا . وقد كانت انجلترا بحكم نظرتها البراجماتية وتأثرا برؤية لورد مونباتن (٢) المنادى بوضع جديد تماما ، سباقة فى هجر فكرة استعادة امبراطوريتها بالقوة على عكس هولندا وفرنسا اللتين قررتا المحاولة ولكن دون نجاح فى النهاية .

أما فى أفريقيا فمع ان الادارات الاستعمارية استمرت ورغم ما اكتسبته مستعمرات غرب أفريقيا من أهمية متزايدة اثناء الحرب الا ان الحرب تركت أيضا آثارها ولكن بطريقة مختلفة . فقد قامت حكومة كل من فيشى وفرنسا الحرة بقيادة ديجول بتشجيع انتاج السلع التصديرية

---

(1) Albertini, op. cit., pp. 29-31.

(٢) وكان حاكما للهند وله صلة قرابة بالاسرة المالكة .

من أجل المزيد من النقد الاجنبى ، وبالتالى فان استخدام الزراعة الاجبارية والعمل الاجبارى أدى الى تفاقم ازمة الثقة وعدم الاستقرار مما سهل بعد ذلك من مهمة الزعماء القوميين فى تحريك الجماهير . كما أن ارتفاع الاسعار خاصة فى المدن زاد من الاستياء . كما ارتفعت الاسعار أيضا فى غرب افريقيا البريطانية - على الرغم من ازدياد أسعار الصادرات ، وبالتالى ازدياد ثراء الزراع الافريقيين والوسطاء ورجال الاعمال عامة - مما أدى الى ازدياد عدم الرضاء وبدا هذا فى شكل اضرابات واضطرابات . فضلا عن أن المستعمرات فى غرب أفريقيا استخدمت كمحطات تموين أساسية للقوات الانجليزية والامريكية فى شمال أفريقيا بما صحب هذا من تحريك اجتماعى وبما يعيد للاذهان استخدام مصر كمخزن عسكرى اثناء الحرب العالمية الاولى وما أسهمه من عوامل اسرعت بالتحرير .

وباختصار يمكن القول أن الحرب العالمية الأولى وان أدت الى تدهور هيبة الدول الأوربية وخروج بعض الدول الاستعمارية من مجال الاستعمار مع ترك بصماتها فى التحريك الاجتماعى خاصة فى بعض مناطق آسيا وشمال أفريقيا ، وبعض الدول العربية ، الا أن الحرب العالمية الثانية قضت على هيبة ومكانة الدول الأوربية واسهمت فى القضاء على امبراطورياتها وكثفت من التحريك الاجتماعى عامة . فالدول الاستعمارية اما هزمت تماما فى الحرب - وهى دول المحور وان كانت المانيا قد فقدت مستعمراتها فيما وراء البحار بعد هزيمتها من قبل فى الحرب العالمية الأولى - أو هزمت بالفعل ولكنها أعتبرت منتصرة لانتصار حلفائها - ونذكر على وجه الخصوص فرنسا (التى انهارت اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا) ، وبلجيكا وهولندا ، أو انتصرت عسكريا الى حد كبير وان تدهورت اقتصاديا وهى بريطانيا . وبالتالى فان انهيار أو تدهور الدول

الأوربيــة الاستعمارية نظر اليه على أنه فشــل « لمهمة الهية » وعــلى أيــة حــال فقــد هــدمت نظريات الأبويــة التى طالمــا رفعتها الــدول الاستعمارية . فمن أهم آثار الحرب العــالمية الثانيــة أنها جاءت بتغيير جوهرى فى النظرة الأوربية للامبراطورية وأضعفت الارادة فى السيطرة . فمن ناحية افقدت الحرب فى الواقع تلك الدول الثقة بنفسها ، ومن ناحية أخرى فقد نظر للتوســعات الايطــالية والالمــانية واليابانية قبل ١٩٣٩ على انها غير أخلاقية . كمــا ان استعمار المانيا فى اوروبا اثار الرعب ومازالت له أبعــاده النفســية حتى الوقت الحالى . فضــلا عن أنه قــد ظهرت مثاليات وقت الحروب وظهرت على أثرها الرغبة فى بداية عهــد جديد ، كما اتضح من رؤية الولايــات المتحدة لميثــاق الاطلنطى وتاكيد الرئيس روزفلت على تعميم حق تقرير المصير بالنسبة لجميع المستعمرات ، بدلا من رأى تشرشل فى أن يطبق فقط عــلى شــعوب اوروبا المحررة من المحور .

ثانيا : جهود الأمم المتحدة :

واذا كانت عصبة الأمم قد نصت صراحــــة على حق تقرير المصــير وفقا لمبادىء الرئيس الأمريكى ويلســون الأربعة عشر التى أرسى اسسها عهد العصبة ، الا انها لم تنجح فى أن تحقق نظام اشراف دولى فعال فى ظل نظام الانتداب وفشلت باختصار فى أن تدخل كطرف ثالث فى العلاقة بين الدولة المستعمرة والاقليم المســتعمر بمــا يضمن الوصــول بـــه الى الاستقلال .

ولكن الأمم المتحدة ـ المنظمة العالمية العامة التى انشئت سنة ١٩٤٥ بعد الحرب العالمية الثانية ـ قد كثفت الجهود فى مجال تصفية الاستعمار وقامت بدور حاسم فى هــذا الشــان حيث استفادت مــن تجربة سابقتها عصبة الأمم وتمشت مع المناخ العام الذى تبلور حول الاستهجان المتزايــد للاستعمار .

وقد أسهمت الأمم المتحدة فى تصفية الاستعمار من عدة أوجه :

- فمن ناحية الميثاق نفسه فقد أكد على مبدأ « الحقوق المتساوية وتقرير المصير للشعوب » (١) . كما تضمن ثلاثة فصول (٢) متعلقة بتحديد التزامات الدول الأعضاء المسئولة عن ادارة الاقاليم التابعة .

- أنشأت نظاما فعالا للاشراف الدولى تمثل فى نظام الوصاية الدولى وأوجد له جهاز خاص مستقل عن الاجهزة الرئيسية الاخرى بالمنظمة تأكيدا لأهمية دوره وفاعليته . كما وضعت ضوابط تتضمن تحقيقه لهدفه . وبالفعل أثبتت الوقائع التاريخية والتجربة منذ قيام المنظمة ونظام الوصاية بها انه نظام فعال ، وذلك كما سبق تحليله . وبالفعل استطاعت الأمم المتحدة أن تحقق من خلال نظام الوصاية الاستقلال لنحو ٢٠ مليون نسمة (٣) .

- أصدرت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٦٠ « الاعلان الخاص بمنح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة » . وكان علامة تحول هامة فى تصفية الاستعمار حيث تضمن النص على استهجان فكرة الاستعمار مؤكدا على حق تقرير المصير وضرورة منح الاستقلال للاقاليم التى لم تحصل بعد على استقلالها .

- أنشأت لجنة الأربعة والعشرين الخاصة بتصفية الاستعمار من

(١) فقد جاء فى فقرة ٢ من المادة الاولى من الميثاق : « انماء العلاقات الودية بين الامم على أساس احترام المبدأ الذى يقضى بالتسوية فى الحقوق بين الشعوب وان يكون لكل منها حق تقرير مصيرها » .

(٢) هى الفصل الحادى عشر (ويتحدث عن الاقاليم التابعة بصفة عامة) والفصلان الثانى عشر ، والثالث عشر (ويتعلقان بنظام الوصاية الدولى الذى أوجده الميثاق) .

(٣) « الامم المتحدة وتصفية الاستعمار : الملامح الرئيسية فى جهود الامم المتحدة من أجل منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة » ، الامم المتحدة ، القاهرة : مكتب الاعلام العام ، ١٩٨١ ، ص ٣ .

انظر أيضا : United Nations & Decolonization, New York : United Nations, 1985.

جانب الجمعية العامة سنة ١٩٦١ لدراسة مدى التقدم الذى تم انجازه فى تنفيذ بنود الاعلان السابق ذكره .

- أيضا أعطت الامم المتحدة تاييدا معنويا كبيرا وتاكيدا على المساواة المطلقة بين البشر جميعا ، كما ورد فى ميثاقها مؤكدا فى الديباجة والمادة الأولى . وقد تاكد هذا المبدأ فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان الصادر من الجمعية العامة للامم المتحدة سنة ١٩٤٨ حيث جاء فى مادته الأولى : « يولد جميع الناس أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميرا وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الاخاء » . كما ورد فى المادة الثانية انه : « لكل انسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الاعلان ، دون أى تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة او الدين او الرأى السياسى او أى رأى آخر ... » .

كما تضمنت الوثيقة الدولية لحقوق الانسان الصادرة عام ١٩٧٦ ثلاثة وثائق هامة (١) : وقد نصت المادة الاولى على أنه « ١ - لكافة الشعوب الحق فى تقرير المصير ولها ، استنفاذا لهذا الحق ، أن تقرر بحرية كيانها السياسى وأن تواصل بحرية نموها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

٢ - على جميع الدول الأطراف فى الاتفاقية الحالية بما فيها المسئولة عن ادارة الاقاليم التى لا تحكم نفسها بنفسها أو موضوعة تحت الوصاية أن تعمل من أجل تحقيق حق تقرير المصير وان تحترم ذلك الحق تمشيا مع نصوص ميثاق الأمم المتحدة » (٢) .

---

(١) وهى : الاتفاقية الدولية للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، والاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية ، والبروتوكول الاختيارى الملحق بالاتفاقية الاخيرة .

(٢) « الوثيقة الدولية لحقوق الانسان » ، الامم المتحدة ، القاهرة : دار الشعب ، ١٩٨١ ، ص ٣٥ .

هذا وقد أدت الزيـادة الكبيرة فى أعضاء الامم المتحدة - وغالبيتهم العظمى من الدول حديثة الاستقلال - الى اعطاء دفعة وديناميكية للمنظمة الدولية زادت من جهودها فى المجال الدولى وأعطت ثقلا للجمعية العامة ٠

ثالثا : الحركة الشيوعية العالميـة :

ومن اهم ما أسهم فى تعبئـة الرأى العـام العـالمى ضد الاسـتعمار هو نمـو الحركـة الشـيوعية العالمية ٠ فقـد مثلت الثـورة الروسـية سنة ١٩١٧ أهم تحـد للنظام الاستعمارى ، حيث قام لينين بهجوم نظرى فعال على الاستعمار الغربى ٠ وقد سبق أن حللنا كيف أن كلمة امبريالية أصبحت من بعد لينين ونظريته فى الاستعمار ترتبط عامة بالنظام الرأسمالى بل أصبحت مرادفة للاستعمار من جانب الدول الرأسـمالية ٠ وقـد مثل هجـوم لينين هـذا « ديناميت ايديولوجى » كمـا يعبر البعض (١) ٠ كما استطاع أن يؤيده بأسلوب تنظيمى وبمصادر الدولة السوفيتية ٠ ومن الجدير بالملاحظة أن مـاركس وانجلز لـم تكن لهمـا نظريـة عـامة فى الاستعمار (٢) بل كانت لهما خاطرات فى هـذا المجال مرتبطة بتحليلهما عن تناقضات النظام الرأسمالى وان كان تحليلهما لنمط الانتاج الرأسمالى يعد نقطة انطلاق لينين فى نظريته العامة عن الامبريالية ٠ وقد ركز ماركس على وجه التحديد على الآثار المترتبة على الاستعمار البريطانى فى الهند والصين وايرلندا ، كمـا أشـار انجلز الى الاسـتعمار الفرنسى للجزائر وآثاره ٠ بينمـا لينين هـو الـذى أسهم بنظرية عامة عن الامبريالية ، ولم يكتف بدراسـة التطور الرأسمالى فى روسـيا منذ سنة ١٨٩٩ ٠ وقـد رأى ماركس أن هناك جانبين للاقتصاد العالمى : الأول يتمثل فى سلب ونهب الدول المتخلفة كجزء من عملية التراكم الرأسمالى ، وذلك من أجل الانتقال من الرأسمالية التجارية الى الرأسمالية الصناعية ، والثانى ، يتمثل فى

---

(1) Smith, op. cit., p. 26.

(٢) من الجدير بالملاحظة ان تعبير امبريالية لم يستخدم منهما بل استخدم ما يدل عليها من توسع وسياسة استعمارية ٠

تدمير الاقتصاد التقليدى الذى رأى انـه لا يمكن أن يحـدث الا بالحـكم الاستعمارى المباشر من الخارج .

فعن الحكم الفرنسى للجزائر واخضاع ثورة الأمـير عبـد القـادر الجزائرى يقول انجلز رأيه بأن : « على العمـوم ، فانه فى رأينا ، مـن حسن الطالع أن الزعيم العربى قـد هزم . ان صراع البدو كان لا أمل فيـه ، وعلى الرغم مـن أن الطريقـة الوحشـية التى اتبعها جنـود مثل بوجارد فى الحرب تدان بشدة ، الا أن غزو الجزائر يعد خطوة هـامة تمثل بحق حسن طالع لتقدم المدنية . ان قراصنة الدول البربرية (١) ، الذين لم تقمعهم الحكومة الانجليزية طالمـا أنهم لم يتعرضوا لسفنها بأى ازعاج ، لم يكن بالامكـان اخمـادهم الا بغزو احـدى دولهم . وغـزو الجزائر أجبر بالفعل بايـات تـونس وطرابلس وحتى امبراطور مراكش على بدء السير على طريق المدنيـة . فقـد اضطروا الى توجيه شعوبهم لأعمال أخرى غير القرصنة ، ولجأوا الى وسـائل أخـرى لملء خزائنهم غير الجزية التى تدفعها لهم الـدول الاصغر فى أوروبا . واذا كنـا قـد نأسف على أن حرية بـدو الصحراء قد دمرت ، فاننا يجب ألا ننسى ان نفس هؤلاء البدو كانوا أمـة من اللصـوص - الذين كـانت وسـائل معيشتهم الرئيسية تتكون مـن القيام بغـارات اما على بعضهم بعضـا أو على الفلاحين المستقرين آخذين ما يجدونه ، وقاتلين كل من يقاومهم ، وبائعين بقية المساجين كعبيـد . كل هـذه الأمم من البرابرة الأحـرار بدت فخورة جـدا ، ونبيلة ، وعظيمة عن بعـد ، ولكن فقط اقترب منهم وستجد أنهم هم وكذلك الأمم الأكثر تمدينا يحكمون بواسطة الجشـع للكسب ، ويسـتخدمون فقط الوسـائل الاكثر وحشـية والاكثر جفـاء . ومع ذلك ، فالبورجوازى الحديث ، مع المدنية والصناعة والنظام وعلى

---

(١) يلاحظ ان انجلز كرر استخدام لفظ برابرة (من بربرية) وليس بربر كشعب .

الاقل الاستنارة النسبية التى تتبعه ، افضل من السيد الاقطاعى أو اللص المغير مع الدول البربرية للمجتمع الذى ينتمون اليه » (١) .

وهى نفس النظرة التى أوضحها ماركس فيما يتعلق بالحكم البريطانى للهند والذى على الرغم من « دوافعه الشريرة وجرائمه » فى تحطيم القرية الهندية التى كانت فى نظر ماركس أساس « الاستبداد الشرقى » كما أطلق عليه ، الا أن ذلك الحكم يمثل ثورية أساسية فى الظروف الاجتماعية للهند خاصة وآسيا عامة (٢) . فقد اعتبر ماركس أن انتشار الثقافة البورجوازية وما ارتبط بها من تنمية راسمالية هو مفتاح التحديث والتنمية فى الدول المتخلفة حيث يقوض النمط التقليدى للانتاج ويفتح المجال للثورة الاجتماعية . وعليه فقد حيا فى تجربة الحكم البريطانى للهند الدور الثورى للاستعمار فى التحديث وخلق المقومات الأساسية اللازمة للتنمية من طرق مواصلات واتصالات ونظم سياسية وادارية وغيرها .

فالاستعمار نظر اليه من جانب ماركس وانجلز على أنه خطوة على الطريق الصحيح فى تقدم البشرية وفقا للتطور الديالكتيكى حيث يمثل واسطة نقل ثورة التحديث والتنمية التى قادتها البورجوازية فى أوروبا الى أفريقيا وآسيا ، ويرجع اليه الفضل - فى نظرهما - فى هدم المجتمع التقليدى وغرس أسس المجتمع الغربى فى تلك المناطق المستعمرة . من

---

(١) انظر: Engels, «French Rule in Algeria», The Northen Star, January 22, 1848, in Shlomo Avineri, (ed.,) Karl Marx on Colonialism & Modernization, New York : Doubleday, 1969, pp. 47-8.

(٢) انظر : K. Marx & F. Engels, On Colonialism, Moscow : Progress Publishers, 1968, pp. 35-42.

ولمزيد من المعلومات عن موقف كل من ماركس وانجلز عن الاستعمار فى الهند انظر : Kiernan, op. cit., pp. 165-237.

انظر أيضا : Avineri, op. cit.

هذه الزاوية وتطبيقا على مثل الهند والجزائر يمكن رؤية موقفهما من الاستعمار حيث لا ادانة أو وصم بل تمجيد وتحبيذ على أساس أنه وسيلة لغاية أسمى وفتح مجال لمد مرحلة الرأسمالية - التى هى الخطوة فى التطور التاريخى للبشرية الى مرحلة الاشتراكية - الى العالم خارج أوروبا حيث نشأت . فقد نظر ماركس الى أن الاستعمار الرأسمالى يمثل ضرورة تاريخية بحيث تصبح همجية الجيوش الاستعمارية مبررا حتميا ، فلا يمكن تحطيم الأساس الاقتصادى للانماط السابقة للرأسمالية التى تمنع آسيا من سلوك اتجاه تاريخى تقدمى الا على أيدى الرأسمالية ، التى تعتبر نظاما انتاجيا لابد أن يتوسع بحيث يؤدى الى بعث الثورية فى أنماط الانتاج السابقة للرأسمالية فى طرف العالم الرأسمالى وتقويضها . فكأن ماركس قد أعتقد بأن لتوسع علاقات الانتاج الرأسمالية آثار تقدمية على الرغم من أنه قد تعرض للآثار التدميرية لقوة العمل فى المستعمرات (١) . وخلاصة الامر أن ما اعتبر آثارا سلبية للاستعمار من تدمير الاطارات التقليدية من مؤسسات وقيم اعتبر فى نظر ماركس ايجابيا كخطوة على طريق التطور فى ضوء المادية الجدلية .

ولكن منذ آراء لينين والثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ أعلن الاتحاد السوفيتى نفسه معاديا للاستعمار ومناصرا للاستقلال ولحركات التحرر . فقد ربط لينين ربطا تاما بين الاستعمار (الامبريالية) والرأسمالية من جهة ، وبين نضال البروليتاريا وحركة التحرر الوطنى فى المستعمرات من جهة أخرى . بل ان صيحته لم توجه فقط لعمال العالم للاتحاد كما فعل ماركس فى ندائه الشهير : « يا عمال العالم اتحدوا » بل أطلق صيحة النداء النضالى العالمى : « يا عمال العالم ، ويا كل الشعوب المقهورة اتحدوا » ، « ولقد صاغت الحركة الثورية العالمية وعلى أساس متين من الماركسية اللينينية شعارا جديدا وخلاقا : « يا شعوب البلاد الاشتراكية ،

---

(١) بريان تيرنر ، ماركس ونهاية الاستشراق ، ترجمة يزيد صايغ ، الطبعة العربية الاولى ، بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١ ، ص ٢٥ .

ويا عمال الدول الرأسمالية وكل القوى الديمقراطية فيها ، ويا أيتها الشعوب المتحررة حديثا والشعوب المقهورة ، اتحدوا فى النضال المشترك ضد الامبريالية ومن أجل السلم والاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى والديمقراطية والاشتراكية » (١) • وباختصار فقد أكد لينين على دعم البروليتاريا لحركات التحرر الوطنى وثورة الشعوب ضد الرأسمالية والاستعمار •

ومن الجدير بالذكر أن لينين لم يطلق فقط صيحته ضد الامبريالية كمجرد صيحة جوفاء أو شعار أيديولوجى بل وضع التكتيك اللازم لتحقيق الاستراتيجية الرامية لتحقيق التحرر الوطنى ، حيث صاغ نظرية كاملة بشأن طرق ووسائل التحرر الوطنى والاجتماعى للشعوب المقهورة كبرنامج عمل لتحقيق الهدف المنشود وذلك بتوضيح التالى (٢) :

- « دور الفصائل الرئيسية فى حركة الثورة العالمية : الطبقة العاملة (وبعد ثورة أكتوبر - النظام الاشتراكى الذى يشكل القوة الحاسمة فى العملية الثورية) والشعوب المقهورة فى المستعمرات واشباه المستعمرات ، والعمل المشترك بينها فى نضالها ضد الامبريالية •

- نسبة القوى السياسية والطبقية فى حركة التحرر الوطنى والحاجة الى ائتلافات عريضة معادية للامبريالية •

- الحاجة الى المساعدة الشاملة من النظام الاشتراكى والطبقة العاملة العالمية لنضال التحرر الوطنى للشعوب المقهورة •

- امكانية أنه فى الظروف التاريخية الجديدة (التى تلت انتصار

---

(١) انظر ب • ج • غفوروف مع مجموعة من الكتاب السوفيت ، لينين والتحرر الوطنى فى الشرق ، ترجمة مصطفى مجدى الجمال ، القاهرة : دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ •

ثورة اكتوبر) تستطيع الامم المتخلفة أن تسلك « طريقا مختصرا » الى الاشتراكية .

- أهمية تسليح حركة التحرر الوطنى بالايديولوجية المتقدمة واقامة حزب طليعى يعمل بمقتضى الأساس الايديولوجى للاشتراكية العلمية » .

وقد أسهمت الثورة فى الصين سنة ١٩٤٩ فى تدعيم هذا الاتجاه خاصة باعتبارها دولة آسيوية وعانت من الاستعمار . وقد كثفت الصين جهودها فى مجال محاربة الاستعمار وتأييد حركات التحرر . حقيقة هناك انقسامات ايديولوجية بين الصين والاتحاد السوفيتى ، وهناك صراع بينهما خاصة على أولويات المصالح القومية الا أن هذا لم يمنع كلا منهما من تأييد حركات التحرير المختلفة على أساس أن حروب التحرر حروب عادلة . ومع أن الاتحاد السوفيتى قد توسع على حساب الغير اقليميا ويمارس السيطرة والاخضاع فعليا ، كما سبق توضيحه ، الا أن هذا لم ينتقص من الدفعة الايديولوجية فى مجال الاستعمار .

هذا وقد سيطر على السياسة الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الصراع بين الغرب والشرق ، مما كان له انعكاساته على ظاهرة الاستعمار حيث أسهمت باختصار فى حركة تصفية الاستعمار فى شكله التقليدى من جهة ، وفى تدعيمه فى شكله الجديد من جهة أخرى .

رابعا : دور حركة الوحدة الافريقية (١) :

وقد أسهمت بدور ايجابى فى تصفية الاستعمار ، حيث انها كحركة

---

(١) لمزيد من المعلومات راجع : د. حورية توفيق مجاهد ، « الاتجاهات الايديولوجية للوحدة الافريقية » ، مجلة الدراسات الافريقية ، معهد الدراسات والبحوث الافريقية ، جامعة القاهرة ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ ، ص ٨٧-١٤٠ .

وان بدأت فى مرحلتها الأولى خارج أفريقيا فى العالم الجديد واوروبا بين سلالة من اخذوا من افريقيا فى ظل تجارة الرقيق واتخذت شكل حركة احتجاج ووعى لونى وهو ما عرف « بالجامعة الزنجية » ، الا انها فى مرحلتها الثانية والوسيطة قبل الاستقلال تمثلت فى استخدامها كأداة لمحاربة الاستعمار والسعى لتحقيق الاستقلال .

ويمثل مؤتمر مانشستر سنة ١٩٤٥ نهاية المرحلة الأولى للوحدة الافريقية بمفهومها السابق . فقد طالب المؤتمرون لأول مرة باستقلال كافة الشعوب المستعمرة وتحريرها من السيطرة الاستعمارية سياسية كانت أم اقتصادية . كما أشير الى ان امل المؤتمر هو قيام الشعوب الآسيوية والافريقية بكسر قيود الاستعمار قبل وقت طويل ثم وقوفها كشعوب حرة متحدة لتدعيم وحماية حرياتها واستقلالها من عودة الاستعمار الغربى ومخاطر الشيوعية . كما تقدم المؤتمر باعلان للقوى الاستعمارية يتميز بالطابع المعنوى أكثر منه التهديد بالعمل على اتخاذ قرارات متمشية مع ميثاق الاطلنطى . وختموا تصريحهم للشعوب المستعمرة بالقول : « يا شعوب العالم المستعمرة والمخضوعة اتحدوا » (١) .

أى أن مؤتمر الوحدة الافريقية فى مانشستر اكد على ان تحرر الشعوب الافريقية واستقلالها هو السبيل الوحيد لاتحادها . وعليه فان حركة الوحدة الافريقية استخدمت فى مرحلتها الثانية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كأداة لمحاربة الاستعمار على أساس أنه لا سبيل لتحقيق الوحدة فى افريقيا وتخليص الشخصية الافريقية مما الحقه بها الأوروبيون الا باستقلال شعوبها .

وكان أول مؤتمر للوحدة الافريقية سنة ١٩٠٠ قد رفع شعار « افريقيا للأفريقيين » ، أما بعد مؤتمر مانشستر فقد أصبح هذا ليس مجرد

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤ .

صيحة جوفاء ولكن حقيقة يسعى من اجلها بكافة الوسائل . فحركة الوحدة الافريقية فى مرحلتها الوسيطة انتقلت الى الواقع وأصبحت تعنى التضامن ضد الاستعمار ووحدة الكلمة على مواجهته وتصفيته .

وباختصار فقد اعتبرت حركة الوحدة الافريقية فى مؤتمر مانشستر ان القضاء على الاستعمار والحصول على الاستقلال ضرورة حتمية قبل اى شىء ولازمة لابراز الشخصية الافريقية . ومن ثم فقد نقلت حركة الوحدة الافريقية جهودها الى افريقيا ذاتها ، ومن ثم اعتبرت حركة الوحدة الافريقية فى مرحلتها الوسيطة أداة لمحاربة الاستعمار تمهيدا للمرحلة النهائية وهى اقامة تنظيمات وهياكل تعبيرا عن الوحدة الافريقية والتقارب بين الدول بمجرد الاستقلال .

هذا وبعد نجاح هذه المرحلة الخاصة بمحاربة الاستعمار الذى كان استقلال غانا - باعتبارها أول دولة زنجية تحصل على استقلالها - مؤشرا هاما لنجاحها بدأت المرحلة الثالثة لحركة الوحدة الافريقية ، وهى مرحلة اقامة هياكل تنظيمية للوحدة الافريقية تمشيا مع مفهوم الوحدة الذى تضمنته كلمة الوحدة الافريقية التى طالما رفعت كشعار . وقد شن أول مؤتمر للشعوب الافريقية فى أكرا فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ حربا شعواء على الاستعمار ونادى باستقلال الشعوب الافريقية . وبتبلور التكتلات الخاصة بالوحدة الافريقية نلاحظ أن المجموعات المختلفة من برازافيل الى الدار البيضاء الى مونروفيا وان اختلفت مع بعضها أيديولوجيا الا أنها جميعا اتفقت فى ضرورة تصفية بقايا الاستعمار . حقيقة ان مجموعة الدار البيضاء ذات الاتجاه الثورى أدخلت ضمن هجومها على الاستعمار الهجوم على الاستعمار الجديد الا أن مجموعة برازافيل خاصة ومونروفيا عامة لم تشاركها هذا الرأى بالنسبة

للاستعمار الجديد حيث رفضت نفس المفهوم (١) . كما أن ميثاق منظمة الوحدة الافريقية التى قامت فى مايو سنة ١٩٦٣ متوجة جهود الوحدة الافريقية اعتبر التخلص من كافة أشكال الاستعمار فى أفريقيا احد أهدافه (٢) ، كما جعل تحرير كافة الاراضى الافريقية التى مازالت تابعة أحد مبادئه (٣) ، مؤكدا على حق جميع الشعوب فى ان تسيطر على مصيرها (٤) . وقد تضمنت قرارات مؤتمر القمة التأسيسى فى اديس ابابا برنامجا شاملا لمكافحة الاستعمار ، واعلن يوم ٢٥ مايو « يوم تحرير أفريقيا » تنظم فيه المظاهرات الشعبية وتجمع التبرعات والمعونات للصندوق الخاص الذى تقرر انشاؤه لتقديم الدعم العملى والمالى لحركات التحرير الوطنية (٥) . بل أن المنظمة كونت « لجنة التحرير » لتتولى الجانب التنفيذى لمهمة الكفاح المسلح من أجل تصفية الاستعمار (٦) لمساعدة حركات التحرير فى المناطق التى لم تستقل بعد أو لاتزال تعانى من سياسة الابارتهيد . وقد لعبت مصر دورا جوهريا فى هذه اللجنة خاصة قبل حرب ١٩٦٧ .

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مواقف المجموعات المختلفة من الاستعمار ، انظر د. بطرس بطرس غالى ، العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية ، القاهرة : مكتبة الانجلو ، ١٩٧٣ .

(٢) نص ميثاق المنظمة فى الفقرة الرابعة من المادة الثانية - التى تتضمن الاهداف - على : « القضاء على الاستعمار فى جميع اشكاله فى أفريقيا » .

(٣) جاء فى الفقرة السادسة من المادة الثالثة - التى تتضمن المبادىء : « التفانى المطلق فى سبيل قضية التحرر التام للاراضى الافريقية التى مازالت تابعة » .

(٤) ورد فى الفقرة الاولى من الديباجة : « اقتناعا منا بأن حق جميع الشعوب فى البت فى مصيرها انما هو حق لا يمكن التفريط فيه » .

(٥) عن نص قرارات مؤتمر القمة التأسيسى فى أديس ابابا عام ١٩٦٣ ، وما يتعلق بتصفية الاستعمار وبرنامج القضاء عليه : انظر ، المرجع السابق ص ٥٢٠ - ٥٢٣ .

(٦) لمزيد من المعلومات عن لجنة التحرير واختصاصاتها : انظر ، المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٤٢ .

خامسا : حركات التحرر الوطنى : القومية فى افريقيا وآسيا :

ظهور هذه الحركات التى أطاحت بالاستعمار لـه عـدة أبعاد : فهى من ناحية نتاج مباشر أو غـير مباشر للوجـود الاسـتعمارى ، وهى مـن ناحية أخرى التى قضت فى النهاية على الاستعمار ، وهى فى الحقيقة تعبر عن نمـو القومية فى الدول الافريقية والآسيوية على الاقل على المسـتوى الايديولوجى . والسـؤال الـذى يطـرح نفسـه فى هـذا المجـال هـو ، ما هى حقيقة العلاقة بين نمـو الحركـات القوميـة بمفهومها الأفرو - آسـيوى لتتبلور فى شكل حركـات تحـرر وطنى ممثلة ثورة الشـعوب المستعمرة ، وبين الاستعمار وتصفيته ؟ .

ومع محاولة تخطى خصوصيات كل حـالة يمكن القـول بأن النظم الاستعمارية على اختلاف أشكالها قد بذرت بذور فنائها ، وذلك بالتمهيد لظهور القومية فى المناطق المستعمرة فى آسيا وأفريقيا والتى اتخذت شكل حركـات التحـرر الوطنى التى أطاحت فى النهاية بالاستعمار فى شكله التقليدى الرسمى . فالقومية هى الأخرى ظـاهرة عالمية (١) والاتجـاه الحديث هـو التأكيد على العوامل الذاتية (٢) لا الموضوعية فقط (كاللغة

---

(١) لمزيد من المعلومات عن القومية انظر : دكتورة حورية توفيق مجاهد « القومية كظاهرة عالمية » محاضرات مطبوعة لطلبة السنة التمهيدية ماجستير علوم سياسية ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٨٢ . ويتضمن العديد من المراجع عن هذه الظاهرة . انظر أيضا مختصر البحث ، فى مطبوعات كلية الدفاع المدنى ، أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية ، ١٩٨٤ .

(٢) هانس كوهن مثلا يؤكد على العوامل الذاتية فى تعريف القومية بأنها « حالة وجدانية يشعر فيها الفرد بأن ولاءه الاسمى واجب للدولـة القومية » انظر :

Hans Kohn, Nationalism : its Meaning & History, Princeton, N. J. : D. Van Nostrand Co., 1955, p. 9.

كما يؤكد د . منيف الرزاز اولوية عنصر الشعور فى التكوين القومى بقوله : « القومية شعور اولا بحياة واحدة ، ومصير واحد ، ورسالة واحدة ، وعقلية واحدة » انظر : د . منيف الرزاز ، معالم الحياة العربية الجديدة ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ، ص ٢٦٨ .

والدين والتاريخ والعادات ..) فى ظهورها ، وذلك بالنظر اليها على انها الشعور بالولاء الاسمى للدولة القومية (١) لا للجماعات الاولية داخلها (كالجماعات اللغوية أو الدينية أو القبلية أو الاثنية او الاقليمية) . فهى توجد حيثما تتوافر شروطها الموضوعية والذاتية : وتتمثل الاولى فى التحريك الاجتماعى (التعبئة الاجتماعية) «Social Mobilization» ، كما تتمثل الثانية فى الوعى القومى «National Consciousness» الذى يتمثل بدوره فى الرغبة من جانب جماعة من الافراد فى الوحدة وهدفها الاستقلال والحرية ، وكذلك الرغبة فى التميز عن الغير مع الهيبة والمكانة فى المجال الدولى .

والنظم الاستعمارية على اختلاف أنماطها أسهمت فى نمو الحركات القومية فى الدول الآسيوية — الافريقية حيث عملت كمحرك خارجى لظهور التحريك الاجتماعى ، وهو الشرط الموضوعى لظهور القومية التى ظهرت فى آسيا وأفريقيا كنتاج الوجود الاستعمارى . ومن هنا يطلق البعض على القومية فى تلك الدول لفظ « القومية الاستعمارية » «Colonial Nationalism» ، على أساس انها نشأت نتيجة للوجود الاستعمارى وكرد فعل له ولا تعنى هذه التسمية انها قومية موالية

---

(١) « الدولة القومية هى خليفة القبيلة ، ودولة المدينة ، الامراء الاقطاعيون ، الملك ، الامبراطور والكنيسة : وهى الوحدات التى كانت أساسا تتمتع من قبل بولاء الافراد الاسمى . واهم ما يميزها هو السيادة على ما عداها » انظر :

Padelford & Lincoln, The Dynamics of International Politcs, op. cit., p. 76.

ولمزيد من المعلومات انظر :

Eugene Kamenka, ed., Nationalism : The Nature & Evoluation of an Idea, London : Edward Arnold, 1976, pp. 3-20.

ومن المراجع الهامة فى مجال القومية وتصفية الاستعمار انظر :

Hugh Seaton - Watson, Nations & States : An enquiry into origins of nations & the politics of nationalism, London : Methuen, 1977, pp. 239-353.

للاستعمار ، حيث أنها فى الواقع قومية معادية لـه «Anticolonial nationalism» وموجهة أساسا ضده ، حيث نمت القومية كحركة احتجاج متزايـدة ضـد الاسـتعمار ، أى أن الـدول الاسـتعمارية دون ان تعى وخدمة لمصالحها أسهمت فى ظهور التحريك الاجتماعى ـ كالشرط الموضوعى لظهور القومية والذى أسهم فى تبلور الشرط الذاتى ، وهو الوعى القومى بأبعاده المذكورة وبالتالى اكتملت الحلقة اللازمة لظهور الحركات التحررية القومية التى أطاحت بالاستعمار .

والتحريك الاجتماعي يتمثل فى عوامل موضوعية تطرأ على المجتمع وتمسـه فى كـافة أبعـاده الاجتمـاعية والاقتصـادية والسياسـية ، بحيث ينتج عنها خروج وعى الفرد من النطاق المحلى الذى ولد وعاش فيه الى نطاق الدولة ككل لتصبح الدولة القومية هى المطمح . واذا كان التحريك الاجتماعى قد ظهر فى أوروبا ونما طبيعيا وتكثف بفعل الثورة الصناعية ، فانه فى آسيا وأفريقيا نشأ « اصـطناعيا » فى ظل الوجـود الاسـتعمارى كعامل خارجى . ولكن النتيجة واحـدة وهى تبلوره بمـا أدى اليــه من ظهور الحركات التحررية . وخلاصة القول أن النظم الاستعمارية رغم تباين اشكالها الا انها جميعا بذرت بذور فنائها بالتمهيد لظهور الحركـات القومية التى أطاحت بها . وعليه فمن الجـدير القاء الضـوء على التحريك الاجتماعى وما يتضمن من عوامل تغيير اجتماعى فى شتى المجالات وكيف أسهم فى النهاية فى تصفية الاستعمار .

بالنسبة للتحريك الاجتماعى فى النـواحى الاجتماعية فان أهم عامــل تغيير ثورى أوجـده الاستعمار هو التعليم الذى أفرخ « النخبة الجديدة New elite » التى جاءت منها الزعامات القومية التى قادت الجماهير للتخلص من الاستعمار . كما فرضت الدول الاستعمارية لغتها الأوروبية لتكون لغة الادارة والتعليم ، مما يسر الاتصـال بين شعوب مختلفة لغويا حيث مكنها من تخطى الفواصل اللغوية . فضــلا عن ظـــاهرة انتشـار المـدن التى جذبت خاصــة الشباب للبحث عن فرص جديـدة للعمــل

والاسترزاق مما اضعف الروابط التقليدية ونمــا الوعى بالدولة . ومـن الجدير بالملاحظـة ان القومية ســواء فى أوروبـا أو فى افريقيا وآســيا ظــاهرة حضرية نشأت فى المـدن التى يتكثف بهــا التحريك الاجتماعى ولاتباريها فى هــذا المجال المناطق الريفية . فضــلا عن هــذا فقــد أدى انتشار المواصــلات الحديثـة وطـرق الاتصـال التى هـدفت الـــدول الاستعمارية من ورائها الى تحقيق اهـــداف أمنيـة واقتصادية خدمــة لمصالحها الاستعمارية - الى جانب التيسير على الأفراد ، وخاصة الشباب فى الانتقال بعيدا عن البيئة المحلية التى ولدوا فيها وهــو ما اضعف السلطة التقليدية من جهة وأضعف الشعور بالانتماء للبيئة المحلية من جهة أخرى ، مع فتح آفاق جديدة ووعى بنطاق أوسع هــو نطاق الدولة المستقلة ككل . كما كان التجنيد من العوامل الهامة فى التحريك الاجتماعى حيث اسهم فى التحرر من البيئة المحلية والسلطة التقليدية ، مع صهر الاختلافات بين المجندين وتوسيع ادراكهم وأفكــارهم ويبدو هـــذا اكثر وضـوحا فيمن خدموا فى الجيوش الاستعمارية خارج دولهم فى الحربين العالميتين . ومن الملاحظ أن التجنيد كان يخضع لــه ابناء الفئات الفقيرة ممن لم يمتلكوا الجاه أوالمــال ، مما جعلهم يلقــون بثقلهم خلف النخبــة الجديدة بعــد انتهاء تجنيدهم وعودتهم لمناطقهم فضلا عن أنهم بعودتهم يعتبرون مــن اهم العوامل التى تسهم بدورها فى التحديث والتنمية .

امــا عن التحريك الاجتماعى فى النواحى الاقتصــادية : فــان اهم عوامل التغيير تمثلت فى ظهــور اقتصــاديات الســوق ، وانتشار النقود والعمل بأجر مما اضعف السلطة التقليدية للزعماء المحليين حيث تحــرر الافراد الى حــد كبير مــن هــذه الســلطة وخاصــة من استطاع منهم الانتقال الى المـــدن او المنــاطق البعيدة ســـواء فى نفس المســتعمرة او خارجها . كما بدأت تظهر مظاهر الثراء نتيجة لادخال المحاصيل النقدية .

امــا بالنسبة للتحريك الاجتماعى فى النواحى السياسية فيتضح من ان الاستعمار بصفة عامة امــا انه قــد قضى عــلى الزعامات التقليدية او

أنه أضعفها بدرجة كبيرة بحيث افقدها ثقة الجماهير العريضة . من ناحية أخرى فان الاستعمار كما سبق أن ذكرنا اسهم فى خلق الطليعة أو الصفوة أو النخبة الجديدة من المثقفين التى عملت على تحريك الجماهير ، فقد قامت بسد الفراغ السياسى الناتج عن اضعاف السلطة التقليدية . وفضلا عن هذا فان النظم الاستعمارية بصفة عامة حتى الحرب العالمية الثانية قد حرمت القيام بالنشاط السياسى وان كان الوضع قد تغير بعد الحرب ، فسمح بوجود التجمعات السياسية التى كانت مقيدة فى بادىء الامر ، ثم انتشرت بعد ذلك ، كما انتشر الاقتراع العام المبنى على صوت واحد للفرد الواحد ، بدون التفرقة على أساس الثراء أو التعليم أو الجنس (وكان الاقتراع فى بدء الامر مقيدا بدرجة من التعليم أو الثراء ولكنه ما لبث أن اطلق) . وقد ادى ذلك الى تقوية النخبة الجديدة ، مما أعطاها حرية أكبر فى تحريك الجماهير وتجميعهم حول الحركة القومية .

ومن الجدير بالملاحظة أن مجرد وجود الاستعمار قد خلق جبهة وجهت ضدها صيحات الزعماء القوميين للاستقلال . أى أن الاستعمار أسهم فى توحيد الصفوف خلف الحركات القومية : مما يسر مهمة الزعامة القومية أثناء مكافحة الاستعمار (وان كان الوضع قد اختلف بعد رحيله حيث أثبت الاستعمار انه عامل تماسك خارجى فى اطار كل مستعمرة حيث فرض وحدة لكنها هشة) .

وعليه فان الاستعمار أوجد التحريك الاجتماعى فى أبعاده المختلفة وما تولد عنه من وعى قومى ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان الاستعمار لم يقم باستيعاب مطالب النخبة الجديدة بالدرجة التى تتمشى مع سرعة التحريك الاجتماعى ، تلك المطالب التى تبلورت أساسا فى شكل مطالب اجتماعية واقتصادية محدودة (مثل تحسين الاجور وتحسين ظروف العمل وتطبيق المساواة خاصة مع الاوروبيين وغيرها) ثم تحولت فيما بعد الى مطالب سياسية عامة ، على أساس أن تحقيق تلك

المطالب المحدودة لن يكون الا بالقضاء على النظام الاستعمارى القائم كلية . ومن ناحية ثالثة ، فان النتيجة الطبيعية للبندين السابقين ـ وهما ارتفاع معدلات التحريك الاجتماعى ، وضعف معدلات الاستيعاب الذى لم يواكبه ـ هى ظهور الشعور بالتفرقة والتمييز . وبالتالى اكتملت الحلقة ، مما أدى الى ظهور الحركة القومية .

والقومية فى الدول الآسيوية والافريقية نشأت أولا على المستوى الايديولوجى ، بمعنى أن أول من بدا بفكرة القومية ، هم القلة من النخبة الجديدة الاكثر تحريكا من الناحية الاجتماعية أى الاكثر شعورا بالوعى القومى ، وهم الذين قادوا الحركات القومية للتخلص من الاستعمار ولتصبح المشكلة الاساسية بالنسبة للزعامة القومية منذ الاستقلال هى كيفية تحويل القومية من أيديولوجية الى عقيدة يؤمن الشعب فى مجموعه بها ويعيش بها ولها ، وذلك عن طريق عملية منظمة هى عملية بناء الأمة ، حتى يتم تطابق بين الدولة كوحدة سياسية ـ قانونية وبين الأمة كحقيقة اجتماعية ، وبالتالى تتحول الدولة الى دولة قومية . فكان الدولة فى آسيا وافريقيا سبقت الأمة أى جاءت قبل القومية على مستوى العقيدة ، وهذه هى القاعدة العامة . أما الاستثناءات فتتمثل فى وضع قيام الباكستان واسرائيل مثلا حيث جاءت القومية أولا وهى التى أسهمت فى انشاء الدولة .

ومما يجدر ذكره أن رد فعل الدول الاستعمارية قد اختلف بالنسبة للحركات القومية ، وبالتالى تباينت قوة الحركات القومية والصراع ضد الاستعمار ومدى عنف أو يسر الحصول على الاستقلال .

وبالنظر الى تصفية الاستعمار وحركة الاستقلال نلاحظ أن حركة الاستقلال كانت بطيئة فى سرعتها بعد سنة ١٩٤٥ حيث أعطت أوروبا الاستقلال لتلك المستعمرات التى كانت على حافة الاستقلال سنة ١٩٣٩ أو تلك التى كانت قادرة على طلبه كنتاج مباشر للحرب العالمية الثانية .

وقد وضح هـذا منذ عـام ١٩٤٥ ثـم تباطأت السرعـة بوضـوح . أمـا منذ ١٩٥٦ فقـد حررت معظم بقية المستعمرات وكـانت من أوليات تلك التى حررت فى هـذه المرحلة الـدول الاسـلامية فى الشرق الاوسـط أو الشرق ثم بعدها جاءت الدول الافريقية ، وأخيرا جزر المحيط (١) . هذا ويعتبر استقلال غانا - باعتبارها أول دولة زنجية تحصل على الاستقلال - فاتحة الاستقلال لبقية الدول الافريقية ، بل ومؤشرا لتصفية الاسـتعمار من العالم عامة .

وأخيرا يمكن القول بأنه مع انتهاء الاسـتعمار فى شـكله التقليدى باستقلال الدول الآسيوية والافريقية ظهر الاستعمار فى شكله الجديد كما سيرد تحليله .

---

(١) انظر ملحق (١) .

الفصل الخامس

حول مفهوم الاستعمار الجديد وعلاقات التبعية

لقد أصبح الاستعمار فى شكله التقليدى وبأنماطه المختلفة فى طى التاريخ الى حد كبير : فلم يتبق منه الا القليل من البؤر المحدودة فى العالم (١) ، حيث أصبح لا يتمشى مع روح العصر ومع مناداة الوطنيين بالقومية فى الاجزاء المختلفة من العالم وأصبحت الدول حديثة الاستقلال التى عانت من الاستعمار حريصة على استقلالها غيورة عليه ورافعة راية القومية . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو هل انتهى الاستعمار من العالم وهل اختفت السياسات الاستعمارية القائمة على السيطرة ؟

لقد سبق فى تحليلنا لمفهوم الاستعمار توضيح أن السياسة الاستعمارية أى الامبريالية ، هى تلك السياسة التى تمكن دولة من أن تنشىء وتحافظ على نظام خارجى للسيطرة الفعالة ، تلك السيطرة التى تمارس بواسطة وسائل سياسية أو اقتصادية أو استراتيجية او ثقافية او دينية او أيديولوجية أو بمزيج من بعض أو كل هذه الوسائل . ولكن فى الوقت الحالى وبزوال الامبراطوريات الاستعمارية فان ممارسة السيطرة نفسها أصبحت مستهجنة ، فقد رفضت فكرة اخضاع الغير من حيث المبدأ نفسه لا بالنسبة لمجرد حالات منفردة (٢) .

---

(١) انظر ملحق (٣) .

(2) A. P. Thornton, Imperialism in the Twentieth Century, London : The Macmillan Press Ltd., 1977. p. 3.

المبحث الأول : مضمون الاستعمار الجديد والتبعية :

فى الحقيقة وعلى الرغم من حركة تصفية الاستعمار والاستقلال الرسمى للدول النامية الناجمة عن تلك التصفية الا أن الاستعمار لم يختف من مسرح العلاقات الدولية فى العصر الحالى (١) . بل انه مازال مستمرا ويكيف علاقات كثير من الدول مع بعضها بعضا . وان كان قد استطاع أن يغير ثوبه ليتلاءم مع روح العصر . ومن ثم نشأ ما يعرف بالاستعمار الجديد «Neo-Colonialism» أو الاستعمار العصرى ، الذى يرمى لتحقيق أهداف الاستعمار التقليدى - أى تحقيق مصالح وأهداف الدولة التى تمارسه على حساب غيرها من الدول الاضعف - ولكن بأساليب جديدة ومع المحافظة على سيادة تلك الدول الاضعف . ولعل من التعريفات الملائمة للاستعمار الجديد هو أنه « السياسة التى ترمى لبناء امبراطوريات بلا أعلام » أو « امبراطوريات غير رسمية » - اى تحقيق مصالح الدولة التى تمارسه دون أن تستخدم فى ذلك علمها تجنبا لرمز تسلطها مع الوصول الى أهدافها المنشودة . وعليه ففى الوقت الذى تخلت فيه الدول الاستعمارية السابقة - أو وريثاتها فى علاقات السيطرة والسياسة الاستعمارية - عن السيطرة الرسمية السياسية فان أنواع السيطرة الاخرى الاكثر مهارة بل ودهاء قد تقوت وخلقت « أعراض تبعية » وهى ما يعرف الآن بالاستعمار الجديد (٢) .

---

(١) وفى تعبير فيدل كاسترو - رئيس كوبا « ليس على الثوريين ان يجلسوا بمداخل بيوتهم انتظارا لمرور جثة الاستعمار عليهم » . ان مثل هذه الجثة لن تمر عليهم ، فالاستعمار لم يدفن لسبب بسيط هو أنه لم يمت . انظر : المرجع السابق ص ٦ .

(٢) انظر : Mack, Plant & Doyle, op. cit., p. 2.

ولمزيد من المعلومات عن الاستعمار وتغيير ثوبه واساليبه بعد الحرب العالمية الثانية فى شكل الاستعمار الجديد ، انظر : جاك وودس ، الاستعمار الجديد فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، ترجمة الفضل شلق ، بيروت : دار الحقيقة للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ ، ص ٢٧ - ٣٢ .

وفى هذا المجال يذهب هارى ماجدوف الى أن : « ما يقصد عادة بالاستعمار الجديد هو وجود توجيه أجنبى ملحوظ لدولة مستقلة اسميا . وهذا يعنى بشكل أدق وجود درجة عالية من التأثير فى الشئون السياسية والاقتصادية لبلد ما قبل دولة أجنبية أو مصالح تجارية ، مما ينتج عنه أيضا تأثير فى المنهج السياسى والسياسة العسكرية ، وبالاضافة الى ذلك يستعمل هذا المصطلح ليشير الى سيطرة ثقافة القوة الاستعمارية السابقة وقيمها (١) » . وهذا التعريف وان كان أقرب الى الشمول الا أنه يمكن استكماله ليكون أكثر ملاءمة لتعريف ظاهرة الاستعمار الجديد ، وذلك باضافة عنصر القهر الى التأثير بحيث يركز على أنه يعنى وجود درجة عالية من التأثير القهرى المرتبط بظاهرة القوة بمفهومها السياسى فى العلاقات الدولية والتى تقوم على الترغيب والترهيب ، ومن المعروف ان ليس كل تأثير يدخل فى باب الاستعمار : فهناك التأثير الاستمالى القائم على النفوذ وليس القوة كما سبق الذكر . هذا فضلا عن اضافة بعد أشمل للسيطرة وذلك بالتأكيد على أن هذا المصطلح ـ مصطلح الاستعمار الجديد ـ يشير الى سيطرة ثقافة القوى الاستعمارية السابقة وقيمها فضلا عن الغزو الفكرى والثقافى لأى قوى جديدة تدخل فى الميدان بعد رحيل القوى الاستعمارية السابقة ويدخل فى مجالها القوتين العظميين .

وخلاصة القول أن الاستعمار الجديد وان تشابه مع الاستعمار القديم فى أنه مظهر للعلاقات غير المتكافئة فى المجال الدولى حيث يدخل مثله فى مجال التأثير القهرى الذى يمارسه الاقوى على الاضعف ، وأن الهدف من ورائه هو تحقيق مصالح الطرف الاقوى المسيطر على حساب الأضعف ، الا انه يختلف عنه فى انه يمارس فى دول مستقلة قانونا وذات سيادة وعلى الرغم من أن الاستقلال قد يكون اسميا الا أنه يعمل فى اطار

---

(١) ماجدوف ، الامبريالية : من عصر الاستعمار ... ، مرجع سابق ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

المحافظة عليه كرمز . وذلك بخلاف الاستعمار القديم الرسمى الذى طبق فى مناطق لم تحصل بعد على استقلالها أى لم تصبح فى عداد الدول من وجهة نظر القانون الدولى العام . هذا بالاضافة الى أن الاستعمار الجديد يعتمد أساسا على اساليب غير مباشرة فى التسلط ، وذلك كقاعدة عامة ولا يلجأ للتدخل المباشر الا على سبيل الاستثناء .

هذا ويعتبر دكتور كوامى نكروما (الرئيس الأسبق لغانا وأول رئيس لها عند استقلالها الذى كان فاتحة لاستقلال بقية الدول عامة والافريقية خاصة والذى تميز بزعامته الكاريزمية وبثورية وديناميكية نظامه السياسى) يعتبر من أهم الرواد الذين تناولوا موضوع الاستعمار الجديد بالتحليل ، حيث يرى أن الاستعمار الجديد اليوم يمثل الامبريالية فى مرحلتها النهائية التى ربما تكون أخطر مراحلها (١) . وجوهر الاستعمار الجديد فى رايه هو أن الدولة التى تخضع له تكون مستقلة نظريا ولها كل الأبعاد والمعطيات الخارجية للسيادة الدولية . ولكن فى الحقيقة وفى الواقع فان نظامها الاقتصادى وبالتالى نهجها السياسى يوجه من الخارج (٢) . وأساليب مثل هذا التوجيه تأخذ أشكالا متعددة : ومن الصور المتطرفة ان تقوم قوات الدولة الامبريالية بالتدخل بحامية فى اقليم الدولة الخاضعة للاستعمار الجديد وتسيطر على حكومتها . ولكن الأكثر شيوعا فان الاستعمار الجديد يمارس عن طريق وسائل اقتصادية ومالية : فالدولة الخاضعة له ربما تكون مجبرة على شراء البضائع المصنعة للدولة الامبريالية مع استبعاد المنتجات المنافسة من أى مكان آخر . والسيطرة على سياسة الحكومة فى الدولة التى يمارس عليها

(1) Kwame Nkrumah, Neo-Colonialism : The Last Stage of Imerialism, London : Thomas Nelson & Sons Ltd., 1965.

(٢) ففى قوله « ان جوهر الاستعمار الجديد هو استقلال نظرى للبلد التى يطبق نظامه عليها وسيادة دولية بكل مظاهرها اما نظامها الاقتصادى ودفتها السياسية فتوجه من الخارج » . انظر : كوامى نكروما ، الاستعمار الجديد : آخر مراحل الامبريالية ، ترجمة عبد الحميد حمدى ، القاهرة : دار القاهرة للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٣ .

الاستعمار الجديد ربما تضمن عن طريق مدفوعات لسد احتياجات ادارة الدولة أو مدها بموظفين عموميين يستطيعون ممارسة السيطرة من مواقعهم . وكذلك طريق الرقابة على الصرف عن طريق نظام مصرفى مسيطر عليه من جانب الدولة الاستعمارية . ونتيجة الاستعمار الجديد هو أن رأس المال الأجنبى يستخدم للاستغلال بدلا من ان يستخدم للتنمية فى الدول الاقل نموا فى العالم . فالاستثمار فى ظل الاستعمار الجديد يزيد بدلا من أن ينقص الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة فى العالم . والدولة فى ظل الاستعمار الجديد ليست سيدة نفسها مما يجعل الاستعمار الجديد ، كما يوضح نكروما ، يمثل تهديدا خطيرا للسلام العالمى . وهو يزكى الحروب المحدودة حيث الحرب الشاملة بين القطبين أصبحت فى حكم المستحيلة فى ضوء تبلور القوة النووية التدميرية - ومثل هذه الحروب مجالها الدولة التى لا تخضع للاستعمار الجديد بهدف التمهيد لاخضاعها له . كما يحول دون اتحاد الدول حتى يسهل اخضاعها . وباختصار فان الاستعمار الجديد فى رأى نكروما يعنى التبعية الاقتصادية للدول المستعمرة السابقة أو غيرها وما يلازمها من تحكم وسيطرة سياسية من هذه الدول الأقوى للأضعف من الدول النامية .

وقد تبلورت فى الستينيات والسبعينيات من هذا القرن ما عرف باسم مدرسة التبعية بفضل جهود الباحثين والمفكرين خاصة فى المجال الاقتصادى فى أمريكا اللاتينية مع انتقال الاهتمام الى أوروبا الغربية وخاصة بين الباحثين فى الدول الاسكندنافية بل وفى الولايات المتحدة الأمريكية . وان كان من الملاحظ أن معظم التحليلات والافكار انصبت على أمريكا اللاتينية فى محاولة لتبرير أوضاع التخلف بها مع ربطها بعلاقاتها بالولايات المتحدة الامريكية أو على وجه أدق علاقات السيطرة / التبعية بينها .

وتقوم مدرسة التبعية على محاولات تفسير العلاقة غير المتكافئة بين دول المركز الغنية المتقدمة ممثلة فى الدول الراسمالية خاصة ،

ودول المحيط أو الهامش (١) الفقيرة ممثلة فى دول العالم الثالث فى اطار ما عرف بالعلاقة بين الشمال والجنوب تاكيدا للاستعمار الجديد القائم لا على السيطرة المباشرة باعتباره عاملا خارجيا ولكن على السيطرة غير المباشرة عن طريق تاكيد وتدعيم المصالح بين مركز — المركز ، ومركز المحيط أى الاعتماد ليس فقط على العامل الخارجى ولكن على السيطرة من الداخل ايضا ، وذلك عن طريق **التحكم فى النسب والروابط التى تقوم عليها الهياكل الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية فى دولة المحيط** . وان كان التحليل الموضوعى فى اطار النظر الى الاستعمار كظاهرة عالمية يؤكد على أن علاقات التبعية فى اطار مفهوم الاستعمار الجديد لا تتميز بالخصوصية — حيث لا يجوز قصرها على منطقة واحدة هى أمريكا اللاتينية ولا على دولة بعينها هى الدول الرأسمالية حيث ان دول أوروبا الشرقية فى علاقاتها مع الاتحاد السوفيتى تدخل فى اطار مفهوم التبعية ، وذلك فى ظل الكومنكون والمحالفات الثنائية غير المتكافئة التى تربط بينها منذ الحرب العالمية الثانية حين كانت الجيوش السوفيتية تسيطر على أوروبا الشرقية (٢) . كما ينطبق الامر أيضا على علاقة الاتحاد السوفيتى كدولة متقدمة بالدول النامية التى ترتبط معها بعلاقات غير متكافئة .

وفى هذا المجال فان آراء جالتونج على وجه الخصوص تمثل أهمية خاصة كما سيرد تحليله .

---

(١) كما يطلق عليه ايضا الاطراف والتخوم «Peripherv»وجميعها تشير للدول المتخلفة الدائرة فى فلك تلك الدول المتقدمة الممثلة لمركز الاقتصاد العالمى .
لمزيد من المعلومات عن النظريات المختلفة عن التبعية والاستعمار الجديد ، انظر :
Wolfgang J. Mommsen Theories of Imperialism, London : Weidenfeld & Nicolson, 1980, pp. 113-141.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر : د . بطرس غالى ، السلام السوفيتى فى أوروبا الشرقية ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٥ .

المبحث الثانى : نظرية جالتونج الهيكلية فى الاستعمار (١) :

تدور آراء جالتونج فى الاستعمار حول مفهوم التبعية القائم على علاقات المركز بالمحيط أو الهامش والتى ترجع سبب تخلف دول العالم الثالث او دول الجنوب التى يطلق عليها عادة المتخلفة والتى يفضل تسميتها بالنامية الى انها لا تعيش فى فراغ بل فى عالم تمثل هى محيطه أو هامشه الفقير المستَغل من جانب مركزه الغنى المتقدم المستغل والمتمثل فى الدول الراسمالية خاصة الولايات المتحدة الامريكية ودول غرب أوروبا واليابان . وأن الفجوة بين المركز والمحيط لا تتناقص بل تتزايد بفعل ميكانيكية النظام نفسه حيث يتزايد الفقر من جانب والغنى من جانب آخر ، والتخلف فى جانب والتنمية فى آخر .

وان كانت آراء جالتونج تتميز عن مفكرى التبعية فى عدة نقاط : **أولها** : أنه يطبق نظريته فى الاستعمار الهيكلى ليس فقط على الدول الراسمالية بل أيضا على الدول الاشتراكية . **وثانيها** : انه لا يركز فقط على الجوانب الاقتصادية كما دأب المفكرون خاصة الماركسيون والماركسيون الجدد ، بل يتناول الانواع المختلفة للاستعمار معتبرا الاستعمار الاقتصادى أحد أشكال الاستعمار . **وثالثها** : انه لا يقتصر على تحليل الاستعمار قديما : فى شكله الرسمى ، وحديثا : فى شكله غير الرسمى ممثلا فى الاستعمار الجديد ، ولكن يتعداه برؤية مستقبلية للمرحلة التالية التى يتبلور اليها الاستعمار الجديد فى رأيه . وعليه فنظرية جالتونج تتمشى مع فرضيتنا الاساسية بأن الاستعمار ظاهرة عالمية فى الزمان والمكان .

---

(١) انظر :

Johan Galtung, «A Structural Theory of Imperialism», Journal of Peace Research, No. 2, 1971, pp. 81-116.

ومن الملاحظ أن جالتونج استخدم تعبير « امبريالية » فى كل تحليله ، وان كنا سنستخدم تعبير استعمار تمشيا مع ما سبق لنا توضيحه عند تحديد المفاهيم .

فآراؤه قائمة على أن هناك عدم مساواة كبيرة بين الدول وداخل الدول نفسها ، وذلك فى كافة جوانب ظروف المعيشة الانسانية بما فيها سلطة تقرير ما يتعلق بتلك الظروف المعيشية . حيث يتكون العالم من دول المركز ودول المحيط ، وحيث كل منها تمثل مركزا ومحيطا خاصا بها ، مع وجود علاقات بين مركز المركز ومركز المحيط ، وعلاقات أقل بين محيط المركز ومحيط المحيط : فضلا عن أن عدم المساواة هذا مستمر كما أنه مقاوم للتغيير : فاهتمامه ينصب على ميكانيكية هذا التفاوت الذى يمثل أحد صور نظام التسلط أى الاستعمار من جهة ، كما انه أحد أشكال العنف الهيكلى (١) من جهة اخرى . والعلاقة القوية بين مركز المركز ، ومركز المحيط وان كانت علاقة مصلحية الا أنها علاقة سيطرة وتسلط وهيمنة من الأول على الثانى .

وجوهر الاستعمار فى نظر جالتونج هو اتفاق المصالح والتقائها من جهة ، والتصارع فى المصالح والتناقض من جهة أخرى . حيث يعرف الاستعمار على أنه : « علاقة سيطرة بين المجموعات وبخاصة بين الدول » . فهو يعنى أنه « النظام الذى يقسم المجموعات ويربط أجزاء منها مع بعضها البعض على أساس تناسق المصالح وأجزاء اخرى على اساس عدم تناسق المصالح أو تصارعها » (٢) .

وقد أوضح جالتونج عدة معايير للاستعمار الهيكلى المتمثل فى أن دولة المركز هى قوة فى مواجهة دولة المحيط بحيث ينتج عنه وضع من عدم التناسق فى المصالح بينهما اذ يجب توافر ما يلى :

١ - أن يكون هناك تناسق مصالح بين المركز فى الدولة المركزية والمركز فى الدولة المحيطية أو الهامش .

---

(١) لمزيد من المعلومات عن العنف الهيكلى انظر :
Johan Galtung, «Violence, Peace & Peace Research», in Journal of Peace Research, No. 6. pp. 167-191.

(2) Galtung, «A Structurai Theory of Imperialism», op. cit., p. 83.

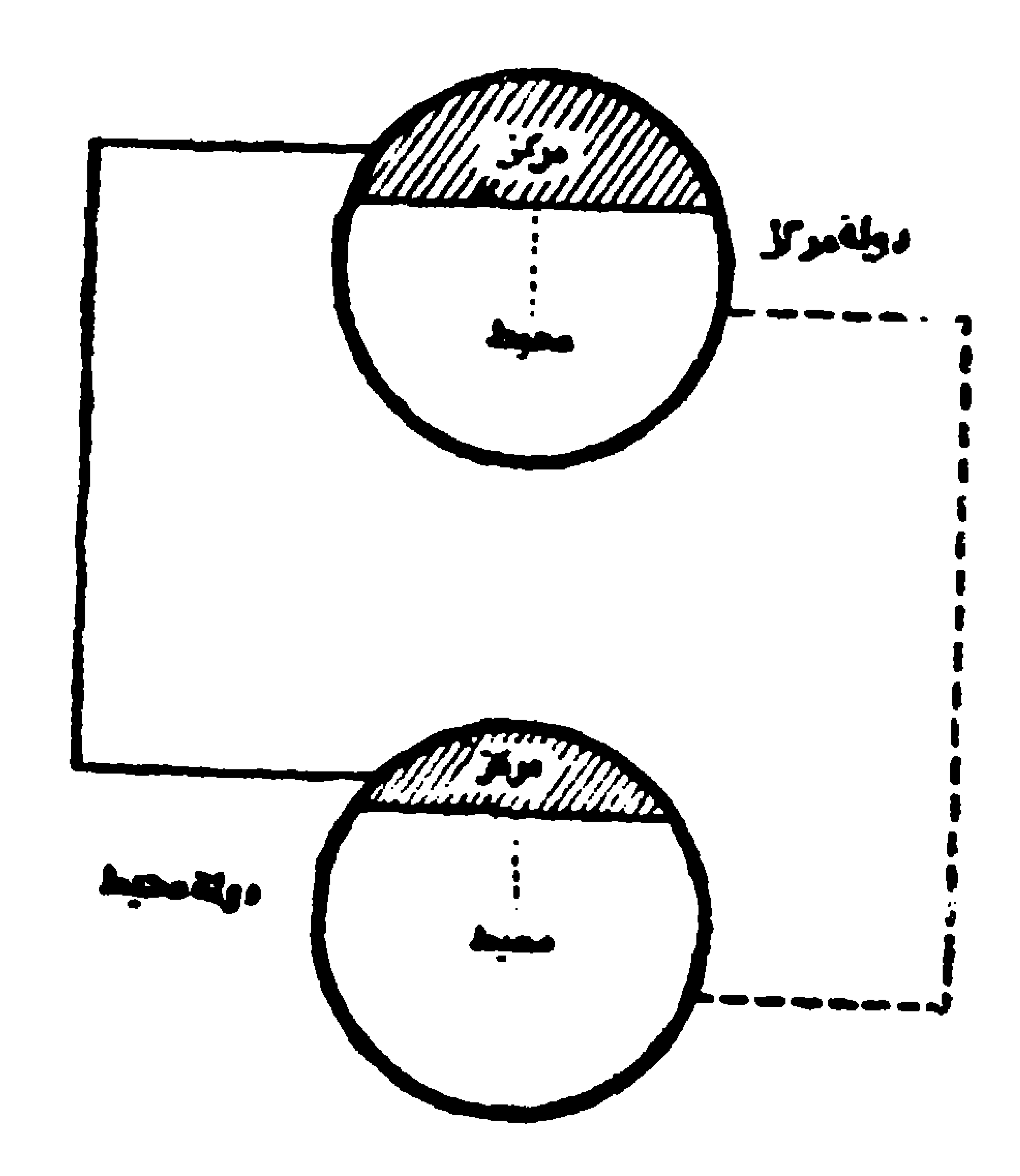
٢ - أن تكون درجة عدم تناسق المصالح داخل دولة المحيط أكبر منها داخل دولة المركز .

٣ - أن يكون هناك عدم تناسق فى المصالح بين المحيط فى دولة المركز والمحيط فى دولة المحيط .

حيث الأول يستوعب ولو جزئيا فى النظام ويصبح شريكا ، وان كان ليس على نفس درجة التكافؤ ، الا أنه على أية حال شريك .

والاساس هو وجود اتصال بين الاطراف حيث الانعزال أو الاستقلال لا يمكن من تحقيق ما سبق ذكره .

ويمكن توضيح هيكل الاستعمار كالتالى (١) :



توافق مصالح ————
اختلاف مصالح ....

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٨٤ « بتصرف » .

ويمكننا أن نصل من تحليل نظرية جالتونج الى النتائج التالية : فمن ناحية ، ان الاستعمار قائم على علاقة تفاعلية خارجيا وداخليا وليس على مجرد علاقة خارجية . ومن ناحية أخرى ، أن اساس العلاقة الاستعمارية قائم على أن دولة المركز المهيمنة التى تمارس الاستعمار تعتمد على رأس جسر بدولة المحيط هو مركز تلك الدولة المحيطية حيث تربط بينهما أقوى رابطة وهى رابطة التناسق والتوافق فى المصالح (١) . ومن ناحية ثالثة ، يمكننا القول أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه مركز المركز أن يستوعب مركز المحيط ـ بما ينتج عنه من تقبل الاخير لقيم الأول كأساس للاستيعاب وبالتالى تخليه عن قيمه الاصيلة ـ فان الامر يختلف بالنسبة لمحيط المحيط الذى تقوم العلاقة بينه وبين مركز المركز ومركز المحيط (فى دولته الأصلية) على التصارع حيث لا يوجد استيعاب اما لرفض المركز أو لرفض محيط المحيط ذلك ، نتيجة تمسكه بقيمه وعدم رغبته فى التخلى عنها واستبدالها بقيم المركز . فضلا عن الحقيقة الموضوعية والمادية للتقدم والتنمية فى جانب والتخلف بظروفه المختلفة فى جانب آخر . ولغرض التحليل فان جالتونج يبسط العلاقة التفاعلية بتطبيقها على دولتين فقط بما تتضمنه كل منهما . ومن ناحية أخيرة فان الاستعمار لا يتفهم الا من خلال وضعه فى اطار أوسع هو علاقات القوة والسيطرة باعتباره أحد أوجه السيطرة وليس كلها : بمعنى ان كل استعمار يعنى سيطرة ولكن العكس ليس بالضرورة صحيحا حيث الاخيرة أوسع من الاستعمار الذى يعتبر أحد أشكالها .

وقد أقام جالتونج نظريته فى الاستعمار على أن له ميكانيزمين وخمسة أنواع فضلا عن ثلاث مراحل :

ميكانيزمات الاستعمار : وهى الخاصة بالعلاقة بين الاطراف المعنية خاصة بين الدول وتتمثل فى :

أ ـ مبدأ علاقة التفاعل الرأسى .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

٢ - مبدأ هيكل التفاعل الاقطاعى ٠

ففى الوقت الذى يتعلق فيه المبدأ الاول بعلاقة التفاعل ذاتها ، فان المبدأ الثانى يتعلق بكيفية وضع تلك العلاقات مع بعضها فى هيكل تفاعلى اكبـــر ٠

وتتضح علاقة التفاعل الرأسى فى تفاعل أطراف العلاقة والذى يتم فى المواد الخام ورأس المال والسـلع الاقتصادية والخدمات حيث تجب مقارنة المكاسب : أى من الذى يكسب أكثر ؛ كما يجب ان تؤخذ فى الاعتبار آثار التبادل ومدى النفع العائد : أى الأثر الايجابى ، أو الضرر الناجم : اى الأثر السلبى ٠ بمعنى قياس كفاءة التفاعل لمعرفة الآثار الداخلية سلبية أو ايجابية ٠

وفى هذا المجال يوضح جالتونج ثلاثة أنماط من الاستغلال : كان ينهب طرف موارد طرف آخر عن طريق القهر والاجبار دون مقابل ، أو أن يستغل الموارد مع تقديم مقابل ، أو ان يؤدى تغير العلاقات فى النظام الدولى الى ازدياد قوة الطرف الثانى بحيث يمارس ضغطه على الطرف الأول بما يؤدى به الى أن يدفع المزيد فى مقابل المواد الخام ٠

ومبدأ التفاعل الرأسى فى رأى جالتونج هو المصدر الرئيسى لعـــدم المساواة فى العالم أيا كان الشكل أو النمط الذى تتخذه اشكال الاستغلال المختلفة : أى نهب بدون مقابل ، أو تبادل غير متكافىء أو تأثيرات متباينة بسبب الفجوة فى التصنيع ٠ وعدم المساواة هذا يؤدى الى التأثير المتراكم لظواهر هيكلية مثل ظاهر الاستعمار ٠

ولدراسة ما اذا كان التفاعل متناسقا أم غير متناســق ، قائما عــلى أسس متكافئة أم غير متكافئة ، فان هنـــاك عنصرين ناتجين عن التفاعل يجب بحثهما : الاول وهو قيمة التبادل بين الفاعلين - الآثار بين الدول ، والثانى الآثار داخل الفاعلين - الآثار الداخلية فى الدولة ٠

اما مبدأ هيكل التفاعل الاقطاعي : فهو الذى يقوى من الوضع السابق توضيحه ويحافظ عليه . وهناك أربع قواعد تحدد هذا الهيكل التفاعلى : (١)

١ - التفاعل بين دولة المركز ودولة المحيط : تفاعل رأسى .

٢ - التفاعل بين دولة محيط ودولة محيط أخرى : غير موجود .

٣ - التفاعل متعدد الأطراف بين المركز والمحيط ومحيط آخر : غير موجود .

٤ - التفاعل مع العالم الخارجى : محتكر بواسطة المركز . ويتضمن هذا أن تفاعل المحيط مع دولة مركز أخرى : غير موجود ، كما ان تفاعل المركز وكذلك المحيط مع دول المحيط المنتمية لدول مركز أخرى : غير موجود أيضا .

وهناك عدة نتائج اقتصادية مترتبة على هيكل التفاعل الاقطاعى وتتمثل فى التركيز على شركاء التجارة - حيث تجارة دولة المحيط محددة ومركزة مع دولة المركز وليس للاولى حرية الاستيراد والتصدير على خلاف الثانية التى تتمتع بحرية أكثر فى أى اتجاه تقريبا . وذلك باقامة علاقات تجارية مع دول المركز الأخرى (وان كان ليس لها حرية الحركة فى اقامة علاقات مع دول محيط تابعة لدولة مركز أخرى) . كما أن هناك تركيزا فى السلع تبعا لميل دول المحيط لان يكون لديها سلعة واحدة أو سلع قليلة جدا للتصدير - وهى اما الاكثر توافرا بها أو الأكثر احتياجا بالنسبة لدول المركز - الأمر الذى يؤدى الى تبلور هيكل اجتماعى معين وموازين محلية قائمة على تلك السلعة أو السلع التصديرية .

والتأثير المشترك لهاتين النتيجتين هو التبعية من جانب المحيط للمركز ، وحيث ان اجمالى الناتج القومى بالنسبة للمحيط أقل كثيرا فى العادة بالنسبة للمركز ، فان التجارة بينهما تمثل نسبة كبيرة من اجمالى الناتج

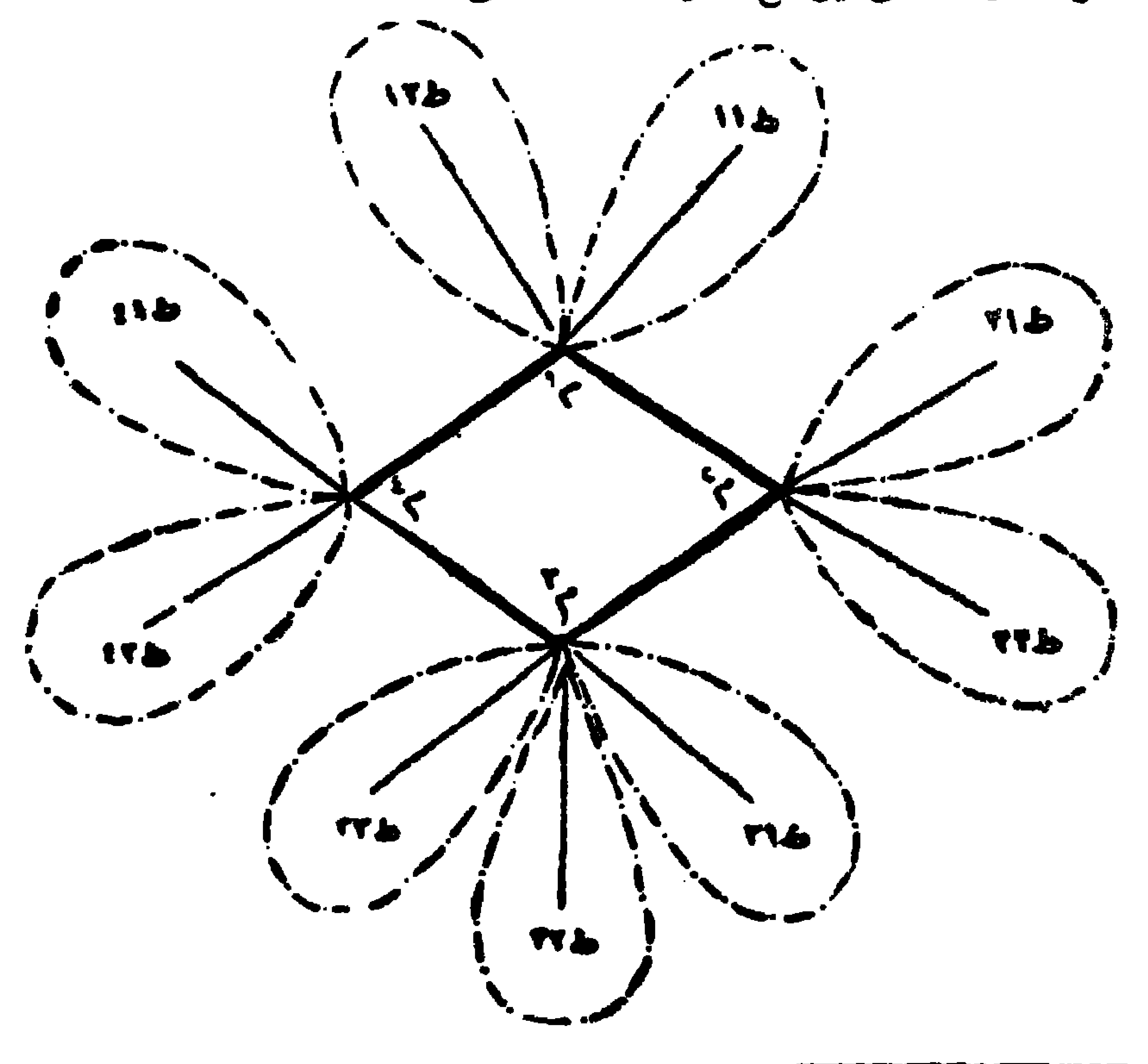
---

(١) المرجع السابق ص ٨٩ .

القومى بالنسبة للمحيط ، ومـع التركيز السـابق ذكره ـ سواء بالنسـبة لشريك التجارة أو السلع ـ فان دولة المحيط تكون معرضة للتقلبات فى الطلب والأسعار (١) .

ولكن أهم النتائج فى الواقع هى النتيجة السياسية التى تتمثل فى الاستخدام المنظم لهياكل التفـاعل الاقطاعى كسـبيل لحمـاية المركز من المحيط : حيث لا يخرج هيكل التفاعل الاقطاعى بلغة علم الاجتماع عـن المبدأ السياسى القديم « فرق تسد divide & rule » . فالقاعدة الأساسية التى تحكم هذا التفاعل هى : « ابق بعيدا عن الدول الدائرة فى فلكى وسأبقى بعيدا عن تلك الدائرة فى فلكك » . فالدولة الأم تصبح هى نافذة الدولة الدائرة فى فلكها على العالم فى نفس الوقت الذى تسعى فيه جاهدة لابعاد دول المحيط عن بعضها بعضا .

والشكل التالى يوضح الهيكل الاقطاعى :



(١) المرجع السابق ص ٩٠ .

والشكل يوضح كيف ترتبط دول المركز (م) مع بعضها بعضا بينما تقتصر علاقات دول المحيط (ط) بعلاقة كل منها بدولة المركز - الأم - بما يعطى شكل الزهرة بما لها من مركز وأوراق نابعة منه ومستقلة عن بعضها بعضا . وبالتالى يمكن أن نطلق عليه « نموذج الزهرة » (١) .

ويأخذ الميكانيزمين المذكورين المتمثلين فى مبدأى التفاعل الرأسى والاقطاعى معا وتطبيقهما ليس فقط على العلاقة بين الدول ولكن داخل كل دولة أيضا - أى بتطبيق المبدأين على مستويين : مستوى العلاقة بين الدول ومستوى العلاقة داخل الدولة نفسها - يتضح الهيكل الاستعمارى . ويوضح جالتونج كيف يؤدى هذا الى بناء شبكة دقيقة ماهرة من الاجراءات الحمائية ضد المصدر الأساسى المحتمل للمتاعب ، وهو المحيط فى دولة المحيط . وتتمثل أهم عناصر هذه الشبكة فى (٢) :

١ - الفقر العام فى المحيط بسبب التقسيم الرأسى للعمل داخل الدولة .

٢ - الطريقة التى يعاق بها تفاعل وتعبئة وتنظيم محيط المحيط بواسطة الهيكل القطاعى داخل دول المحيط .

٣ - الفقر العام لدول المحيط الناتج عن التقسيم الرأسى للعمل خاصة فيما يتعلق بوسائل التدمير والاتصال .

٤ - الطريقة التى يعاق بها تفاعل وتعبئة وتنظيم دول المحيط بواسطة هيكل التفاعل الاقطاعى بين الدول :

---

(١) هذا الايضاح والتحليل حاولنا به ابراز آراء جالتونج الذى حلل الهيكل الاقطاعى وأوجد أساس الشكل الموضح له ولكنه لم يبلور هذا النموذج .

(٢) المرجع السابق ص ٩١ .

(أ) يجعل من الصعب ابداء رد فعل من أى دولة محيط أخـرى تنتمى لنفس دولة المركز ٠

(ب) يجعل من الصعب التفاعل مع دول المحيط المنتمية لدول مركز أخـرى ٠

٥ ـ وعليه فانه من الصعب على المحيطات فى دول المحيط أن تتفاعل وتعبىء وتنظم وذلك داخليا (قوميا) بسبب ١ ، ٢ ودوليا بسبب ٣ ، ٤ ٠ فضلا عن ذلك بسبب كون المركز فى المحيط يحتكر التفاعل الدولى فى كافة الاتجاهات ولا يمكن الاعتماد عليه فى أن يتفاعل لصالح محيطه ٠

وينتهى جالتونج الى انه كلما كانت ميكانيكيات الاستعمار بين الدول وداخلها تعمل بفاعلية كلما قلت الحاجة لاستخدام القهر المفتوح ، وكلما كانت نسبة الجماعة المركزية صغيرة بالنسبة للسكان المعنيين ٠ ففى رأيه أن الاستعمار غير الكامل ، وغـير المتقن ـ استعمار الهواية كما يعبـر عنه ـ هو الذى يحتاج لأسلحة ، أما الاستعمار المحترف فهو الذى يقـوم على أساس العنف الهيكلى بدلا من المباشر ٠

أنواع الاستعمار (١) :

وقد عدد جالتونج أشكالا للاستعمار مع رفضه للمفهوم الماركسى فى الاستعمار الاقتصادى وحده ، حيث اعتبره أحد أشكال الاستعمار ٠ فهناك استعمار اقتصـادى ، واستعمار سـياسى ، واستعمار عسـكرى ، واستعمار اتصالى ، واستعمار ثقافى ٠

الاستعمار الاقتصـادى : حيث تتبلور الفجـوة بـين المركز والمحيط فى مجال التصنيع ويكون التبادل فى أشياء ذات طبيعة مختلفة ٠

---

(١) انظر ولمزيد من المعلومات ، المرجع السابق ص ٩١ ـ ٩٤ ٠

الاستعمار السياسى : ويكون مركز اتخـــاذ القــرار فى دولــة المركز مؤثرا فى المحيط حيث يتحتم على المحيط اتباع نفس نمط التنمية فى المركز .

الاستعمار العسكرى : حيث يتحتم استخدام التكنولوجيا الحديثـــة لتتمشى مع انشاء جيوش وحيث يقــوم المركز بتوفيرهــا فى المحيط وذلك الرئيسية ويستاثر فيها بنسبة أكبر من أنباء المحيط .

الاستعمار الاتصالى : يركز المركز عــلى ميكانيزم هيكل التفاعـــل الاقطاعى فى أنماط الاتصال حيث تدخل تكنولوجيا الاتصال كجزء من هيكل التجارة الرأسية بين المركز والمحيط وحيث يملك المركز شبكة الاتصــال الرئيسية ويستاثر فيها بنسبة اكبر من أبناء المحيط .

الاستعمار الثقافى : يوضح المركز كنموذج أمثــل يجب عــلى المحيط اتباع الانماط الثقافية التى يقدمها له . أما من الناحية العلمية فان المركز هو الذى يقوم بجمع المعلومات فى المجالات المختلفة ويشترك معه ، ولكن بنسبة أقل ، مركز المحيط .

أنواع الاستعمار وما تقدمه الدولة حسب مكانتها (١)

نوع الاستعمار ← / مكانة الدولة ↓	اقتصادى	سياسى	عسكرى	اتصالى	ثقافى
دولة المركز	طرق المعالجة ووسائل انتاج	قرارات وأنماط	حماية ووسائل تدمير	انباء ووسائل اتصال	تعليم ووسائل ابداع ذاتى
دولة المحيط	مواد خام وأسواق	طاعة ومقلدون	نظام ومعدات وبضائع تقليدية	أحداث ومسافرون وبضائع	تعلم واقرار التبعية

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢ « بتصرف » .

مراحل الاستعمار (١) :

أوضح جالتونج ثلاث مراحل للاستعمار تجمع بينها السيطرة على مركز المحيط وان اختلفت فى الأسلوب المستخدم من جانب المركز فى تحقيق التناسق بينه وبين مركز المحيط :

المرحلة الأولى : مرحلة الاستعمار التقليدى بمعنى الانتقال الفعلى للجيش الى أرض دولة المحيط : أى الاحتلال «Colonialism»

المرحلة الثانية : مرحلة الاستعمار الجديد «Neo Colonialism». الاستعمار غير المباشر حيث تتلاشى مرحلة الرغبة فى السيطرة المباشرة على الأرض ويبدو الاستعمار غير المباشر من خلال الاتصالات التى تربط بين مركز المركز ومركز المحيط أى بين المركزين فى دولة المركز ودولة المحيط والسيطرة فى شكل منظمات دولية أو الشركات متعددة الجنسية حكومية كانت أم خاصة . فكثير من المنظمات الدولية هى أدوات اتصال غير متكافئة من التعاون بين مركز المركز ومركز المحيط ومعظمها امتداد لنمط سائد فى دولة المركز (٢) .

(١) عن مراحل الاستعمار انظر المرجع السابق ، ص ٩٤ - ٩٨ .

(٢) ويبدو دور المنظمة الدولية كوسيط للسيطرة الاستعمارية فى رأيه وذلك من خلال : التواجد فى النطاق المحلى لدولة المحيط ، وارسال الممثلين خارجها كمجرد مد الجسور بينها وبين الدولة المحيطية . وقد يحدث هؤلاء تغيرا فى الهيكل الاجتماعى ، فضلا عن ظهور نخبة فى المحيط مع نخبة المركز . يضاف الى هذا انه فى ظل المنظمات الدولية هناك تقسيم للعمل : حيث توفر الشركة فى المحيط المواد الخام والاسواق للشركة الام فى المركز ، كما ان التكنولوجيا التى تقدمها شركة المركز هى تكنولوجيا قديمة فى المركز كما ان الشركة الام فى المركز تصدر القرارات التى على شركة المحيط تنفيذها فضلا عن أن البيئة العامة للتفاعل هى بيئة اقطاعية بين المحيط والمركز وهذا ليس لصالح المحيط .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستعمار الأجد (١) «Neo neo Colonialism» وهى مرحلة الاتصال المباشر حيث شبكات الاتصال سريعة التكوين متعددة المجالات والانتشار متكيفة مع الظروف الخارجية ·

فاساس الاستعمار اذن هو توافق النخبة فى المحيط وفى المركز فى كافة المجالات من اقتصادية وسياسية وعسكرية واتصالية وثقافية على أساس شبكة من المصلحة والصداقة المشتركة · وفى الحالة القصوى اتفاق تام بين المركز والمحيط حيث لا يوجد هناك مجال للحركة الثورية : فالكل يلعب الدور المرسوم · ولكن يحدث هذا بعد أن يتحول الاستعمار الى أنماط أخرى · ولا يوجد نوع من الاستعمار اساسى وخاص بذاته بل ان كل نوع منه يقوى الآخر ويخدمه : فالاستعمار السياسى يتحول الى اقتصادى بفرض شروط التجارة · ويتحول الاستعمار العسكرى الى اتصالى ، وذلك باقامة قيادة موحدة للاتصالات والمواصلات وجعل العاصمة فى الدولة المحيطية ميناء لتسهيل تصدير المواد الخام واستقبال السلع الاستهلاكية · ويتحول الاستعمار الاتصالى الى ثقافى بالتحكم من جانب المركز فى تدفق المعلومات ليس فقط فى شكل أنباء ، ولكنه أيضا فى شكل الكتب رخيصة الثمن وغيرها من المركز · ويتحول الاستعمار الثقافى الى اقتصادى من خلال عمليات المساعدة الفنية ووضع معايير واجراءات يجب اتباعها ـ وهناك عامة تغذية مرتدة ايجابية بين الأنواع المختلفة (٢) ·

وحيث أن جالتونج يعتبر أن الاستعمار قد يبدأ من أى مكان اذ انه فى رأيه لا يرتبط بدولة معينة ولا بنظام محدد ، فقد أكد على الطبيعة الاستعمارية للاتحاد السوفيتى الذى اعتبر أنه لا يختلف فى ذلك عن الولايات المتحدة الامريكية أو غيرها من القوى الاستعمارية ، ولتوضيح آرائه قام بعقد مقارنة بين الدور التسلطى لشركة جنرال موتورز باعتبارها

---

(١) وقد استخدم تعبير « الاستعمار الجديد الجديد » باعتباره المرحلة الاكثر تطورا للاستعمار الجديد الذى يميز المرحلة الثانية ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ·

شركة عملاقة متعددة الجنسية ، وبين الحركة الشيوعية العالمية . وذلك للتأكيد على نفس المراحل التى تمر بها كل منهما على الرغم من أن الاولى أساسا منظمة اقتصادية والثانية منظمة سياسية لم تنظم رسميا كمنظمة عالمية معتبرا هذه المراحل كمؤشرات لشرح الامبريالية الاقتصادية والسياسية (١) . مؤكدا على الحقيقة الموضوعية وراء التشابه والمتمثلة فى : وجود الدول القومية مع التفاوت بينها فى القوة وعدم قدرة أى منها على الانعزال ، وبالتالى العمل على تصدير انماطها للخارج بما يشبه المهام التبشيرية (٢) .

---

(١) انظر ولمزيد من المعلومات ، المرجع السابق ، ص ٩٥ ـ ٩٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

المبحث الثالث : أساليب الاستعمار الجديد :

بالنظر الى الدول التى تمارس ما يعرف بالاستعمار الجديد نجد انها قد تكون هى نفسها الدول الاستعمارية السابقة حيث كثيرا ما يتردد أن الاستقلال لم يعن فى كثير من الحالات سوى تغيير العلم والسلام الوطنى كرمز للاستقلال . ولكن المضمون والارتباط وحتى السيطرة الخارجية ظلت تمارس بصورة أو بأخرى وبدرجة أو بأخرى . « فالامبراطوريات الاقليمية اختفت ولكن لم تختف النزوة والاندفاعات التى ساعدت على بنائها ، وكذلك لم يختف نظام القوة وعلاقاته التى لعبت دورها » (١) . وفى الحقيقة فان السيطرة السياسية المباشرة عن طريق الاستعمار - والتى اصبحت مستهجنة ومرفوضة من حيث المبدأ - حل محلها السيطرة الاقتصادية غير المباشرة للاستعمار الجديد كما أطلق عليه . والنتيجة واحدة : وهى السيطرة الاستعمارية أو الامبريالية . وعليه فانه حتى العلم والسلام الوطنى ما هى الا « ستائر دخان ايديولوجية » (٢) تغطى استغلالا اقتصاديا أكثر ترشيدا فى العالم وتحقق مصالح الدولة الأقوى سواء أكانت استعمارية سابقة أو وريثة لها .

وبالتالى فان من أهم أساليب الاستعمار الجديد التسلط الاقتصادى من خلال المعونات الاقتصادية (٣) والشركات متعددة الجنسية ، والمد

(1) Thornton, op. cit., pp. 5-6.

(2) Smith, op. cit., p. 31.

(٣) لا تخلو كتابات أمريكا اللاتينية والدول الاشتراكية والماركسيين الجدد عامة من ادانة سياسة المعونات الاقتصادية على أنها المدخل الاساسى والركيزة التى تستند اليها الدول الرأسمالية فى تحقيق أهدافها فى الدول النامية .

وكثيرا ما يشار الى ادانة البنك الدولى للانشاء والتعمير على انه الوسيلة الجماعية لتحقيق الاستعمار الجديد فى اطار الامم المتحدة وتحت رايتها وذلك باسم المساعدة للدول النامية والموجهة أساسا من جانب الدول الرأسمالية الغنية المسيطرة على تلك الوكالة العالمية المتخصصة . لمزيد من المعلومات عن هذا الرأى انظر : ارنولد انوخكين ، معونة - أم استعمار جديد ، ترجمة صنع الله ابراهيم ، القاهرة : دار الثقافة الجديدة ، د.ت.

=

الايديولوجى والغزو الفكرى (١) الذى يسعى من جهة الى التغلغل فى العقول وتكييفها ، انطلاقا من قاعدة : « اذا أرهبك سلاح عدوك ، فافسد فكره ينتحر به » (٢) ، ومن جهة أخرى استنزاف أفضل الكفاءات وهجرتها ، والاهم هو أن الاستعمار الجديد يتغذى على عنصر أساسى داخلى هو الفئات والطبقات ذات المصلحة فى استمرار وضع السيطرة الخارجية الاجنبية بحيث تزكى مصالحها المالية حيث تنشأ طبقات مستفيدة من الاستثمارات الاجنبية وغيرها . هذه وغيرها من الأساليب التى تستتر فى اطار المحافظة على سيادة الدول التى تمارس فيها . ومن أهم أنماط واساليب الاستعمار الجديد الدول الدائرة فى فلك غيرها ـ وهى دول مستقلة قانونا ولكنها واقعيا تابعة لغيرها سياسيا واقتصاديا ـ والتبعية الاقتصادية والتبعية السياسية . كما يلاحظ أن التدخل المباشر المفتوح قد يستخدم أيضا ولكن على سبيل الاستثناء واذا فشلت الوسائل الأخرى وعادة ما يكون الهدف منه اقامة حكومة عميلة «Puppet Government» أو مساندتها . وهذا الأسلوب تتبعه تقليديا وحديثا الولايات المتحدة الامريكية فى أمريكا اللاتينية ، كما اتبعته فى فيتنام ومؤخرا فى غزو جرينادا سنة ١٩٨٣ ، وعلى الصعيد الآخر فان الاتحاد السوفيتى أيضا يتبعه : فليس بعيدا عن الأذهان غزو المجر سنة ١٩٥٦ ، وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ ثم أفغانستان سنة ١٩٧٩ .

ونظرا لأهمية الدور الذى تلعبه كل من معونة الغذاء كسلاح من

= ومن المراجع الاساسية فى المساعدات الاقتصادية ودورها ، انظر : د. رمزى زكى ، أزمة الديون الخارجية : رؤية من العالم الثالث ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

(١) لمزيد من المعلومات عن الغزو الفكرى والتبعية الثقافية انظر : د. على محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق ، أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى ، القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٨ . ود. عواطف عبد الرحمن ، قضايا التبعية الاعلامية والثقافية فى العالم الثالث ، الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٨٤ . وماجدة على صالح ، « الاستعمار الجديد فى المنطقة العربية » ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ .

(٢) الميدانى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

جهة ، والشركات متعددة الجنسية كوسيلة حديثة للتسلط من جهة أخرى ، فسنلقى ، وخاصة على الأخيرة ، المزيد من الضوء .

فمن أهم أبعاد المعونات الاقتصادية التى تقوم الدول الكبرى والأغنى باستخدامها هو سلاح معونة الغذاء حيث تعانى الدول النامية عامة من مشكلة الغذاء (١) ، وحيث الفائض فى كثير من المنتجات الغذائية التى تقوم الدول الأغنى باعدامها للتخلص منها حتى لا ينخفض سعرها فى السوق العالمية نتيجة زيادة المعروض منها ، يقابله فى الدول النامية مشكلة نقص الغذاء حيث بلغ عدد من يعانى من سكانها من نقص التغذية (الجوع الصريح) ٤٩٥ مليون نسمة خلال الفترة من ٨١ ـ ١٩٨٩ وفقا لآخر تقديرات الفاو . كما يموت سنويا من ١٥ ـ ٣٠ مليون طفل من التضور فى المتوسط (٢) . وتزداد المشكلة تفاقما بفعل الجفاف والقحط الذى شهدته الكثير من الدول خاصة فى افريقيا فى السنوات الاخيرة وبفعل الكوارث الطبيعية فى آسيا . وبالتالى يدخل سلاح الغذاء من أهم أبعاد ممارسة الاستعمار الجديد : وذلك باستخدامه كأداة للترغيب أو الترهيب وذلك بالمنح أو المنع (٣) . وترجع خطورة

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مشكلة الغذاء انظر : ماركوف ، مشكلة التغذية وسياسة الامبريالية ، مترجم الى العربية ، القاهرة : دار التقدم ، ١٩٧٥ . وعن أفريقيا انظر : المجاعة : هل هى كارثة من صنع الانسان ، تقرير للجنة المستقلة المعنية بقضايا الانسانية الدولية ، ترجمة مركز الاهرام للترجمة والنشر ، القاهرة : مؤسسة الاهرام ، ١٩٨٦ .

(٢) تقديرات منظمة الاغذية والزراعة العالمية (F.A.O.)
وعن مفهوم الفقر وأسبابه وخصائصه انظر : « التقرير لعام ١٩٨٣ » ، الصندوق الدولى للتنمية والزراعة ، روما ، فبراير ١٩٨٤ ، ص ٣٣ ـ ٣٩ .

(٣) ومن الامثلة الواضحة على استخدام المعونة وخاصة فى الغذاء كوسيلة للتسلط ، موقف الحكومة الامريكية من ائتلاف الوحدة الشعبية برئاسة الرئيس الليندى بعد وصوله للحكم حيث فرضت عليها حصارا اقتصاديا للاخلال بالاوضاع الاقتصادية والنظام السياسى ، الامر الذى عبر عنه السفير الامريكى فى خطابه الى هنرى كيسنجر فى سنة ١٩٧٠ بقوله : « لن نسمح لبندقة أو لبرغى بالوصول الى التشيلى ... وعندما يصل الليندى الى السلطة ، علينا أن نفعل كل ما بوسعنا للحكم على التشيلى والتشيليين بأقصى درجات الحرمان والفقر . وهى سياسة خططت للمدى البعيد لكى تعمل على تسريع مظاهر المصاعب فى المجتمع الشيوعى فى التشيلى » . =

استخدام سلاح الغذاء بالذات الى أنه يمس رجل الشارع العادى الذى قد لا يعنيه من أمر السياسة الا ما يمس قوته اليومى فكأن هذا السلاح له تأثيره العميق والمباشر على الاوضاع الداخلية فى الدول النامية .

الشركات متعددة الجنسية وعلاقاتها بالاستعمار :

من أهم الظواهر فى الوضع الدولى بعد الحرب العالمية الثانية وبصفة خاصة فى الستينيات هو انتشار الشركات متعددة الجنسية (١) ،

= ولكن سرعان ما تغيرت هذه السياسة التى طبقت بشدة وذلك بعد الاطاحة بالرئيس الليندى ومجىء الرئيس أوغوستو بينوشيت للحكم ، حيث انهالت المساعدات والدعم على تشيلى . انظر : ايزابيل ليتيلييه ومايكل مونت ، « دعم القمع : المصارف المتعددة الجنسيات فى التشيلى » ، فى مايكل تانزر وآخرين ، من الاقتصاد القومى الى الاقتصاد الكونى : دور الشركات المتعددة الجنسيات ، ترجمة عفيف الرزاز ، بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١ ص ١٣٧ . ولمزيد من المعلومات انظر ص ١٣٣ - ١٥٦ .

وبنفس المثل استخدم سلاح معونة القمح ضد مصر فى ظل الرئيس جمال عبد الناصر وانقلب الوضع بعد الانفتاح الاقتصادى فى ظل الرئيس السادات بعد ١٩٧٣ .

(٢) ومن أهم تلك الشركات : جنرال موتورز ، فولكس فاجن ، أى . بى . أم ، جنرال الكتريك ، فليبس ، ميتسوبيشى ، فورد ، فايزر ، كوكاكولا ، شل ، اكسون (وكانت تسمى ستاندرد أويل أوف نيوجيرسى كما كانت اكبر شركات النفط فى العالم) وتوماس كوك ، وأمريكان اكسبرس . والشركات من ناحية ملكيتها وادارتها اغلبها أمريكية ولكن منها أيضا بريطانية أو هولندية أو المانية أو فرنسية او سويسرية او ايطالية او كندية او سويدية او يابانية .

انظر ريتشارد ج . بارنيت و رونالد أ . مولر « مديرو العالم » فى تانزر وآخرين ، مرجع سابق ص ٢٦ . أما فى العالم العربى فان أهم الشركات متعددة الجنسية هى التى تعمل فى قطاع البترول حيث يمثل نحو ٩٠٪ من اجمالى الاستثمارات المباشرة فى المنطقة .

وفى الوقت الذى تحتل فيه الولايات المتحدة الامريكية المركز الاول فى كل من البحرين والمملكة العربية السعودية وليبيا ومصر والاردن ولبنان والكويت ، على التوالى ، فان فرنسا تحتل مكان الصدارة فى كل من الجزائر ، وموريتانيا ، والمملكة المغربية وتونس . أما المملكة المتحدة فهى تحتل المركز الاول فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية والسودان ، وأبو ظبى وقطر والعراق . أما ايطاليا فتحتل مكان الصدارة فى الصومال بينما تحتل هولندا مجال الصدارة فى سلطنة عمان .
=

والتى يطلق عليها كذلك الشركات عبر القومية - وهى التسمية التى استخدمتها الامم المتحدة أيضا (١) - حيث تتجاوز فى نشاطها الدولة القومية ، وتنتشر مرافق انتاجها ومواردها وأسواقها انتشارا كبيرا وواسعا فى كافة انحاء العالم بحيث أصبحت « الصناعة تتجاوز الجغرافية » . هذا و « يعلن مديرو الشركات العالمية العملاقة عن ايمانهم بأنه حيث فشلت الفتوحات يمكن للاعمال أن تنجح » (٢) على أساس أن تلك الشركات نجحت فيما فشلت الفتوحات العسكرية فى تحقيقه من ادارة العالم اذ أنها أوجدت ما يقارب التنظيم العالمى لادارته . وعلى هذا فهى توصف بأنها « أقوى عوامل تدويل المجتمع الانسانى » . فهذه الشركات العالمية تنظر الى العالم باعتباره وحدة اقتصادية واحدة ، وبذلك تعمل فى اطار اتساع السوق .

وعلى الرغم من أن الشركات الضخمة التى تنشر فروعها عبر حدود دولتها الام الى مناطق أجنبية تعد ظاهرة ليست بالحديثة فى التجارة الدولية : فهناك على سبيل المثال شركة الهند الشرقية ، والشركة الملكية الافريقية ، وشركة خليج هادسون لاستغلال موارد آسيا ، وافريقيا وأمريكا على التوالى (٣) والتى نشطت فى القرن ١٦ ، ١٧ الا أن تلك

=

وبصفة عامة فان الولايات المتحدة الامريكية تحتل المركز الاول فى الاستثمارات فى الوطن العربى بينما تحتل المملكة المتحدة المركز التالى لها . وهما معا تمثلان ٨٤٫٤٪ من مجموع الاستثمارات فى المنطقة .

انظر ولمزيد من المعلومات : د. مصطفى كامل السعيد ابراهيم ، الشركات متعددة الجنسيات والوطن العربى ، القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص ٦ ، ص ٣٧-٤٨ .

(١) انظر : Multinational Corporations in World Development. ST/ECA/190, New York, 1973.

(٢) بارنيت وموللر ، « مديرو العالم » مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٣) كانت الشركات العملاقة ومن أهمها تلك الثلاث المذكورة تمثل الصيغة المميزة للفترة الميركانتيلية . انظر ستيفن هايمر ، « الشركة المتعددة الجنسيات وقانون التطور غير المتكافىء » ، فى تانزر وآخرين ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

=

الشركات كانت محدودة النشاط باستغلال المواد الخام ، وعلى الرغم من ضخامتها الا أنها افتقدت العقل المدبر . أما ظهور الشركات متعددة الجنسية فيرتبط بالتقدم الصناعى والتراكم الراسمالى .

وهناك عدة ملاحظات بالنسبة لظاهرة الشركات متعددة الجنسية :

أولا : ان تعبير « الشركة متعددة الجنسية » تعبير حديث استخدم لأول مرة فى بداية الستينيات من هذا القرن (١) على الرغم من أن الشركات متعددة الجنسية ترجع فى وجودها الى أكثر من مائة عام مضت (٢) . وعليه فان التطبيق سبق التعبير الذى يكتنفه بعض الغموض ، والذى ينقضه الكثيرون الا انه شائع الاستخدام على الرغم من ذلك .

ثانيا : ان عدد تلك الشركات كان محدودا حتى الحرب العالمية الثانية ، كما أن أكثرها قوة وضخامة كان لا يتجاوز عدد فروعه اربعة على الاكثر وكان هذا هو شأن الشركة العالمية النموذجية حيث كانت قدراتها محدودة باستثناء شركات البترول (٣) .

=

ويوضح المرجع المذكور ان الشركة متعددة الجنسية تمثل نتاج الاتجاه لزيادة حجم المؤسسة الانتاجية منذ بداية الثورة الصناعية : من « ورشة » الى « مصنع » ، الى « شركة وطنية » الى « شركة متعددة الاقسام » ثم الآن الى « شركة متعددة الجنسيات » ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(١) بول م. سويزى ، « الشركات المتعددة الجنسيات والمصارف » ، فى تانزر وآخرين ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

(٢) تعتبر شركة سنجر أول شركة متعددة الجنسية فى العالم ، حيث قامت سنة سنة ١٨٦٥ ببناء أول مصنع لها فى الخارج - فى جلاسجو - مستخدمة نفس العلامة التجارية والاسم . انظر : محمد السيد سعيد ، الشركات متعددة الجنسية : وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .

(٣) ماجدوف ، الامبريالية : من عنصر الاستعمار ... ، مرجع سابق ، ص ١٧٨ .

وقد خصص ماجدوف فصلا كاملا من هذا المرجع لمعالجة الموضوع هو الفصل السادس وعنوانه « الشركة المتعددة الجنسيات والتنمية .. هل يتناقضان ؟ » .

ثالثا : ان نشاط تلك الشركات كان مركزا على المواد الخام ويتمثل اهمها أساسا فى شركات النفط وخاصة ستاندرد أويل (اكسون) ورويال داتش شل ٠

رابعا : بعد الحرب العالمية الثانية توسعت تلك الشركات وازداد عددها (حيث يقدر بثلاثمائة فى أمريكا ، و ٢٠٠ فى أوروبا الغربية واليابان) (١) وأصبحت هناك شركات فوق العملاقة ٠ وقد ساعد التقدم التكنولوجى على انتشار وهيمنة تلك الشركات بحيث أمكن لها السيطرة المركزية على عدد كبير من الفروع منتشرة جغرافيا فى أنحاء العالم المختلفة ٠ وقد وجد مثلا أن نحو ٢٠٠ شركة فوق عملاقة تمد فروعها فى أكثر من ٢٠ دولة (٢) كما أن بعضها (مثل شركة اكسون) يصل عدد فروعها الى ٣٠٠ فرع فى أكثر من ٥٠ دولة (٣) ٠

خامسا : ان نشاط الشركات العملاقة أصبح يركز بالدرجة الاولى على الصناعات التحويلية والاستثمارات المالية ، وهو فى الواقع قد امتد ليشمل كافة الانشطة الاقتصادية بما يشبه مروحة ممتدة ٠

سادسا : أن نشاط هذه الشركات من الضخامة بحيث يفوق رقم أعمال بعضها اجمالى الانفاق الحكومى لعدة دول مجتمعة ٠ كما أن معدل نموها يزيد عن معدل نمو الدول الاكثر تقدما بما فيها الولايات المتحدة الامريكية ٠ وعليه فان معدل نمو هذه الشركات يفوق معدل نمو دولها الأم (٤) ٠

---

(١) هايمر ، مرجع سابق ، ص ٧١ ٠
(٢) ماجدوف : الامبريالية : من عصر الاستعمار ٠٠٠ ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ ٠
(٣) سويزى ، الشركات المتعددة الجنسيات والمصارف ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ ٠
(٤) وبمقارنة المبيعات السنوية للشركات باجمالى الناتج القومى للدول عام ١٩٧٣ نجد مثلا ان شركة جنرال موتورز اكبر من سويسرا والباكستان وجنوب أفريقيا ، وبأن شركة رويال دتش شل أكبر من ايران وفنزويلا وتركيا ، =

ويساعدها فى هذا المجال استخدامها للتكنولوجيا الحديثة والصناعات المعتمدة عليها - خاصة صناعة السيارات والبتروكيماويات والالكترونيات - بما يحقق لها الهيمنة فى الدول المضيفة وكذلك معدل النمو المرتفع ٠

هذا ويقدر أن تسيطر ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ شركة عملاقة فى سنة ١٩٨٥ على ٨٠٪ من مجموع الممتلكات الانتاجية فى العالم خارج الدول الشيوعية (١) ٠ وتلك الشركات متعددة الجنسية يتزايد تاثيرها على الاقتصاد العالمى ، وذلك من خلال سيطرتها على تكنولوجيا الانتاج ، ورأس المال التمويلى والتسويق وهى المصادر الاساسية للحياة الاقتصادية (٢) ٠ وهى فى الواقع تقوم بتدويل الانتاج ، وتعد وحدات القرن العشرين

=

وان شركة اطارات جوديير اكبر من العربية السعودية ٠ كما ان معدل نمو العديد من تلك الشركات العالمية الناجحة يساوى ضعفى أو ثلاثة أضعاف معدل نمو الدول الصناعية الاكثر تقدما بما فيها الولايات المتحدة الامريكية ٠ ويقدر ان لدى الشركات العالمية سنة ١٩٨١ أكثر من ٢٠٠ مليار دولار من الموجودات المادية تحت سيطرتها ٠ ولكن الاهم هو قوتها فى تمويل الاقتصاد السياسى العالمى حيث تسيطر على وسائل تكوين الثروة على مستوى العالم بأسره ، بحيث ان قراراتها اليومية فى ميدان الاعمال ذات تأثير اكبر من قرارات اكثر الحكومات ذات السيادة وتمس أوجه حياة الافراد بصفة مباشرة ٠

كما يذكر تأكيدا لضخامة حجم هذه الشركات ان القيمة المضافة لنشاط كل من الشركات العشر الكبرى تعدت ثلاثة بلايين دولار عام ٧١ ، وهو ما يفوق الناتج الاجمالى لحوالى ٨٠ دولة مجتمعة ٠ أما القيمة المضافة لهذه الشركات مجتمعة وهو نحو ٥٠٠ بليون دولار سنة ٧١ فيمثل نحو ٢٠٪ من الناتج الاجمالى لدول العالم باستثناء الدول الشيوعية ٠

انظر ولمزيد من المعلومات : د٠ مصطفى كامل السعيد ابراهيم ، مرجع سابق ص ١١ - ١٣ ٠

(١) ريتشارد بارنيت ورونالد أ ٠ مولر ، « من الكونية الى مركز التسويق الكونى » فى تانزر وآخرين ، مرجع سابق ، ص ٣٧ ٠ انظر أيضا تانزر وآخرين ، ص ١١ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ ٠

النموذجية لمؤسسات الاعمال (١) باعتبارها ليست فقط مؤسسات انتاج ولكنها أيضا مؤسسات تجارية ومالية ٠

وهناك من لا يفضل استخدام التعبير الشائع للشركات متعددة الجنسية لأنه قد يعطى الانطباع أو الايحاء بوجود درجة ما من تدويل الادارة بغض النظر عن ملكية الاسهم ٠ والامر الذى يجب توضيحه هو أن هذه الشركات العالمية ـ أو الكونية كما يسميها البعض ـ ينظر اليها على أنها متعددة الجنسية أو عبر قومية او فوق قومية (٢) من حيث انها تتخطى فى نشاطها حدود الدولة ـ القومية (سواء وجدت هذه الاخيرة كحقيقة أو كرمز وهدف يسعى لتحقيقه) ، لا من حيث ملكيتها حيث الثابت أن تلك الملكية تخضع لنطاق دولة قومية واحدة (٣) ٠ فتلك الشركات تتضمن التوسع الى خارج الحدود الوطنية مع بقاء السيطرة الحقيقية فى المركز الرئيسى فى الدولة الأم ، أما الفروع فهى وان أعطيت لها بعض اللامركزية الا أنه ليس لها الفاعلية الحقيقية ٠ وبعبارة أخرى فان الشركة متعددة الجنسية وان كانت تمد أنشطتها فى دول مختلفة ، وبالتالى تخضع

---

(١) بول م ٠ سويزى ، « الشركات ٠٠ والدولية ٠٠ والامبريالية » مرجع سابق ، ص ١١١ ٠

انظر أيضا المصدر الاصلى فى :

Paul Sweezy, «Corporations, The State & Imerialism.» Monthly Review, Vol, 30, No. 6, Nov. 1978.

(٢) جميع هذه التعبيرات تستخدم كمترادفات والاختلاف هو فى التعبير المستخدم وليس فى المعنى ٠

لمناقشة التسميات المختلفة وتوضيح الاختلافات بينها انظر : محمد ابراهيم عبد الرحمن ، « سطوة الشركات متعددة الجنسيات على اقتصاد العالم » ، الاهرام الاقتصادى ، العدد ٨٠٣ ، ٤ يونيو ١٩٨٤ ، ص ٦ـ٨ ٠

(٣) هناك على سبيل الاستثناء شركتان هما « رويال دتش شل » و « يونيلفير » تعتبران مزدوجتا الجنسية حيث تتبعان فى ملكيتهما وسيطرتهما المملكة المتحدة وهولندا معا ٠

انظر : سويزى ، « الشركات المتعددة الجنسيات والمصارف » ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ٠

فروعها حيثما وجدت ، لتشريعات قومية متعددة ، الا أن القوة الاقتصادية الضخمة لتلك الشركة تمكنها من التغلب على هذا وممارسة هيمنة مركزية على فروعها بل والتاثير بطريقة أو أخرى على مقدرات الدول المضيفة الموجودة بها .

وكثيرا ما يشار الى أن المظهر الاساسى الاكثر أهمية وثورية كخصيصة للشركات متعددة الجنسية ليس هو حجمها الضخم وارتفاع معدل نمو نشاطها ولكن نظرتها الى العالم كوحدة واحدة (١) ، والنظر الى دورها على أنها ستحدث تغييرا عميقا فى نظام الدولة القومية التى مثلت الوحدة السياسية الأساسية فى العالم منذ عصر النهضة من نحو خمسة قرون : فهى ، كما يرى مديروها ، الخطوة الأساسية نحو نظام عالمى جديد . ولكن الواقع هو أن تلك الشركات العالمية تعتمد فى عملها على دولها القومية التى منها تنطلق فى نشاطها . الأمر الذى يثير التساؤل حول طبيعة العلاقة بينها وبين دولتها ومدى ارتباطها بالاستعمار .

يوضح التحليل المتعمق لتلك الشركات أن العلاقة بينها وبين دولتها الأصلية - الأم - هى علاقة تكافلية حيث تعتمد كل منهما على الأخرى اعتمادا شديدا : « فان الشركات تعتمد كليا على الدولة فى نفس وجودها ، فى حين أن الدولة بدورها تعيش على فائض ما ينتجه العمال ويراكمونه للرأسماليين ، أى للشركات بالدرجة الأولى » (٢) - وما يربط بينهما فى الواقع هو عامل المصلحة فى ضوء طبيعة كل منهما التوسعية : اذ ان عامل الربح بالنسبة لتلك الشركات يساعدها على أن تتوسع حيث تعتمد على اقتصاد النطاق أو المدى (٣) ، بينما الدولة الأم تدفعها طبيعة نظامها

---

(١) بارنيت ومولر ، « مديرو العالم ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .
(٢) سويزى ، « الشركات .. والدولة .. والامبريالية ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .
(٣) ويقصد به ان الصناعة لا تكون مربحة الا اذا كانت واسعة الانتاج . انظر لمزيد من المعلومات تانزر ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

الرأسمالى الى الميل للتوسع كما سبق توضيحه . وبهذا الصـــدد يؤكـد هارى ماجدوف حقيقة هذا الاعتماد المتبادل بقوله : « من هنا ، ومع تحول الشركات متعددة الجنسيات الى الشكل المسيطر فى النظـــام الاقتصادى ، تصبح المصلحة القومية ، هى حماية هذه الشركات ، أو كما يقول البروفسور روبرت ب . ستوبو من مدرسة هارفارد للاقتصـــاد « ان صحة اقتصاد الولايات المتحدة ، تعتمد ، والى حد مهم ، على الصحة الاقتصادية للشركات متعددة الجنسيات » . وطالما ان ازدهـار الدولـة يعتمد على ازدهار اقتصادها ، فان ذلك يعنى انه ليس هناك تناقض ، فى الأساس ، بين المصلحة القومية ومصلحة الشركات متعددة الجنسيات . فالشركات العالمية تحتـاج دائما الى دعـم دولتها الأم ، كمـا ان الدولة تحتاج الى شركات متعددة الجنسيات مزدهرة » (١) .

وطبيعـة تلك العلاقـة تبدو مـن تعريف بول ســويزى للامبريالية بقـوله : « الامبريالية هى العملية التى تساهم فيها الشركـات والدولـة معا كفريق واحـد لتوسيع نشـاطاتها ومصـالحها وقوتها الى أبعـد من حدودها » (٢) . ولا يعنى هذا بالضرورة أن تتوسع الدولة نفسها خـارج حدودها - حيث يتوقف هذا على طبيعة الظروف القائمة ولكن « يعنى ببساطة أن يصبح توسع رأس المال هو الهم الأول للدولة » حتى لا تتعرض للاضطرابات والأزمات التى تلحق بالمجتمع ككل على أساس أن بديل التوسع الرأسمالى « يتلخص فى تقلص تشنجى وأزمة متعمقة » (٣) . والشركات متعددة الجنسية ينظر اليهـا الكثيرون عـلى انهـا من أشـكال وادوات

---

(١) انظر ، ماجدوف ، الامبريالية من عصر الاستعمار .. ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سويزى ، « الشركات .. والدولة .. والامبريالية » ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٥ .

الاستعمار ، ومع أنها لا تمثل جوهره (١) الا أنهـا تعتبر صـيغة ملائمة لممارسته فهى تتلاءم مع التطورات الاقتصادية العالمية من جهة ، ومـع المحافظة المظهرية على الاستقلال القانونى للدول التى تمارس فيهـا نشاطها ، من جهة أخرى . وعليه فتلك الشركات نتاج لتطور الاستعمار باعتبارها أحد أثوابه الجديدة . كما يوضح هارى ماجدوف العلاقة بين تلك الشركات العملاقة والاستعمار بقوله : « فالشركة متعددة الجنسيات ، قد تمثل فعلا ، نظاما أكثر كفاءة . لكن السؤال هو : أكثر كفاءة من اجل ماذا ؟ ان تفـوق الشركـة متعددة الجنسيات هـو تفوق فى مجـال جنى الأرباح من قبل مؤسسات احتكارية ، أنشئت من أجل الاستغلال الأقصى للتسلسل الهرمى القائم بين الدول . بكلمات أخرى ، انها تمثل النظـام الامبريالى العالمى » (٢) .

ويرد هارى ماجدوف على الرأى القـائل بحتميـة الدور المتكـامل للشركات متعددة الجنسية تمشيا مع ازدياد الاعتماد المتبادل بين مناطق العالم بقوله : « تلعب الشركات متعددة الجنسـيات دور الشـيطان وليس دور المخلص . فهذه الشركات ، بغض النظر عن الادعاء القائل بانها ثمرة من ثمرات التكامل الضرورى بين جميع أجزاء العالم ، أنشئت ، فقط من اجل جنى الحد الأقصى للربح من هذا التكامل الاصطناعى الذى فرضـه التاريخ الطويل للاستعمار والامبريالية » (٣) .

ومن الجدير بالملاحظة أن هناك نمطين من تعدد الجنسية فى الشركات العالميـة :

---

(١) انظر ولمزيد من المعلومات : سويزى ، « الشركـات المتعـددة الجنسيات والمصارف » ، مرجع سابق ص ١٢٣ .
(٢) ماجدوف ، الامبريالية : من عصر الاستعمار ... ، مرجع سابق ص١٨٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

فالنمط الأول :يكون فى التغلغل المتبادل بين دول المركز المتقدمة (١) ، وهو لا يثير مشكلة كبيرة حيث انه قائم فى اطار دول متقدمة ذات هياكل اجتماعية واقتصادية وسياسية مستقرة ويكيفه أساسا مبدأ المعاملة بالمثل . فلا توجد مشاكل ملحة متعلقة بمعاملة رأس المال الأجنبى تختلف عن تلك الخاصة برأس المال المحلى . وحتى اليابان وان بدأت بشبكة معقدة من اجراءات الحماية — وهو ما يسمى بالنموذج المغلق للتنمية — الا أنها انتهت الى الانفتاح على رأس المال الأجنبى .

أما النمط الثانى : فهو يتمثل فى تغلغل وتوسع تلك الشركات من المراكز المتقدمة الى الأطراف المتخلفة فى ضوء العلاقات غير المتكافئة : حيث يتطلب توسع رأس المال بالمستوى الذى تحتاجه تلك الشركات الاحتكارية دعم دولها بل قوتها الممثلة فى جهدها الفردى أو من خلال المنظمات الدولية مثل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى للانشاء والتعمير (٢) . وذلك من أجل ايجاد مناخ ملائم للعمل (٣) أو ما يطلق عليه « مناخ

---

(١) سواء ما تم بعد الحرب من تغلغل تلك الشركات من الولايات المتحدة الى أوروبا الغربية أساسا وبنسبة اقل اليابان ثم التدفق العكسى فى السنوات الاخيرة من أوروبا الغربية واليابان بقيام المؤسسات التابعة لتلك الدول باقامة فروع لها فى الولايات المتحدة الامريكية .

(٢) سويزى ، « الشركات .. والدولة .. والامبريالية » ، مرجع سابق ، ص ١١٨ .

(٣) من الامثلة الواضحة المعروفة على ذلك موقف تلك الشركات متعددة الجنسية فى تشيلى فى ظل حكم الرئيس الليندى الذى اوقعت عليه الحكومة الامريكية حصاراً اقتصاديا قويا حتى تخلخل نظامه الاقتصادى والسياسى . وقد أوضح الرئيس الليندى موقف تلك الشركات بما يلقى الضوء على مضمون دورها الاستعمارى ، وذلك بقوله فى خطابه أمام الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٧٢ :

« اننا لا نقاسى من الحصار التمويلى فحسب ، بل نحن أيضا ضحايا عدوان واضح . وهناك شركتان تشكلان جزءا من النواة المركزية لشركات فوق قومية كبرى ، غرستا براثنهما فى بلادى ، وهما « انترناشينال تلغراف اندتلفون كومبانى » I. T. T. ، وكينيكوت كوبر كوربوريشن ، حاولنا تسيير =

استثمارى » (١) ويبدو ذلك من التدخل الذى قد يكون مباشرا اذا تطلب

=

حياتنا السياسية . الاولى « أى. تى. تى. » ، عبارة عن شركة ضخمة رأسمالها يفوق ميزانية العديد من دول أمريكا اللاتينية مجتمعة ، ويفوق ميزانيات بعض الدول الصناعية ، وقد بدأت منذ اللحظة الاولى التى بدأ فيها انتصار الحركة الشعبية فى انتخابات ايولول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، ممارسة أعمال شريرة لمنعى من تسلم منصبى كرئيس . وبين ايلول (سبتمبر) وتشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩٧٠ ، نفذت فى بلادى أعمال ارهابية خطط لها فى الخارج ، وذلك بمساعدة فئات فاشية محلية . كل هذا قاد الى اغتيال رينيه شنايدرشيريو ، القائد الاعلى للجيش ... وفى آذار (مارس) من هذا العام ، نشرت الوثائق التى تدين العلاقة بين هذه الاغراض الشريرة وشركة الـ « أى. تى. تى. » واعترفت هذه الشركة بانها كانت قد قدمت فى عـام ١٩٧٠ اقتراحات لحكومة الولايات المتحـدة توصى بتدخلها فى الاحـداث السياسية فى التشيلى . والوثائق المنشورة أصلية ، ولم يتجرأ احد انكارها . وفى تموز (يوليو) الماضى ، كان العالم قد اطلع بدهشة عـلى المظـاهر المختلفة لخطة جديدة للعمل قدمتها شركة « أى. تى. تى. » الى حكومة الولايات المتحدة بهدف قلب حكومتى خلال فترة لا تتعدى ستة أشهر . ان فى حوزتى وثيقة مؤرخة فى شهر تشرين الاول « أكتوبر » ١٩٧١ تحتوى على خطة تتألف من ١٨ بندا جرى الحديث حولها . لقد أرادوا خنقنا اقتصاديا ، وممارسة التخريب الديبلوماسى ضدنا ، وخلق حالة من الذعر بين السكان والتسبب فى اضطرابات اجتماعية تفقد الحكومة سيطرتها ، وعندئذ تقاد القوات المسلحة الى الغاء النظام الديمقراطى وفرض الديكتاتورية ... أيها الممثلون المحترمون ، اننى أمام الضمير العالمى اتهم شركة «أى.تى.تى.» بمحاولة اثارة الحرب الاهلية فى بلادى ، وهى الحالة القصوى للتفتت بالنسبة لأى بلد . وهذا ما نسميه تدخلا امبرياليا . ان التشيلى تواجه الآن خطرا لا يعتمد حله على الارادة الوطنية فحسب ، بل على سلسلة كاملة من العناصر الخارجية . وانى اتحدث هنا عن النشاط الذى تقوم مه شركة « كينيكوت كوبر كوربوريشن » . وقد قصد الرئيس الليندى بعبارته الاخيرة جهود تلك الشركة بعد تأميمها الى الضغط لفرض حظر على تسديد قيمة صادرات التشيلى من النحاس ـ وكانت ٨٠٪ من صادرات تشيلى فى يد شركات أجنبية .

انظر ، « خطاب سلفادور الليندى أمام الجمعية العامة للامم المتحدة » ، فى تانزر وآخرين ، مرجع سابق ، ص ١٩٩ـ٢١٧ انظر خاصة ص ٢٠٦ـ٢٠٨

(١) عن تعريف المناخ الاستثمارى وانواعه وقياسه انظر : محمد السيد سعيد ، مرجع سابق ، ص ٨٣ ـ ٩١ .

الحال من جانب الدولة فى حالة تهديد مصالح الشركات الاحتكارية (١) وذلك عن طريق الغزو العسكرى أو احداث انقلابات عسكرية تطيح بالحكومات المناوئة فى سياستها وتاتى بحكومات عميلة أو الاستخدام غير المباشرة للقوة عن طريق الدعم السياسى والعسكرى والمالى للحكومات العميلة التى تحقق سياسات تلك الشركات ومصالحها ، ومن ورائها مصالح دولها حتى وان كانت على حساب شعوب تلك الحكومات العميلة التى تعمل « كشرطة امبريالية دنيا فى أقاليمها الجغرافية » (٢) . كما تميل

---

(١) والشركات متعددة الجنسية مثلت اليد الخفية وراء العديد من الانقلابات العسكرية والمحاولات الانفصالية فى العديد من المناطق فى العالم : واذا كانت أزمة الكونغو ومحاولات اقليم كاتنجا الانفصالى ـ الامر الذى هدد كيان الدولة الوليدة فى بداية الستينيات ـ تحمل وراءها جهود الشركات الاحتكارية خاصة التعدينية التى تستغل موارد ذلك الاقليم الذى يمثل أغنى مناطق الكونغو (زائير حاليا) فان نفس النمط تردد فى جهود شركات العنب والنبيذ فى الجزائر حيث كانت وراء جهود المستوطنين الفرنسيين المدعمين للوقوف فى وجه استقلال الجزائر بالقوة . وبنفس المثل كانت شركات البترول وجهودها وراء الازمة الانفصالية فى بيافرا التى هددت كيان نيجيريا . وقد كانت شركات البترول فى ايران وراء حكومة الولايات المتحدة الامريكية فى الاطاحة بحكومة مصدق التى جرؤت على تأميم البترول فى أوائل الخمسينيات ، الامر الذى وان أعطى مؤشرا للتدخل السافر لدعم الشركات متعددة الجنسية وحماية نشاطها الا انه لم ينته . وفى امريكا اللاتينية فان النمط المتكرر هناك هو نشاط تلك الشركات متعددة الجنسية فى الاطاحة بالحكومات المناوئة ودعم الانقلابات العسكرية المتكررة : وليست تشيلى هى المثل الفريد فى نجاح تلك الشركات فى الاطاحة بحكم الليندى وفى التخطيط للانقلاب الفاشستى الذى نجح فى الاطاحة به . فهناك العديد من الامثلة السابقة واللاحقة من ذلك الاطاحة بحكومة جواتيمالا لتأميمها مزارع الموز فى بداية السبعينيات . ولا يقتصر دور تلك الشركات على محاولة الاطاحة بالنظم المناوئة لنشاطها ـ خاصة التى تتخذ خطا اشتراكيا أو شيوعيا ـ ولكن يتضمن أيضا دعم النظم المؤيدة لنشاطها الامر الذى يتكرر فى السعى للتاثير على الانتخابات بل وتقديم الرشاوى للمسئولين السياسيين ، واذا كانت فضيحة اللوكهيد مازالت ماثلة فى الاذهان بآثارها فى اليابان ـ حيث أدت الى استقالة رئيس الوزراء بها ـ وغيرها من الدول المتقدمة ، فالامر أكثر حدة فى الدول النامية حيث الرقابة على ممارسة السلطة ضعيفة وحيث الرغبة فى الثراء السريع واضحة مما أدى الى استخدام تعبير « بورجوازية الوظيفة العامة » .

(٢) سويزى ، « الشركات .. والدولة والامبريالية » مرجع سابق ، ص ١١٨ . انظر عن العديد من أمثلة التدخل لدعم تلك الشركات العالمية .

الدول الصناعية المتقدمة ليس فقط الى تدعيم شركاتها فى وجه الاختراق الأجنبى بل تعمل على التدخل المباشر بامتلاك وادارة المؤسسات الصناعية اذا اقتضى الأمر (١) .

ومع أن هـذه الشركات العملاقـة متعـددة الجنسية تمثل التراكم الرأسمالى الضخم حيث انها هى نفسها المراكمات الفعالة وحيث التراكم الرأسمالى هـو مفتاح التنمية كما تم فى الغرب ، الا أنها وان تكيفت مع ظروف الدول النامية - دول العالم الثالث - الممثلة للمحيط الا أن دافعها هـو الربح وليس التنمية . فهى تدخل فى اطار تحليل التراكم الرأسمالى الذى وان زاد الغنى فى جانب الا أنه يزيد الفقر فى الجانب الآخر - ولكن على المستوى الدولى . فهـذه الشركات ربحيـة بالدرجـة الاولى ، فهى بالتالى لا تنجذب الا الى القطاعات والمناطق التى تحقق فيها أقصى الارباح وتهرب حيث عدم الاسـتقرار : وهـو الامر الشـائع فى الدول النـامية . كما يلاحظ أن عامل الربح المحرك لتلك الشركات كثيرا ما يدفعها كظاهرة عامة متكررة فى الـدول النامية الى أن تنتشر فروعها مستفيدة فى بادىء الامر من التيسيرات المعطاة من جانب تلك الدول لجذب رؤوس الاموال للاستثمار ثـم تنسحب مصفية أعمـالها بعـد تحقيق الاربـاح وتحويلهـا للخارج وعند استنفاذ مـدة السماح المعطاة حتى لا تنتقص من ربحيتها بدفع الضرائب أو الرسـوم الجمركية التى تمتعت بالاعفاء منها فى فترة السماح : فكأنها تحجب - بما لهـا من امكانيات ضخمة - الحيـاة عن الشركات الوطنية الوليدة فى الدول النامية بما يؤدى الى وأدها ، وفى نفس الوقت تعود الافراد على نمط استهلاكى وعـادة على ارتفاع فى الاسـعار لمنتجاتها مما يجعله النمط السائد بعد رحيلها ومما يزيد من تفاقم مشاكل تلك الدول .

---

(١) ماجدوف ، الامبريالية من عصر الاستعمار ... ، مرجع سابق ، ص ١٨٣ . وهـو يوضح ان الدول الرأسمالية المتقدمة تمتلك ١٢ شركة صناعية رئيسية من بين ٢١١ شركة عملاقة تبلغ مبيعات الواحدة منهـا حوالى مليار دولار .

وقد أدى تزايد أهمية الشركات متعددة الجنسية فى دول العـــالم الثالث الى أن شهدت تلك الدول أوجه نشاط صناعى وتحويلى لم تكن معروفة بها من قبل بصفة عامة ، ولعل هـــذا ما دفع بعض علماء الاجتماع الغربيين بــل وبعض الماركسيين أيضــا الى القــول بأن هـــذه الظــاهرة تمثل بداية لتطور اقتصادى مستقل (١) .

والواقع أننا نتردد مع الكثيرين قبل التسليم بهذا التفسير حيث أن الرأى الغالب هــو أن هــذه الشركات لا تخلق بنشاطها اسواقــا جديدة لمــا تقوم بانتاجه ، ولكنها قاصرة عــلى تغذية أســواق قائمــة فعــلا ، بل وعلى أنواع معينة من هـــذه الأســواق : ففى الداخل تقتصر عــلى اشباع حاجات الاقلية المحلية ذات الدخول المرتفعة (البورجوازية المحلية وملاك الاراضى وموظفو الدولة والضباط) أما الغالبية ذات الدخــول المنخفضة فان علاقتها بهذه الشركات ليست كمستهلكين لمنتجاتها ، ولكن كمصــدر لليد العاملة الرخيصة التى تخدم أساسا تلك الاقلية البورجوازية عن طريق تخفيضها لتكلفة الانتــاج مما يخفض أسعاره ، أما فى الخــارج فتتحـــدد علاقات هــذه الشركــات بالأســواق الموجــودة بالـــدول التى ترتبط معها بعلاقة .

فضلا عــن ذلك ، فاذا أضفنا عــاملا آخر جديدا وهو ذلك الـــدور التنافسى الخطير اللامتكافىء الذى تلعبه هذه الشركات مــع الصناعــات المحلية فى العالم الثالث والذى ينتج عنه انتزاع أغلب عناصر الانتـــاج من هذه الصناعات لصــالح تلك الشركات لوجدنـــا واضحا أن التصنيع الرأسمالى الذى توجـــده هــذه الشركــات يتضمن فى داخلــه استغــلالا لا رحمــة فيــه للموارد البشرية واستنزافا للثروات القومية ، مما يتمخض عنه انكماش القطاع الوطنى وتراجع الاجــور الحقيقية الى درجــة كبيرة

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الرأى والرد عليه انظر : سويزى « الشركات المتعددة الجنسيات والمصارف » مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

قد تصل الى ما دون حد الكفاف . وعليه فيمكن القول بأن دور هذه الشركات بالنسبة للدولة المضيفة واقتصادها يكون ايجابيا اذا كان تكامليا مع الصناعات القائمة ، ولكنه يكون سلبيا اذا كان تنافسيا معها أو احلاليا لها (١) .

ولعل ما أشرنا اليه هو ما يجعل النموذج المذكور ـ اذا ما اعتبرناه تطورا اقتصاديا ـ يتناقض تناقضا كبيرا مع التطور الاقتصادى فى الدول الرأسمالية اذ نجد فى هذه الاخيرة الاسواق المتسعة القائمة على انتاج السلع الرئيسية وتزايد الاجر الحقيقى للعمال ، أما فى دول العالم الثالث فنجد أن السلع الكمالية والصادرات يلعبان الدور الاساسى ، اذ تقوم كل منهما بدور السبب والنتيجة للاخر : فالصادرات يتولد عن حصيلتها الحصول على السلع الكمالية بينما الرغبة الجامحة فى الحصول على الاخيرة تولد الدافع الى الزيادة فى الصادرات وينتج عن ذلك التبعية بأشكال مختلفة : تبعية استهلاكية تتمثل فى تقليد النمط الاستهلاكى ، وتبعية ثقافية وتبعية تكنولوجية ، وهذه التبعية بدورها تساعد على ظهور خاصية أخرى لهذا النموذج وهو النمو السريع للسياحة التى تصبح من أكثر القطاعات جاذبية للشركات متعددة الجنسية : شركات الفنادق وشركات الطيران ، وهى فى ذلك تعمل فى نفس اتجاه الصناعات التصديرية ، اذ تقوم فى العادة بتصدير ما تحققه من أرباح بالعملة الأجنبية ، وفى نفس الوقت تساعد على تكريس هذه التبعية بأشكالها المختلفة .

ويظهر ذلك عادة بين أفراد الطبقة البورجوازية الوطنية اذ يتحول بعضهم عن انتمائه الوطنى الى خدمة المصالح الأجنبية ، فهى تعمل على خروج أغلب الانتاج المحلى فى شكل أرباح معادة أو تصدير سلعى أو

---

(١) من الجدير بالتنويه اننا استخدمنا تعبير « الشركة متعددة الجنسية » ، وفى نفس الوقت احتفظنا بتعبير « الشركة المتعددة الجنسيات » الذى استخدمته بعض المراجع ، وذلك عند الاشارة لتلك المراجع .

خدمة للديون الخارجية ، وفتح حسابات فى المصارف الاجنبية هربا من حالة عدم الاستقرار التى تسود دولهم ٠

الا أننا نلاحظ فى بعض دول العالم الثالث - دول النفط - زيادة سريعة ومطردة فى الناتج القومى مع ركود فى الأوضاع المادية للأفراد - ويرجع ذلك فى الواقع الى أن نمو الصناعات التصديرية - البترول ومشتقاته - علاوة على تلويثها للبيئة لا يحتاج الا الى عدد قليل من الوطنيين ، أما باقى العمال وكذلك الفلاحين فلا فائدة تذكر تعود عليهم منها (١) ٠

ويؤكد هارى ماجدوف على الاثر السلبى لتلك الشركات متعددة الجنسية بقوله : « ان تركيبة واستراتيجية هذه الشركات تولد اختراقا أكثر للمستعمرات السابقة وتؤثر بقوة فى سير تطورها ، أو انها بشكل أدق تؤخر نموها » (٢) ٠٠ كما يوضح هايمر نفس المعنى بقوله : « وتماما كما ربطت القوى الاستيطانية فى السابق بين كل نقطة فى الأراضى الداخلية والمراكز المتروبولية وعرقلت الاتصالات الجانبية مانعة نمو مراكز مستقلة لصنع القرار والابداع - فان الشركات المتعددة الجنسيات (التى تدعمها الدولة) تركز السيطرة بفرض نظام تراتبى » (٣) بمعنى أنه يقوم على اللامساواة ويدعم التطور اللامتكافىء ٠

أما عن المصارف متعددة الجنسية فهى أيضا ظاهرة غير جديدة

---

(١) بهذا الصدد وصف الرئيس البرازيلى الاسبق هذا الموقف اذ قال : « ان الاقتصاد فى بلاده أحسن حالا اما السكان فلا » وفى الواقع كان الناتج القومى البرازيلى منذ الانقلاب العسكرى عام ١٩٦٤ غالبا ما يصل الى ١٠٪ أو أكثر وهذه النسبة تعتبر من اعلى معدلات النمو فى العالم فى هذا الوقت ، ومع ذلك فقد انخفضت الاجور الحقيقية خلال الفترة نفسها بين ٣٠ ، ٤٠٪ ٠

(٢) ماجدوف ، الامبريالية : من عصر الاستعمار ٠٠ ، مرجع سابق ، ص ١١٥ ٠

(٣) هايمر ، مرجع سابق ، ص ٧٦ ٠

حيث كانت المصارف مركزة فى لندن ــ التى عرفت بعاصمة المال فى العالم ــ وانتشرت منها الى كل انحاء الامبراطورية ، وفى أجزاء كثيرة من العالم التابع مثل أمريكا اللاتينية . وكان دورها الاساسى وحتى الحرب العالمية الثانية ، هو خدمة المصالح البريطانية والادارة الاستعمارية البريطانية وموظفيها ، ولكن هذه الوظيفة قد أخذت شكلا وبعدا جديدين بعد الحرب العالمية الثانية مواكبة نشوء وتطور ظاهرتى اليورودولار ، والبترودولار (١) . ونتيجة لتفشى هاتين الظاهرتين بزيادة حجم الودائع الدولارية مارست تلك المصارف أثرا خطيرا على الاقتصاد القومى فى الدول التى انتشرت فيها هذه الودائع اذ تميزت هذه الودائع بالسرية ــ عكس العملات المحلية لهذه الدول ــ وبالتالى خرجت عن نطاق ادارة النقد فيها ، مما أطلق العنان لمضاعف الائتمان حيث أصبح يعمل بدون ضابط يحد من خطورته ، وكان من نتيجة ذلك قيام هذه المصارف باقراض المواطنين مبالغ كبيرة ، مما شكل ضغطا تضخميا متزايدا على الاقتصاد

---

(١) ومنشأ ظاهرة الودائع الخارجية بالدولار (اليورودولار) هو قيام الاتحاد السوفيتى بعد الحرب العالمية الثانية بشراء كميات كبيرة من الدولارات وتفضيله ايداعها فى بنوك لندن وكانت النتيجة ان بدا عجز ميزان المدفوعات الامريكى فى الظهور بصفة دائمة ، وذلك لزيادة حجم الدولارات الخارجة من الولايات المتحدة عن الداخلة اليها . وهذا ما دفع البنوك الامريكية الى فتح فروع لها فى لندن وفى أماكن أخرى خارج الولايات المتحدة بهدف جذب الودائع الدولارية واعادة اقراضها لمقترضين امريكيين وغير أمريكيين .

أما البترودولار فظهر بعد عام ١٩٧٣ وما صاحبه من ارتفاع كبير فى أسعار البترول ، الامر الذى ضاعف من تدفق الدولار خارج الولايات المتحدة وغيرها من الدول الى الدول المصدرة للنفط وخاصة دول الشرق الاوسط ، وبالتالى ظهرت ودائع دولارية تزايد حجمها بمعدل سريع متزايد مما جعل البنوك تمتد بفروعها الى هذه الدول ، وبذا ظهرت مجموعة البترودولار لتضاف الى اليوردولار .

انظر ، سويزى ، « الشركات المتعددة الجنسيات والمصارف » ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ــ ١٣١ .

المحلى ، وفى نفس الوقت تمارس هـذه المصارف متعـددة الجنسـية أثرا سلبيا على البنوك المحلية فتزيد من انكماش معاملاتها بقدر توسع عملياتها هى اذ أنها بما تميزت به من ثقة عالمية أصبحت لها الافضلية فى تعاملات المواطنين فى هذه الدول المضيفة ومركز جاذبية لمدخراتهم .

فضلا عن ذلك قـامت هـذه المصـارف متعـددة الجنسـية باقراض مبالغ ضخمة لدول تعانى بصفة عامة من مشـكلات فى موازين مدفوعاتها حتى وصل الامر بكثير منها - بمـا فيهـا دول متقدمة مثل ايطـاليا - الى الحد الاقصى للاقتراض الخارجى أو ما يقرب منه ، وأدى ذلك الى نتيجتين : أولهما ، ازمة فى الدولة المدينـة نتيجة عجزها عن الوفـــاء بديونها وبالتالى عجزها عن استيراد مـا تعودت الاعتمـاد عليه من سلع ، وثانيهما ، ازمة فى المصارف متعددة الجنسية نفسها بسبب عـدم تمكن المقترضين من السداد مما قد يؤدى الى تفجر انهيار عام لنظام الائتمان والمدفوعات الدولى .

وأخـيرا فاننا نجـد فى الدولـة الأم - الولايات المتحدة بالذات - نتيجة أخرى نشأت عن زيـادة أرباح مصارفها عن اعمالها عبر البحار (١) اذ أصبح الاقتصاد الأمريكى على درجة عالية مـن الحساسية تجـــاه الأوضاع الاقتصادية الدولية والاضطرابات فى ميكانيكية الحركة النقدية .

وما يعنينا فى هـذا المجال هو أن المصارف متعددة الجنسية ، بما لها من ثقل دولى وبالتالى استحواذها على الثقة العالمية ، قادرة على جذب المدخرات : ولكن بدلا من أن تجذبها لمصلحة الدولة التى توجـد بهـا فانها تجذبها لمصلحتها وتصـدر أرباحها للخارج فهى فى النهايـة تخـدم

---

(١) مثال ذلك نجد « سيتى بنك » - وهو ثانى أكبر المصـــارف الامريكية - ان ٨٠٪ من أرباحه تأتى من القروض الخارجية التى يتم أكثرها عبر الفروع فى لندن وسنغافورة وبنما وجزر البهاما وغيرها ، كما يمكن لهذه المصارف أن تنشىء فروعا ومصارف تابعة حرة من الضوابط ولا تخضع لأى قيد ، اللهم الا لضرائب بسيطة غير مؤثرة .

مصالحها الذاتية ومصالح دولتها الأم بدلا من مصالح الدولة المضيفة ويبدو هذا بوضوح فى الدول النامية .

ونظرا لتعدد الآثار السلبية للشركات والمصارف متعددة الجنسية خاصة فى الدول النامية فقد سعت بعض تلك الدول الى اقامة الشركات والمصارف المشتركة التى تدخل طرفا فيها بما يضمن لها امكانية ابداء الرأى والسيطرة الجزئية على مقدراتها للحد من تلك الآثار .

ومن ناحية أخرى فان الرأى الغالب والذى يتردد ، خاصة فى كتابات الماركسيين الجدد هو أنه لا خلاص للدول النامية من مشاكلها فى التنمية ولا خلاص للخروج من سيطرة تلك الشركات الرأسمالية المهيمنة الا بالخروج على النظام الرأسمالى وكسر حلقاته بالتنمية المستقلة ، وذلك بخلع « قميص تقييد الحركة » وفقا لتعبير بول سويزي (١) ولكن المشكلة ليست فى التنظير ولكن فى التطبيق العملي فاذا نحن سلمنا جدلا بوجاهة هذا الرأى الا أن السؤال الذى يصعب الاجابة عليه عمليا هو ، هل الدول النامية بكل ظروفها الموضوعية وخاصة ظروف التدخل الخارجى فى اطار علاقات التبعية تستطيع بالفعل القيام بذلك ، وحتى اذا هى أرادت ذلك فهل ستترك لها الدول الخارجية المتقدمة امكانية تحقيقه ؟

---

(١) سويزى ، « الشركات .. والدولة .. والامبريالية » ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

انظر أيضا : بول سويزى وآخرون ، الامبريالية : وقضايا التطور الاقتصادى فى البلدان المتخلفة ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٠ .

من المراجع الأساسية فى مجال الشركات متعددة الجنسية ، انظر :
د . محمد السيد سعيد ، الشركات عابرة القومية : ومستقبل الظاهرة القومية ، عالم المعرفة ، ١٠٧ ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، نوفمبر ١٩٨٦ .

الفصـــــل الختـــامى

ورطـــة التبعيـــة

ان الجدل الدائر حول القول بأن : الاستعمار لـم ينته رغم تصفيته رسميا ، يدخل كما سبق ذكره فى مجال الاستعمار الجـديد أو التبعية . حيث أصبحت دول العالم الثـالث ، ليسـت فقط معتمدة وانمـا تابعـة للنظام الاقتصادى الدولى الـذى تسيطر عليـه الدول المتقدمـة ، سـواء بالنسبة للأسواق ، أو التكنولوجيا أو التمويل او حتى المـواد الغذائية الأساسية ، الى حـد أن هـذه الدول الاقل نمـوا اصبحت وكانها معلقـة بخطاف : بحيث أنها لا تستطيع أن يكون لها كيان مع تبعيتها ، كما انها لا تستطيع أن يكون لها كيان بدون هذه التبعية (١) . فمن ناحية انهـا لا تستطيع أن يكون لها شأن أو كيان مع تبعيتها فذلك لأن دورها ونمط ادماجها فى النظام العالمى وفقا لتقسيم العمل الدولى اتجه الى ابعـادها عن التصنيع مع تركيزها على انماط التنمية الأقل ديناميكية المرتبطة بالزراعة والصناعات الاستخراجية (القطاع الأولى) . واذا تم تصنيع ما فهو يتم عـادة تحت سيطرة شركات ومؤسسات متعددة الجنسية ومقرهـا فى الغرب . وهى عـادة ما تحقق فوائد من التنظيم والتسويق وتحصل على فوائد أكثر كثيرا مما تعطى بحيث تجعل تطور الصناعة المحلية التى تعضد نفسها أمرا مستحيلا . وفى نفس الوقت فان نظرية التبعية ترى أن التخلص

---

(1) Smith, op. cit., p. 30.

وقد اتخذت الصين موقفا من الاستعمار الجديد يؤكد على أنه ظاهرة عالمية . وقد عبر عن موقفها الرسمى هذا ممثلها فى الندوة الافريقية الآسيوية فى الجزائر عام ١٩٦٥ بأن الاستعمار الجديد هو : « العلاقة القائمة بين الدول النامية والدول الاستعمارية الغنية أيا كان نظامها الاقتصـادى أو لونها السياسى » .

انظر : د. بطرس غالى ، « المساعدات الاجنبية والاستعمار » ، الاهرام الاقتصادى ، عدد ٢٣٢ ، ٢٥ ابريل ١٩٦٥ ، ص ١٤ .

من النظام العالمى والانقطاع معه كعلاج ضرورى ، لا يتوافر فى الواقع لمعظم تلك الدول حديثة الاستقلال التى على الرغم من معاناتها الا أن اعتمادها على اقتصاديات الغلة الواحدة يملى عليها الاستمرار فى النظام الدولى الذى تعانى منه . وبالتالى فانها من ناحية أخرى لا تستطيع أن تستمر ويكون لها كيان بدون تبعيتها .

أما الدول التى تربطها علاقة تبعية بالاتحاد السوفيتى فهى ليست افضل حالا من تلك التى ترتبط بالدول الرأسمالية : فحقيقة الاستغلال واحدة وان كانت ترشد خلف ستار أيديولوجى لصالح الاتحاد السوفيتى : الدولة الأب كما يطلق عليها البعض .

وباختصار فان التبعية أو الاعتمادية كما يحلو للبعض تسميتها تنمو فى ظل علاقة قوة غير متكافئة أو متناسقة عالميا كما تستخدم تلك التبعية فى تخليد هذه العلاقة التى لا تستطيع الدول الاقل نموا أن تهرب منها الا بصعوبة (١) .

فالتبعية سبب ونتيجة للعلاقة غير المتكافئة عالميا بين الاقتصاديات والدول الأغنى والاقتصاديات والدول الافقر حديثة الاستقلال ، وهى علاقة يصعب الهرب منها بفاعلية . فالدول النامية يمكن أن يقال انها فى ورطة : ورطة التبعية ، وهو التعبير الذى وضعناه ليعبر بحق عن طبيعة وضعها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .
ومن المراجع العربية التى تناولت موضوع التنمية والتبعية بالتحليل ، انظر : د. جلال أمين ، تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية ، القاهرة : مطبوعات القاهرة ، ١٩٨٣ .
د. السيد الحسينى ، التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، دار المعارف ، ١٩٨٤ .
وأحمد محمد عبد الحمية ثابت ، « علاقات التبعية وأزمة التنمية فى العالم الثالث : مصر كدراسة حالة » رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم العلوم السياسية ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ .

وهناك فى الواقع عدة حقائق موضوعية يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند بحث موضوع الاستعمار الجديد أو التبعية :

- فالدول حديثة الاستقلال معظمها مصطنعة بحدود مصطنعة والاستعمار أسهم فى تجزئة ان لم يكن بلقنة المناطق التى كانت مستعمرة عامة ، وأفريقيا وجنوب شرق آسيا خاصة ، وانتهى الامر الى خلق العديد من الدول الصغيرة أو حتى القزمية التى لم يكن لها فى كثير من الحالات وجود قبل الوجود الاستعمارى والتى يصعب التعرف على الكثير منها على خريطة العالم ، وان كان الوعى القومى قد أسهم فى تزكية القومية على المستوى الجزئى . هذه الدول فى معظمها تفتقر للمقومات اللازمة لاستمرارها ككيانات مستقلة - اذ أنها لا تتوافر لديها الامكانيات سواء السياسية أو الاقتصادية - مما يترتب عليه بالضرورة اعتمادها على الخارج وعلى الأخص على الدولة الام السابقة . ولقد زكى الاستعمار فى هذه الدول الاعتماد على الغلة الواحدة فى التصدير - سواء زراعية أو تعدينية أو استخراجية - مما يزيد من الاعتماد على الخارج ، وخاصة على الدولة الام السابقة .

وحتى الدول الغنية بالموارد الطبيعية وخاصة الدول البترولية مازالت دول غلة واحدة وان أقامت صناعات فهى تقوم أيضا على هذه الغلة الاستخراجية . وهذه السلع خاضعة تماما لقوى العرض والطلب العالمى التى هى بالتالى غير ثابتة مما يجعل الدول النامية غير قادرة على رسم سياسة ثابتة فى التبادل الخارجى ، بما يضمن تراكم رأس المال اللازم للتنمية . وبالتالى تزيد الدول النامية من اعتمادها على الدول المتقدمة من أجل الحصول على رأس المال حيث تفتقر للتراكم الرأسمالى المحلى .

- من ناحية أخرى فان التعامل بين الاقتصادين ، المتقدم المتمثل فى الدولة الام السابقة أو غيرها ممن يرثها فى علاقة التفوق ، والاكثر تخلفا أو النامى متمثلا فى الدول حديثة الاستقلال ، يؤدى الى زيادة

اعتماد الأخيرة على الأولى لأنه يمارس أثر افقار عليه : حيث من المعروف بين دارسى الاقتصاد ، أن الاقتصاد الأقوى يترك أثر افقار على الاقتصاد الأضعف أكثر مما يخلفه من أثر اثراء ويزداد أثر الافقار قوة كلما كان الفارق بين الاقتصادين كبيرا (١) .

— من ناحية ثالثة فان الدول حديثة الاستقلال والمتعطشة الى المعونة من الخارج تتنافس مع بعضها بعضا فى ارتباطها بالدول الكبرى وهى لا تتعاون بقدر ما تتنافس .

— يضاف الى هذا أن غنى بعض الأقاليم بالموارد الطبيعية لا يدفعها بالضرورة للتكامل مع غيرها فى موازنة للدول الاقوى بل ان اختلاف الغنى عنصر سلبى حيث تحجم الدول الاغنى عن الارتباط بالافقر مفضلة علاقتها بالدول الكبرى ، أو فى حالة ارتباطها ترغب فى أن تكون لها اليد العليا فى السيطرة مما يجعل الدول الأخرى الأفقر تفضل التبعية لدولة متقدمة عن التبعية لدولة متخلفة حتى وان كانت غنية .

— ان الدول النامية منقسمة على بعضها ومتنافسة حتى دون تدخل خارجى . واذا كان الاستعمار الجديد يستخدم المبدأ الاستعمارى التقليدى « فرق تسد » تحقيقا للبلقنة فانه فى الواقع لا يخلق الفرقة من عدم ولكنه يستغلها ويزكيها تحقيقا لمصالحه .

— أن هناك أثر تقليد أو محاكاة يزيد من تفاقم مشاكل الدول النامية حيث انه وان كان الاستعمار قد رحل الا أنه خلف آثارا نفسية ضخمة

---

(١) لمزيد من المعلومات عن أثر الافقار والاثراء انظر :

Atef El-Sayed, «Edude de la fiscalite, Egyptienne en tant que facteur de developpement èconomique et ses reformes possibles». Thèse de Doctorat, Paris : Université de Paris, 1961, 37.

انظر أيضا د . عاطف السيد ، دراسات فى التنمية الاقتصادية ، جدة : دار المجمع العلمى ، ١٩٧٨ ، ص ٧٥ — ٧٩ .

فى علاقة الحب والكراهية التى مازالت تربط بين الدول حديثة الاستقلال وبين الدول المستعمرة السابقة فى محاولة لمحاكاة نمط الحياة الغربى . وقد عبر فرانزفانون عن طبيعة هذه العلاقة وآثارها النفسية بأنها تمثل عقدة تبعية لدى الشعوب التى كانت مستعمرة (١) . مما يزيد المشكلة تعقيدا نتيجة زيادة الميل للاستهلاك . مما خلق ما يطلق عليه البعض « استعمار الرفاهية » . حيث نما استهلاك يقوم على سلع الرفاهية المستوردة من الخارج فخلق تبعية استهلاكية . فضلا عن المساهمة فى استنزاف الفائض الاقتصادى لدول المحيط (٢) .

- وأخيرا فان الدول الغنية تزداد غنى ، بينما الدول الفقيرة بالمقارنة تزداد فقرا ، حتى مع محاولاتها للحاق بركب الاولى .. فمعدلات النمو فى الدول الغنية أكبر منها فى الدول النامية كما أن هناك العديد من الحلقات المفرغة التى تتبلور من علاقة التبعية وتسهم فى اتساع هوة الفارق وتزكى التبعية (٣) . بل ان التنمية والتقدم فى جانب الدول المتقدمة الغنية الممثلة للمركز يقابلها تخلف التنمية ، بل تنمية التخلف فى الدول الفقيرة

---

(١) فرانزفانون ، معذبو الأرض ، ترجمة د . سامى الدروبى ود . جمال الاتاس ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢ .

(٢) انظر بول أ . باران ، الاقتصاد السياسى للتنمية ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، القاهرة : دار العلم ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٣ - ١٩٧ .

(٣) لمزيد من المعلومات عن الحلقات المفرغة انظر : د . عاطف السيد ، مرجع سابق ص ١٠٣ - ١١٠ . ويوضح سمير أمين قانون التطور اللامتكافىء حيث التناقض الاساسى الموجود فى النظام الرأسمالى العالمى هو الموجود بين المركز - الممثل فى الدول المتقدمة صناعيا وخاصة الولايات المتحدة الامريكية ، وأوروبا الغربية واليابان - ومحيط هذا المركز - الممثل فى دول العالم الثالث أو ما يعرف بالدول المتخلفة ، وان هذا التناقض يكمن فى المحيط وليس فى المركز حيث يرتبط الاول بعلاقة تبعية بالاخير . والفارق بين المركز والمحيط يتزايد ولا يتناقص .

انظر : د . سمير أمين ، التطور اللامتكافىء : دراسة فى التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية ، ترجمة برهان غليون ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٨٠ ، ص ٦ - ٧ .

المثلة للمحيط (١) . فهناك استنزاف لرؤوس الاموال من جانب الدول المتقدمة للدول المتخلفة حيث تتدفق فى اتجاه عكسى للحركة التقليدية لرؤوس الاموال (٢) . فالاحصاءات تؤكد أن تدفقات الارباح للخارج قد فاقت المدخلات من الاستثمارات الأجنبية الخاصة (٣) . ويكرس هذا التدفق العكسى خدمة الديون التى تثقل كاهل الدول النامية .

- واذا كان الاستعمار الأوربى للشعوب المختلفة فيما وراء البحار يعتبره الكثيرون نتاجا ومظهرا للاختلاف فى القوة : حيث أوروبا ازدادت قوة بخروجها من عصر النهضة الى الاستنارة الى الثورة الصناعية مما جعلها تتميز عن غيرها من الشعوب ، فان السؤال هو هل اختفى اتساع

---

(١) عن تنمية التخلف انظر باران ، مرجع سابق ص ٢١٥ - ٢٢٠ .
انظر أيضا :

A. G. Frank, Capitalism & Underdevelopment in Latin America : Historical Studies of Chile & Brazil, New York : Monthly Review, 1967, p. 6.

حيث أوضح فرانك ان الدول المتقدمة تقوم باستنزاف الفائض الاقتصادى بالمحيط لصالحها بما يؤدى الى تنميتها فى نفس الوقت الذى يؤدى الى تخلف دول المحيط : التى يرجع سبب تخلفها لا لعدم وجود فائض اقتصادى به ولكن يرجع لاستنزافه من جانب دول المركز عن طريق خروج رؤوس الاموال المستمر من دول المحيط المتخلفة الى دول المركز المتقدمة .

انظر أيضا لمزيد من المعلومات عن الفائض الاقتصادى ، باران ، مرجع سابق ، ص ٧٥ - ٩٩ . وعن تطبيق على أفريقيا انظر : رودنى ، مرجع سابق .

(٢) وقد كان بول باران الذى ينظر اليه على انه أهم مؤسس معاصر لنظرية التخلف رائدا فى توضيح ان سبب تخلف الهند يرجع الى أن الرأسمال المتراكم بها لا يستثمر فيها انظر :

Paul A, Baran, The Political Economy of Growth, New York : Monthly Review, 1957, p. 142.

(٣) من ذلك ما جاء فى تقارير وزارة التجارة الامريكية من أن التدفق الرأسمالى من امريكا اللاتينية فى الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٦٥ قد زاد ٥ر٧ بليون دولار عن التدفق اليها . انظر ولمزيد من المعلومات :

Susanne Bodenheimer, « Dependency & Imperialism : The Roots of Latin American Underdevelopment», in K. T. Fann & D. C. Hodges (eds.) Readings in U. S. Imerialism, Boston, Massachussetts, 1971, p. 155.

الهوة فى القوة بين الدول الأوربية وغيرها ؟ والجواب هــو ان الهوة فى الواقع تزداد اتساعا (١) . ففى مجالات العلوم والتكنولوجيا ، والانتاجية ، ومستوى المعيشة المــادى ، والاتصــالات والمواصــلات ، والتسلح والتنظيم السياسى والاجتماعى فان الشعوب المتقدمة تسير بخطوات أسرع من أن تلحق بها الشعوب النامية . فالاختلاف فى القوة ازداد . ومــع هــذا فهــو لا يؤدى عــامة الى التســلط المفتوح وان لــم يمنع التســلط المستتر بصــورة أو باخرى . فالــدول الاقوى والمتقدمــة فى حاجــة الى تحقيق مصالحها فى الدول حديثة الاستقلال . تلك المصالح التى سبق من قبل وان دفعت للاســتعمار . ولكن تغير الظروف والمناخ العــام جعــل الاستعمار يغير ثوبه (٢) ويغير تكتيكه وان لم يغير استراتيجيته . فالهدف هــو تحقيق ما كان يحققه الاستعمار تقليديا فى أنماطه المختلفة ولكن فى ظل ظروف موضوعية مختلفة فى دول تغــير على اســتقلالها الحــديث وتتمسك بسيادتها كرمز .

لكل هــذه الأسباب الموضوعية فان مشكلة تكييف العلاقة بين الــدول حديثــة الاستقلال والدول الأم الســابقة أو الدول الكبرى مشكلة غايــة فى التعقيد ، وهو التعقيد الذى انعكس على مفاهيم الاستعمار الجــديد والتبعية . فالبعض يرفض مفهوم الاستعمار الجديد من أساسه ـ وعــلى رأس هؤلاء الدول الناطقة بالفرنسية والتى ارتبطت بعلاقة ولاء قويــة بالدولة الأم الســابقة فرنســا نتيجــة ســياســة الاســتيعاب التى اتبعتها والسابق توضيحها ـ مؤكدين على أنها ليست علاقة استعمارية ولكنهــا علاقة اعتماد متبادل وليست متمثلة فى اتجــاه واحد كما كان الحال تقليديا فهى اعتمادية وليست استعمارية .

---

(1) R. Emerson «Colonialism», in Coloialism & Decolonisation, op. cit., p. 3.

(٢) هناك من يعبر عن ان الاستعمار كالحرباء التى تغير الوانها فهو قادر على ان يتشكل .

والبعض الآخر ينصب نقده على الصفة نفسها أى الجديد ، مؤكدين على أنها غير دقيقة حيث أن اساليبه قديمة وموروثة من قبل : فقد مارستها بريطانيا مثلا فى القرن التاسع عشر حيث أقامت علاقات مشابهة لمفهوم التبعية السائد حاليا ، وذلك مع دول أمريكا اللاتينية بعد انهيار أسبانيا أثناء الحروب النابليونية ، وبنفس المثل مارستها بريطانيا مع البرتغال على مدى ثلاثة قرون منذ بداية القرن الثامن عشر . كما أن الدول الدائرة فى الفلك فى ظل امبراطورية غير رسمية لا تعتبر ظاهرة جديدة وقاصرة على المرحلة الراهنة (١) . كما أنها لا تقتصر على دولة معينة أو نظام اقتصادى معين فقد مارسها الاتحاد السوفيتى فى أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية . ولكن يرد على هذا بأن الاساليب حقيقة غير جديدة ولكن الجديد هو اتساع نطاقها بدلا من أن تكون الاستثناء .

ولكن من الجدير بالملاحظة أن هناك من الدراسات الجادة (٢) ما تفرق بين الاعتماد «Dependence» : الذى يعتبر أساسا من مقومات تعامل الدول المتقدمة الصناعية ــ الممثلة لمركز العالم ــ مع بعضها ، والتبعية « «Dependency» » التى تعتبر من مقومات تعامل الدول الفقيرة المتخلفة ــ الممثلة للمحيط ــ مع تلك المتقدمة ، على أساس أن الاختلاف بينهما ليس فى الدرجة بل فى النوع . فالاول هو نمط التعويل أو الاتكال الخارجى للدول القومية المتماسكة على بعضها بعضا أو على غيرها من دول المحيط التى تمدها بالمواد الاولية ، بينما الثانية تتضمن مجموعة من العلاقات الاكثر تعقيدا والمرتبطة بادماج المجتمعات الاقل تقدما والاقل تجانسا فى تقسيم العمل الدولى باعتبارها متخصصة فى انتاج المواد الاولية

---

(1) Smith, op. cit., pp. 31-2.

(2) James A. Caporaso, «Dependence, Dependency & power in the global system : a structural & behavioral analysis,» International Organization, 1971, p. 13.

التى تقـوم بتصنيعهـا الدول المتقدمـة . فبينمـا المكونـات المفهوميـة للاعتماد هى حجم مـدى الاتكال من دولة على أخرى فى مدهـا بسـلع أو خدمات معينة ومـدى ما لها من أهمية فى اقتصادها ومـدى توافرهـا من مصـادر مختلفة بديلة ، أى مـدى القدرة عـلى الاحلال بما فيهـا تكاليف مثل ذلك الاحلال . فان المكونات المفهومية للتبعية ، هى ضخامة الامـداد الخارجى لعوامل الانتاج مـن تكنولوجيا ورأسمال ، والفرص التنموية المحدودة واجراءات تشويهية داخليـة . والاعتماد يـدخل عنـد التحليل فى مجال المساومة فى العلاقات بين الدول ، بينما التبعية تكـون مفيـدة فى تطبيقها على هيكل العلاقات بين المجتمعات : وذلك فى اطـار الازدواجية المتعارف عليها وهى دول المركز الصناعية المتقدمة المهيمنة ، ودول المحيط المتخلفة التابعة .

فالاعتماد يستخدم للتعبير عن شـكل غير متكافىء الى درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل ، فهو فى معناه الشائع شكل من الاتكال أو التعويل الخارجى بينمـا التبعية تسـتخدم كغياب لاستقلالية الفاعل حيث تمثل انعكاسا لامكانيات تنموية غير استقلالية خاصة بالنسبة لأهداف التنمية ، ونجد ذلك خاصة فى كتابات أمريكا اللاتينية فى اطار تقليد «Dependencia» المتطور هناك (١) وذلك كعـدم وجـود الاسـتقلال الحقيقى من النفوذ الأجنبى أو عبـر القومى أو كوجـود مجموعـة مـن الخصائص الداخلية والخارجية وعبر القومية المرتبطة بذلك الوضع . وهذه السمات الداخلية والخارجية يطلق عليها أحيانا « التشويه الهيكلى» «Structural Distortion» الأمر الـذى يشـير باختصـار للطـرق المتعددة لكـون الاقتصـاد المحلى يتهيكل — أى يشـكل هيكليا — ليـلائم احتياجـات القطـاع الأجنبى

---

(١) عن قائمة بالمراجع والمساهمات فى هذا المجال ، انظر هامش ص ١٤ — ١٥ من المرجع السابق .

ويحققها (١) . وعليه فان عكس التبعية ليس الاستقلال ولكن الاعتماد المتبادل الذى بموجبه يمكن للدولة أن تؤثر كما تتأثر ، وبالتالى تستطيع أن تكون فى موقف أقوى تواجه بموجبه الضغوط الخارجية التى تمارس عليها بما لا يمكن هذه من أن تتحكم فى تنميتها . أما فى اطار التبعية فان اقتصاد دولة - هى الدولة المتقدمة المتبوعة - يحدد نطاق نمو اقتصاد دولة أخرى - هى الدولة المتخلفة التابعة - خدمة لمصالح الدولة الأولى ، وذلك عن طريق هياكل تخدم تلك الدولة . ومن هنا فقد نظر للتبعية على أنها « وضع مكيف » بمعنى أنه « يحدد حدود وامكانيات التصرف والسلوك البشرى » . فالتبعية وضع فى ظله يتكيف اقتصاد مجموعة معينة من الدول بواسطة تنمية وتوسع اقتصاد آخر يخضع له . فهى وضع تاريخى يشكل هيكلا معينا من الاقتصاد العالمى بحيث يفضل بعض الدول على حساب الاخرى ويحد من امكانية تنمية الاقتصاديات التابعة (٢) . فالتبعية تعنى باختصار ان البدائل المفتوحة أمام الدول المتخلفة محددة ويحددها اندماجها فى السوق العالمية .

وعليه فتجدر ملاحظة أن مجرد وجود علاقات اقتصادية دولية أو استثمارات أجنبية أو مساعدات اقتصادية خارجية لا يعنى تبعية اقتصادية - ومن ثم سياسية - طالما أن الدولة تتحكم فى أدوات السياسية الاقتصادية التى لديها وتحسن استخدامها دون ضغوط خارجية

---

(١) وتبدو معايير التشوه الداخلى فى : أ - نقص الاندماج فى القطاعات الاقتصادية ، ب - نقص استجابة الهياكل الانتاجية لتغير الطلب بالزيادة أو النقص ، جـ - الاستجابة الى الطلب المتولد خارجيا . انظر المرجع السابق ص ٢٦ .

ولمزيد من المعلومات عما يطلق عليه « البنية الاساسية للتبعية Infrastructure of dependency ».

انظر : Bodenheimer, op. cit., pp. 161-2.

(٢) وقد تبنت هذا التعريف سوزان بودنهامير نقلا عن دوس سانتوس ، المرجع السابق ص ١٥٨ .

تتحكم فى قرارها بشكل أو بآخر لصالح دولة أجنبية (١) ٠

وفى الحقيقة يمكن أن ننتهى الى القول بأن الدول حديثة الاستقلال (أو المتخلفة بالاصطلاح المتداول) كانت مجبـرة على التبعية وانها ، بعد استقلالها وبالظروف الموضوعية السابق توضيح أهم جوانبها ، أصبحت مضطـرة أيضا لأن تحافظ على علاقـات التبعية ٠ بـل ان تنميتها هى تنمية تابعة (٢) ، محكومة بعلاقات خارجية لا يمكنها على أية حال التحكم فيها حيث تخضع لاعتبـارات مصالح الـدول المتقدمة بالدرجـة الاولى ٠ حتى اذا خرجت من التبعية لدولة كبرى أو أقوى أو أغنى فان ذلك يجرى فى اطار الصراع العالمى فتكون نهاية المطاف ان ينتهى بها الحال الى الدخول فى تبعية دولة أخرى ٠ واذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وظهور القطبية الثنائية التى ميزت النظام الدولى قد اعتبرت وريثة أى فراغ من جـانب الدول الاسـتعمارية السابقة فـان مـا سيطر على الوضع الدولى من الصراع بـين الغرب والشرق قـد ترك آثاره القوية على تصفية الاستعمار من جهـة ، فانه ، من جهة أخـرى فتح المجال لامكانية الانتقال من التبعية للدول الغربية الى التبعية للدول الشرقية أو العكس ٠ فالتبعية مستمرة كظاهرة والمتغير ربما يكون الدولة الأقوى المتبوعة ٠

Robert O. Keohane & Joseeph S. Nye, Power & Interdependence : World Politics in Transition, New York : Brown & Co., Ins., 1977, p. 5.

(١) انظر :

ولمزيد من المعلومات عن التكافل والتكامل فى العلاقات الدولية مع رؤية عن الاستعمار والتبعية انظر ، دويتش ، مرجع سابق ، ص ٢٦٩-٢٩٢ ٠

(٢) لمزيد من المعلومات عن النمو التابع وخضوعه وفقا لقوانين النظام الرأسمالى لعلاقات التبعية بدول المركز وتوقفه عليها انظر :

Theotonio Dos Santos, «The Structure of Depeendence» American Economic Review, No. 6, May 1970, pp. 231-6.

ومادام التسلط من جانب القوى على الضعيف قديما قدم التاريخ البشرى ، فمن الطبيعى أن يستمر حتى بعد حصول الدول الأضعف على سيادتها واستقلالها ، ولكن بالطبع بعد أن يغير ثوبه . فالسياسة الاستعمارية أى الامبريالية بمعناها الأصلى مستمرة ، وقد يمارسها البعض ممن كانوا من ضحاياها أو من أهم ناقديها . واستمرارها تأكيد على ان جذورها عميقة فى طبيعة المجتمع الدولى بما يتميز به من اناركية وافتقار لسلطة مركزية فوق الدول لتنظم سلوكها وتمنع اعتداء بعضها على بعض وتسلط بعضها على بعض .. فالسياسة الاستعمارية نتاج طبيعى لاختلاف القوة بين الاطراف والاهم لقدرة الاقوى على استخدام هذا الاختلاف لصالحه (١) فى اطار هيكل النظام الدولى . كما أن عالميتها نتاج طبيعى لارتباطها بظاهرة القوة وليس بذات من يمارسها .



---

(١) لمزيد من المعلومات عن طبيعة النظام الدولى انظر د . حورية توفيق مجاهد ، « سياسة توازن القوى » ، مجلة مصر المعاصرة ، عدد عدد ٣٤٣ ، يناير ١٩٧١ ، ص ١٣١ - ١٦٨ .

ولاختلاف القوة وعلاقتها بالاستعمار انظر :

Art & Jervis, op. cit., pp. 261-3.

أما المناداة بضرورة ايجاد نظام اقتصادى دولى جديد فهى محكومة بابعاد سياسية وتخضع فى النهاية للدول الأغنى والأقوى المتحكمة فى النظام الدولى والذى تسيره وفقا لمصالحها ، حيث الدول النامية الفقيرة ، ليس لديها القوة السياسية أو الاقتصادية اللازمة للتغيير .

لمزيد من المعلومات انظر : راؤول فيريرو ، النظام الاقتصادى الدولى الجديد وتعزيز حقوق الانسان ، نيويورك : الأمم المتحدة ، ١٩٨٦ ، ص ٤ .

الملاحـــــــق

ملحـــــق (١)

تصفية الاستعمار منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

م	الدولة المستقلة (والاسم السابق)	تاريخ استقلالها	الدولة القائمة بالادارة سابقا
١	فيتنـــام	١٩٤٥	فرنســا
٢	الفلبين *	١٩٤٦	الولايات المتحدة الامريكية
٣	سوريا *	١٩٤٦	فرنســا
٤	لبنـان *	١٩٤٦	فرنســا
٥	الاردن *	١٩٤٦	المملكة المتحدة
٦	الهنـد *	١٩٤٧	المملكة المتحدة
٧	باكستان *	١٩٤٧	المملكة المتحدة
٨	سرى لانكا * (سيلان)	١٩٤٨	المملكة المتحدة
٩	بورمـا *	١٩٤٨	المملكة المتحدة
١٠	اسرائيل * (فلسطين) (وما تخلف عن قيامها اسرائيل من مشكلة اللاجئين ومشكلة الشرق الأوسط) .	١٩٤٨	المملكة المتحدة منتدبة على فلسطين .
١١	اندونيسيا	١٩٤٩	هولنـدا
١٢	ليبيــا *	١٩٥١	ادارة عسكرية انجليزية - فرنسية بعد أخذها من ايجاليا أثناء الحرب العالمية الثانية .
١٣	كمبوتشيا الديمقراطية (كمبوديا)	١٩٥٣	فرنســا
١٤	جمهورية لاو الديمقراطية الشعبية (لاوس)	١٩٥٣	فرنســا
١٥	السودان *	١٩٥٦	المملكة المتحدة
١٦	المغــرب	١٩٥٦	فرنســا
١٧	تونس	١٩٥٦	فرنســا

تــابع ملحــق (١)

م	الدولة المستقلة (والاسم السابق)	تاريخ استقلالها	الدولة القائمة بالادارة سابقا
١٨	غانا (تكونت من اتحاد مستعمرة ومحمية ساحل الذهب مع اقليم توجولاند المشمول بالوصاية تحت الادارة البريطانية)	١٩٥٧	المملكة المتحدة
١٩	ماليزيا (الملايو)	١٩٥٧	المملكة المتحدة
٢٠	غينيــا	١٩٥٨	فرنســا
٢١	بنين (داهومى)	١٩٦٠	فرنســا
٢٢	جمهورية الكاميرون المتحدة	١٩٦٠	فرنسا والمملكة المتحدة
٢٣	جمهورية افريقيا الوسطى (اوبنجى شارى)	١٩٦٠	فرنســا
٢٤	تشــاد	١٩٦٠	فرنســا
٢٥	الكونغو (الكونغو الاوسط)	١٩٦٠	فرنســا
٢٦	قبرص	١٩٦٠	المملكة المتحدة
٢٧	جابــون	١٩٦٠	فرنســا
٢٨	ساحل العــاج	١٩٦٠	فرنســا
٢٩	مدغشقر	١٩٦٠	فرنســا
٣٠	مالى (السودان الفرنسى)	١٩٦٠	فرنســا
٣١	موريتانيــا	١٩٦٠	فرنســا
٣٢	النيجــر	١٩٦٠	فرنســا
٣٣	نيجيريــا	١٩٦٠	المملكة المتحدة
٣٤	السنغــال	١٩٦٠	فرنســا
٣٥	الصومال	١٩٦٠	ايطاليا والمملكة المتحدة
٣٦	توجــو (اقليم توجولانــد المشمول بالوصاية)	١٩٦٠	فرنســا
٣٧	بوركينا فاسو (فولتا العليا)	١٩٦٠	فرنسا
٣٨	زائير (الكونغو البلجيكى ثم الكونغو كينشاسا)	١٩٦٠	بلجيكا
٣٩	سيراليون	١٩٦١	المملكة المتحدة

تابـــــع ملحـــــق (١)

م	الدولة المستقلة (والاسم السابق)	تاريخ استقلالها	الدولة القائمة بالادارة سابقا
٤٠	جمهوريـة تنزانيا المتحـدة تكونت من اتحاد تنجانيقا التى استقلت سنة ١٩٦١ وزنزبار التى استقلت سنة ١٩٦٣)	١٩٦١	المملكة المتحدة
٤١	الكويت *	١٩٦١	المملكة المتحدة
٤٢	جامايكا	١٩٦٢	المملكة المتحدة
٤٣	ساموا (اقليم ساموا الغربية المشمول بالوصاية)	١٩٦٢	نيوزيلندة
٤٤	رواندا	١٩٦٢	بلجيكا
٤٥	بوروندى (أوروندى)	١٩٦٢	بلجيكا
٤٦	ترينداد وتوباجو	١٩٦٢	المملكة المتحدة
٤٧	اوغنـدا	١٩٦٢	المملكة المتحدة
٤٨	الجزائر	١٩٦٢	فرنســا
٤٩	كينيــا	١٩٦٣	المملكة المتحدة
٥٠	ملاوى (نياسلاند)	١٩٦٤	المملكة المتحدة
٥١	مالطــا	١٩٦٤	المملكة المتحدة
٥٢	زامبيا (روديسيا الشمالية)	١٩٦٤	المملكة المتحدة
٥٣	جامبيــا	١٩٦٥	المملكة المتحدة
٥٤	سنغافورة	١٩٦٥	المملكة المتحدة
٥٥	بربادوس	١٩٦٦	المملكة المتحدة
٥٦	بوتسوانا (بتشوانالاند)	١٩٦٦	المملكة المتحدة
٥٧	جويانا	١٩٦٦	المملكة المتحدة
٥٨	ليسوتو (باسوتولاند)	١٩٦٦	المملكة المتحدة
٥٩	اليمن الديمقراطية (عدن)	١٩٦٧	المملكة المتحدة
٦٠	غينيا الاستوائية (فرناندوبو وريوموني)	١٩٦٨	اسبانيا
٦١	موريشيوس	١٩٦٨	المملكة المتحدة

تابـــــع ملحـــــق (١)

م	الدولة المستقلة (والاسم السابق)	تاريخ استقلالها	الدولة القائمة بالادارة سابقا
٦٢	سوازى (سوازيلاند)	١٩٦٨	المملكة المتحدة
٦٣	ناورو	١٩٦٨	استراليا
٦٤	فيجى	١٩٧٠	المملكة المتحدة
٦٥	عمان *	١٩٧١	المملكة المتحدة
٦٦	قطر *	١٩٧١	المملكة المتحدة
٦٧	الامارات *	١٩٧١	المملكة المتحدة
٦٨	البحرين *	١٩٧١	المملكة المتحدة
٦٩	بوتان *	١٩٧١	المملكة المتحدة
٧٠	بهاما	١٩٧٣	المملكة المتحدة
٧١	بنجلاديش * (انفصلت عن باكستان وكانت تمثل الاقليم الشرقى به)	١٩٧٤	المملكة المتحدة
٧٢	جرينادا	١٩٧٤	المملكة المتحدة
٧٣	غينيا بيساو	١٩٧٤	البرتغال
٧٤	انجولا	١٩٧٥	البرتغال
٧٥	الرأس الاخضر	١٩٧٥	البرتغال
٧٦	موزمبيق	١٩٧٥	البرتغال
٧٧	بابوا غينيا الجديدة (بابوا واقليم غينيا الجديدة المشمول بالوصاية)	١٩٧٥	استراليا
٧٨	ساوتومى وبرنسيب	١٩٧٥	البرتغال
٧٩	سورينام (غينيا الهولندية)	١٩٧٥	هولندا
٨٠	سيشيل	١٩٧٦	المملكة المتحدة
٨١	جيبوتى (الصومال الفرنسى ثم اقليم عفار وعيسى)	١٩٧٧	فرنسا
٨٢	جزر القمر أوكومورو	١٩٧٧	فرنسا
٨٣	دومينيكا	١٩٧٨	المملكة المتحدة
٨٤	جزر سليمان	١٩٧٨	المملكة المتحدة
٨٥	توفالو (جزر آليس)	١٩٧٨	المملكة المتحدة

تابـــــع ملحــــــق (١)

م	الدولة المستقلة (والاسم السابق)	تاريخ استقلالها	الدولة القائمة بالادارة سابقا
٨٦	كريباتى (جزر جيلبرت)	١٩٧٩	المملكة المتحدة
٨٧	سانت فنسنت وجرينادين	١٩٧٩	المملكة المتحدة
٨٨	سانت لوتشيا	١٩٧٩	المملكة المتحدة
٨٩	فانواتو (هيبرايدز الجديدة)	١٩٨٠	فرنسا والمملكة المتحدة
٩٠	زيمبابوى (روديسيا الجنوبية)	١٩٨٠	المملكة المتحدة
٩١	بليـــز	١٩٨١	المملكة المتحدة
٩٢	انتيجوا	١٩٨١	المملكة المتحدة
٩٣	سان كريستوفر ونيفس	١٩٨٣	المملكة المتحدة
٩٤	برونى دار السلام	١٩٨٣	المملكة المتحدة

المصـــــدر :
United Nations & Decolonization, op. cit., - pp. 17-18.

ملحـــوظة : قمنا باعادة ترتيب الدول وفقـا لتـاريخ الاستقلال بدلا من التسلسل الابجدى الذى اتبع ، فضلا عن أن المصدر الاصلى أغفل بعض الـدول اوردناها مع وضـع علامة (*) عليها توخيا للدقة . كما تتبعنا التطور حتى سبتمبر ١٩٨٩ .

ملحـــــــــق (٢)

نمو العضوية فى الامم المتحدة ١٩٤٥ ـ ١٩٨٩

العـام	الدول الأعضاء	أعضاء أصـليون
١٩٤٥	٥١	الارجنتين ، استراليا ، بلجيكا ، بوليفيا ، البرازيل ، بيلوروسيا ، كندا ، تشيلى ، الصين ، كولومبيا ، كوستاريكا ، كوبا ، اكوادور ، مصر ، السلفادور ، أثيوبيا ، فرنسا ، اليونان ، جواتيمالا ، هايتى ، الهنـد ، ايران ، العـراق ، لبنـان ، ليبيريا ، لوكسمبورج ، المكسيك ، هولندا ، نيوزيلندا ، نيكاراجوا ، النرويج ، بنما ، باراجواى ، بيرو ، الفليبين ، بولندا ، العربية السعودية ، جنـوب افريقيا ، سـوريا ، تركيا ، اوكرانيا ، اتحـاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، المملكة المتحدة ، أورجواى ، فنزويلا ، يوغوسـلافيا ، الدانمرك ، هنـدوراس ، تشيكوسـلوفاكيا ، الدومينكان ، الولايات المتحدة الامريكية .

العـام	الدول الأعضاء	أعضاء جـــــدد
١٩٤٦	٥٥	افغانستان ، ايسلندا ، السويد ، تايلاند .
١٩٤٧	٥٧	باكستان ، اليمن
١٩٤٨	٥٨	بورما
١٩٤٩	٥٩	أسرائيل
١٩٥٠	٦٠	اندونيسيا
١٩٥٥	٧٦	البانيا ، النمسا ، بلغاريا ، كمبوديا ، فنلندا ، المجـر ، ايرلندا ، ايطاليـا ، الاردن ، لاوس ، ليبيا ، نيبـال ، البرتغال ، رومانيا ، اسبانيا ، سرى لانكا .
١٩٥٦	٨٠	اليابان ، المغرب ، السودان ، تونس .
١٩٥٧	٨٢	غانا ، ماليزيا
١٩٥٨	٨٣	غينيا

تابـــــع ملحـــــق (٢)

العـام	الدول الأعضاء	أعضاء جـــدد
١٩٦٠	١٠٠	بنين ، جمهورية افريقيا الوسطى ، ج ٠ تشاد ، الكونغو ، قبرص ، جابون ، ساحل العاج ، مدغشقر ، مالى ، النيجر ، نيجيريا ، السنغال ، الصومال توجو ، جمهورية الكاميرون المتحدة ، فولتا العليا ، زائير ٠
١٩٦١	١٠٤	موريتانيا ، منغوليا ، سيراليون ، جمهورية تنزانيا المتحدة ٠
١٩٦٢	١١٠	الجزائر ، بوروندى ، جامايكا ، رواندا ، ترينداد وتوباجو ، أوغندا ٠
١٩٦٣	١١٢	كينيا ، الكويت ٠
١٩٦٤	١١٥	مالاوى ، مالطا ، زامبيا
١٩٦٥	١١٨	جامبيا ، جزر المالديف ، سنغافورة ٠
١٩٦٦	١٢٢	باربادوس ، بوتسوانا ، جوايانا ، ليسوتو ٠
١٩٦٧	١٢٣	اليمن الديمقراطية ٠
١٩٦٨	١٢٦	غينيا الاستوائية ، موريشيوس ، سوازيلاند ٠
١٩٧٠	١٢٧	فيجى
١٩٧١	١٣٢	البحرين ، بوتان ، عمان ، قطر ، الامارات العربية المتحدة ٠
١٩٧٣	١٣٥	جزر باهاما ، جمهورية المانيا الاتحادية ، جمهورية المانيا الديمقراطية ٠
١٩٧٤	١٣٨	بنجلاديش ، جرينادا ، غينيا بيساو ٠
١٩٧٥	١٤٤	كيب فيرد ،كومورو (جزر القمر) ،موزمبيق ، بابوا ، غينيا الجديدة ، ساو تومى وبرنسيب ، سورينام ٠
١٩٦٧	١٤٧	انجولا ، جزر سيشيل ٠
١٩٧٧	١٤٩	جيبوتى ، فيتنام
١٩٧٨	١٥١	دومينكا ، جزر سليمان
١٩٧٩	١٥٢	سانت لوتشيا
١٩٨٠	١٥٤	سان فنسنت وجرينادين ، زيمبابوى ٠
١٩٨١	١٥٦	فانواتو ، بليز ٠
١٩٨٢	١٥٧	انتيجوا ٠
١٩٨٣	١٥٨	سان كريستوفر ونيفس ٠
١٩٨٤	١٥٩	برونى دار السلام ٠

المصـــدر : Basic Facts About the United Nations. New York : United Nations, 1987, pp 167 - 171.

ملحـــــــــــــــق (٣)

الاقاليم التى لا تتمتع بالحكم الذاتى كما حددتها الجمعية العامة (اعتبارا من أول سبتمبر ١٩٨٩)

الدولة القائمة بالادارة	الاقليم	المساحة (ك م مربع)	السـكان
استراليـا	جزر كوكوس (كيلينج)	١٤	٤٣٥
نيوزيلندة	توكيلاو	١٠	١٦٠٠ر١
البرتغـال	تيمور الشرقية	٩٢٥ر١٤	٧٢٠٠٠٠ر
المملكة المتحدة	برمودا	ر ٥٣ –	٦٠٠٠٠ر
	جزر فيرجينيا البريطانية	١٥٣	١٢٠٠٠ر
	جزر كايمان	ر ٢٦٠ –	١٧٠٠٠ر
	جزر فولكلاند (مالفيناس)	٩٦١ر١١	١٧٠٠٠ر
	جبل طارق	ر ٦ –	٣٠٠٠٠ر
	مونتسرات	١٠٣	١١٠٠٠ر
	بيتكيرن	٥	٦٠
	سانت هيلين	٤١٢	٧٠٥٠٠ر
	جزر توركس وكايكوس	٥٠٠	٧٠٠٠ر
الولايات المتحدة	ساموا الامريكية	١٩٧	٣٠٠٠٠ر
	جوام	٤٠١ر١	١٠٩٠٠٠ر
	جزر فرجينيا الامريكية	٣٤٣	١٢٠٠٠٠ر
اقليم الوصاية المتبقى			
اقليم الباسيفيك المشمول بالوصاية تحت ادارة الولايات المتحدة		٨٥٤ر١	١٣٦٠٠٠ر
اقليم تحت المسئولية المباشرة للامم المتحدة			
ناميبيا (وكان يسمى جنوب غرب افريقيا) (٣) (سيحصل على استقلاله فى ابريل ١٩٩٠) .		٨٢٤ر٢٩٦	٥٠٠٠٠٠ر١

ادخلت الجمعية العامة اقليم الصحراء الغربية ضمن الاقاليم التى لا تتمتع بالحكم الذاتى وذلك رغم انهاء اسبانيا وجودها نهائيا به فى ٢٦ فبراير ١٩٧٦ . وأصبحت المشكلة مشكلة صراع مسلح على الاقليم بين المغرب وموريتانيا من جهة ، ومن جهة أخرى ، الجزائر وجبهة البوليزاريو التى أعلنت قيام الجمهورية الصحراوية العربية وقد بدأ التقارب بين الأطراف .

المصدر : الأمم المتحدة وتصفية الاستعمار : الملامح الرئيسية ، مرجع سابق ، ص ٥٠ ، « بتصرف » لمواكبة آخر التطورات .

قائمـــة المراجـــع

أولا : مراجع باللغة العربية :

السيد الحسينى (دكتور) ، التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، الطبعة الثانية ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، الكتاب الثامن والثلاثون ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٤ ٠

أتوخكين ، ارنولد ، معونة - أم استعمار جديد ، ترجمة صنع الله ابراهيم ، القاهرة : دار الثقافة الجديدة ، د ٠ ت ٠

أسعد السحمرانى (دكتور) ، الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبى والابراهيمى ، بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٤ ٠

أنور الجندى ، الاسلام وحركة التاريخ : رؤيا جديدة فى فلسفة تاريخ الاسلام ، الموسوعة الاسلامية العربية رقم ٥ ، بيروت : دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٨٠ ٠

أوين ، روجرو سوتكليف ، بوب « اعداد » ، دراسات نظرية فى الامبريالية ، ترجمة د ٠ وفيق جمال نظمى ود ٠ كاظم هاشم نعمة ، بغداد : وزارة التعليم العالى والبحث العلمى ، ١٩٨٠ ٠

باران ، بول أ ٠ ، الاقتصاد السياسى للتنمية ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، القاهرة : دار العلم ، ١٩٦٧ ٠

بطرس بطرس غالى (دكتور) ، العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٤ ٠

بطرس بطرس غالى (دكتور) ، محمود خيرى عيسى (دكتور) ، المدخل فى علم السياسة ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٤ ٠

تانزر ، مايكل وآخرون ، من الاقتصاد القومى الى الاقتصاد الكونى : دور الشركات المتعددة الجنسيات ، ترجمة عفيف الرزاز ، بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١ ٠

تيرنر ، بريان ، ماركس ونهاية الاستشراق ، ترجمة يزيد صايغ ، الطبعة العربية الاولى ، بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١ ٠

جلال أمين (دكتور) ، تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية : خرافات شائعة عن التخلف والتنمية وعن الرخاء والرفاهية ، القاهرة : مطبوعات القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

جمال حمدان (دكتور) ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، بيروت ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣ .

حسين عبد الحميد أحمد ، الاستعمار فى القرن العشرين ، الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

حورية توفيق مجاهد (دكتورة) ، نظام الحزب الواحد فى افريقيا : بين النظرية والتطبيق ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٨ .

ــــــــ ، الفكر السياسى من أفلاطون الى محمد عبده ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٦ .

ــــــــ ، النظم السياسية فى افريقيا ، « محاضرات مطبوعة » ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ .

ــــــــ ، الاستعمار كظاهرة عالمية ، « محاضرات مطبوعة » ، تمهيدى ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ .

ــــــــ ، القومية كظاهرة عالمية ، « محاضرات مطبوعة » ، تمهيدى ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ .

ــــــــ ، التنظيم الدولى ، « محاضرات مطبوعة » ، كلية التجارة ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

دويتش ، كارل ، تحليل العلاقات الدولية ، ترجمة محمود نافع ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٢ .

رمزى زكى (دكتور) ، أزمة الديون الخارجية : رؤية من العالم الثالث ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

رودنى ، والتر (دكتور) ، أوروبا والتخلف فى أفريقيا ، ترجمة أحمد القصير ، عالم المعرفة ، ١٣٢ ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ديسمبر ١٩٨٨ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ، الحركة الصليبية : صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٢ .

سميث ، ستيوارت ، الاستعمار الامريكي فى افريقيا ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، القاهرة : دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٧ .

سمير أمين (دكتور) ، التطور اللامتكافىء : دراسة فى التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية ، ترجمة برهان غليون ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .

سويزى ، وآخرون ، الامبريالية وقضايا التطور الاقتصادى فى البلدان المتخلفة ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٠ .

سيد على الحريرى ، كتاب الاخبار السنية فى الحروب الصليبية ، القاهرة : مطبعة النيل ، ١٨٩٩ .

عاطف السيد (دكتور) ، دراسات فى التنمية الاقتصادية ، جدة : دار المجمع العلمى ، ١٩٧٨ .

عبد الرحمن حسن الميدانى ، أجنحة المكر الثلاثة : وخوافيها التبشير ــ الاستشراق ــ الاستعمار ، دمشق ــ بيروت : دار القلم ، ١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥ م

عبد الله عبد الرازق ابراهيم ، المسلمون والاستعمار الأوروبى فى افريقيا ، عالم المعرفة ، ١٣٩ ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، يوليو ١٩٨٩ .

على محمد جريشة (دكتور) ، محمد شريف الزيبق ، أساليب الغزو الفكرى : للعالم الاسلامى ، القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٨ .

عواطف عبد الرحمن (دكتورة) ، قضايا التبعية الاعلامية والثقافية فى العالم الثالث ، الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٨٤ .

غفوروف ، مع مجموعة من الكتاب السوفيت ، لينين والتحرر الوطنى فى الشرق ، ترجمة مصطفى مجدى الجمال ، القاهرة : دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ .

فانون ، فرانز ، معذبو الارض ، ترجمة د . سامى الدروبى ، د. جمال الاتاسى ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢ .

فينوف ، ف . وآخرون ، الاستعمار الجديد العدو اللدود للبلدان الفتية : مجموعة مقالات سوفيتية ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، القاهرة : دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ .

كوت ، دافيد ، فرانز فانون ، ترجمة عدنان كيالى ، سلسلة اعلام الفكر العالمى المعاصر ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، آب ١٩٧٢ .

لينين ، فلاديمر ، الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية ، لينين ، المختارات ، موسكو : دار التقدم ، المجلد ١ ، الجزء ٢ ، ١٩٦٠ ، ص ٣٠٥ ـ ٤٥١ .

ماجدوف ، هارى ، الامبريالية : من عصر الاستعمار حتى اليوم ، الطبعة العربية الاولى : بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١ .

ماركوف مشكلة التغذية وسياسة الامبريالية ، مترجم الى العربية ، القاهرة : دار التقدم ، ١٩٧٥ .

مجدى حماد (دكتور) ،الاستعمار الاستيطانى فى اسرائيل وجنوب افريقيا ، بيروت : دار الحياة ، ١٩٨١ .

محمد السيد سعيد ، الشركات متعددة الجنسية : وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

ــــــــــ(دكتور) ، الشركات عابرة القومية : ومستقبل الظاهرة القومية ، عالم المعرفة ، ١٠٧ ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، نوفمبر ١٩٨٦ .

مصطفى كامل السيد (دكتور) ، قضايا التطور السياسى لبلدان القارات الثلاث ، القاهرة : بروفيشينال للاعلام والنشر ، ١٩٨٣ .

مصطفى كامل السعيد ابراهيم (دكتور) ، الشركات متعددة الجنسيات والوطن العربى ، القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .

نكروما ، كوامى ، الاستعمار الجديد : آخر مراحل الامبريالية ، ترجمة عبد الحميد حمدى ، القاهرة : دار القاهرة للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ .

وودس ، جاك ، الاستعمار الجديد فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، ترجمة الفضل شلق ، بيروت : دار الحقيقة للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ .

ــــــــــ ، جذور الثورة الافريقية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، ١٩٧١ .

دراســــــات ومقالات :

« الامم المتحدة وتصفية الاستعمار : الملامح الرئيسية فى جهود الامم المتحدة من أجل منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة » ، القاهرة : مكتب الاعلام العام ، الامم المتحدة ، ١٩٨١ ٠

أحمد محمد عبد الحميد ثابت ، « علاقات التبعية وأزمة التنمية فى العالم الثالث : مصر كدراسة حالة » ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم العلوم السياسية ، كلية الاقتصاد والعلــوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

بطرس بطرس غالى (دكتور) ، « المساعدات الاجنبية والاستعمار الجديد » ، الاهرام الاقتصادى ، عدد ٢٣٢ ، ٢٥ ابريل ١٩٦٥ ٠

حورية توفيق مجاهد ٠ « الصومال فى المحيط الدولى » رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم العلوم السياسية ، كلية التجارة ، جامعة القاهرة ، ١٩٦١ ٠

حورية توفيق مجاهد (دكتورة) ، « سياسة توازن القوى » ، مصر المعاصرة ، عدد ٣٤٣ ، السنة الثانية والستون ، يناير ١٩٧١ ٠

ــــــــــ ، « القوة المحرك الرئيسى للعلاقات الدولية » ، مجـلة الاقتصاد والادارة ، جامعة الملك عبد العزيز ، جـدة ، العدد الثالث ، رجب ١٣٩٦ ــ ١٩٧٦ ٠

ــــــــــ ، « الاتجاهات الايديونوجية للوحدة الافريقية » ، مجلة الدراسات الافريقية ، معهد الدراسات والبحوث الافريقية ، جامعة القاهرة ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ ٠

راؤول فيريرو ، النظام الاقتصادى الـدولى الجديد وتعزيز حقــوق الانسان ، نيويورك : الامم المتحدة ، ١٩٨٦ ٠

زينب عبد العظيم محمد ، « علاقات الجنوب ــ الجنوب : دراسـة سياسية فى دور البترول فى علاقات الدول النامية البترولية وغير البترولية من ٧٣ ــ ١٩٨٥ » رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلــوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٩ ٠

ماجدة على صالح ، « الاستعمار الجديد فى المنطقة العربية » رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ ٠

محمد ابراهيم عبد الرحمن ، « سطوة الشركات متعددة الجنسيات على اقتصاد العالم » ، الاهرام الاقتصادى ، العدد ٨٠٣ ، ٣ يونيو ١٩٨٤ ٠

ثانيا ـ مراجع باللغات الاجنبية :

Art, Robert J. & Jervis, Robert, International Politics : Anarchy, Force, Imperialism, Boston : Little Brown & Company, 1973.

Avineri, Shlomo, (ed.,), Karl Marx on Colonialism & Modernisation : his Despatshes & other Writings on China, India, Mexico, the Middle East & North Africa, New York : Doubleday, 1969.

Baran, P. A., The Political Economy of Growth, New York : Monthy Review, 1957.

Berstein, Serge, La Decolonisation et ses Problemes, Dossier «Sciences Humaines», No. 1, Paris : Armand Colin. 1969.

Betts, R. F., Assimilation & Association in French Colonial theory 1890-1914, New York : Columbia Univ. Press, 1961.

Betts, R. F. (ed.,), The Scramble for Africa : Causes & Dimentions of Empire, Boston : D. C. Heath, 1966.

Brogan, D. W., The Price of Revolution, London : H. Hamilton. 1951.

Choucri, Nazli, & North, Robert C., Nations in Conflict : National Growth & International Violence, San Francisco : W H. Freeman & Co., 1975.

Clark, G., The Balance Sheets of Imperialism, 2nd ed., New York : Columbia Univ. Press, 1967.

Claude, Inis L. Jr., Power & International Relations, New York : Random House, 1962.

————— , Swords into Plowshares : The Problems & Progress of International Organization, New York : Random House, 1968.

Colliard, Claude - Albert, Institutions des Relations Internationales, Paris : Dalloz, 1974.

Dougherty, James E. & Pfalzraff, Jr., Contending Theories of International Relations, New York : J. B. Lippincott Co., 1971.

Fieldhonuse, D. K., Colonialism 1870-1945 : An Introduction, London : Butter & Tanner Ltd., 1981.

Frann, K. T. & Hodges, Donold C. (eds.,), Readings in U. S. Imperialism, Boston : Porter Sargert, 1971.

Frank, A. C., Capitalism & Underdevelopment in Latin America : Historical Studies of Chile & Brazil, New York : Monthly Review, 1967.

Freymond, J. Lenine et L'mperialisme, Lausanne : Libraire Payot, 1951.

Gallet, Pierre, Imperialism in the Seventies, New York : Third Press, 1972.

Goodspeed, Stephen S., The Nature & Function of International Organ ization, New York : Oxford University Press, 1968.

Green, Fred, Dynamics of International Relations : Power Security & Order, New York, Chicago & London : Holt, Rinehart & Winston, 1968.

Hobson, John A., Imperialism : A Study, London : George Allen & Unwin, 1902.

Hodgkin, Thomas, Nationalism in Colonial Africa, Washington : Wash - ington Universty Press, 1957.

Kamenka, Eugene (ed.,), Nationalism : The Nature & Evolution of an Idea, London : Edward Arnold, 1976.

Keohane, Robert O. & Nye, Joseph S., Power & Interdependence : World Politics in Transition, New York : Brown & Co., Ins., 1977.

Kiernan, V. G. Marxism & Imperialism, London : Edward Arnold, 1974.

Klochkovsky, L. L., Economic Neocolonialism, Moscow : Progress Publishers, 1975.

Koebner, R., Empire, London : Cambridge Univresity Press, 1961.

Lenin, V. I., Imperialism the Highest Stage of Capitalism, in Lenin, V. I., Selected Works, Vol. I, Moscow : Foreign Languages House, N. D., pp. 709-842.

————, Imperialism The Highest Stage of Capitalism, New York : International Publishers, 1939.

Mack, Andrew, Plant, David & Doyle, Ursule, Imperialism, Intervention & Development, London : Groon Helm. 1979.

Magdolff, H. Age of Imperialism : The Economics of U. S. Foreign Policy, New York & London : Monthly Review Press, 1969.

Marx, K, & Engels, F., On Colonialism, Moscow : Progress Puzlishers, 1968.

Mommsen, Wolfgang J., Theories of Imperialism, London : Weidenfeld & Nicolson, 1980.

Moon, Parker Thomas, Imperialism & World Politics, New York : The Macmillan Co., 1928.

Morgenthau, Hans, Politics Among Nations : The Stuggle for Power & Peace, New York : Alfred A. Knopf, 1968. & 1985.

Murray, James M., Jr., The United Nations Trusteeship System, Urbana, Illinois : The Univesity of Illinois Press, 1957.

Nkrumah, Kwame, Neo - Colonialism : The Last Stage of Imperialism, London : Thomas Nelson & Sons Ltd, 1965.

Paderlford N., & Lincoln G., International Politics : Foundations of International Relations, New York : The MacMillan Co. 1954.

———— , & ———— , The Dynamics of International Politics, London : Macmillan Co., 1967.

Robinson, R, E. & Callagher, J., Africa & the Victorians, the official mind of imperialism, London : Macmillan Co., 1961.

Schumpeter, Joseph A., Imperialism & Social Classes, Oxford : Basil Blackwell, Ltd., 1951.

Seaton - Watson, Hugh, Nations & States : An Enguiry into Origins of Nations & the Politics of Nationalism, London : Methuen, 1977.

Semel, B., Imperialism & Social Reform : English Socialimperialist thought 1895 - 1914, London : Allen & Unwin, 1960.

Snyder, Louis L (ed.,), The Imperialism Reader : Documents & Readings on Modern Expansionism, Princeton, New Jersey : D. Van Nostrand Co., Inc., 1962.

Strachey, E. J., The End of Empire : Principles of Democratic Socialism, Part 2, London : Collancz. 1969.

Suret - Canale, J. L'ere Coloniale 1875 - 1945, Paris : Editions Sociales, 1965.

Thornton, A. P., Imperialism in the Twentieth Century, London : The Macrmillan Press Ltd, 1977.

Tibi, Bassam, Arab Nationalism : A Critical Enquiry, London : The Macrmillan Press Ltd, 1977.

Vakhrusheve, Vasily, Neocolonialism : Methods & Manouvres, Moscow : Progress Publisher, 1973.

Williams E., Capitalism & Slavery, London : Andro Deutsch, 1964.

Winks, R. (ed.,), British Imperialism : Gold, God, Glory, New York Holt, Rinehart & Winston. 1963.



دراســـات ومقــــالات :

Albertini, Rudolf Von, «The Impact of Two World Wars on the Decline of Colonialism», Colonialism & Decolonisation, Journal of Contemporary History, Vol. 4, No. 1, 1969.

Bodenheimer, Susanne, «Dependency & Imperialism : The Roots of Latin American Underdevelopment, in Frann, K. T. & Hodges (ed.,), Readings in U. S. Imperialism, Boston, Massachussetts, 1971.

Caporaso, James A., «Dependence, Dependency & Power in the global system : structural & behavioral analysis» International Organization, 1971.

Dos Santos, Theotonio, «The Structure of Dependence,» American Economic Review, No, 6, May 1970.

EL - Sayed, Atef, «Etude de la fiscalitiè, Egyptienne en tant que facteur de developpemcnt économique et ses reformes possibles», Thése de Doctorat, Paris : Univ. de Paris. 1961.

Emerson, R., «Colonialism», in Colonialism & Decolonisation, Journal of Contemporary, History, Vol. 4. No 1, 1969.

Engels, «French Rule in Algeria», The Northern Star, January 22, 1848, in Shlomo Avineri, (ed), Karl Marx on Colonialism & Modernization, New York : Doubleday, 1969,

Galtung, Johan, «A. Stuctural Theory of Imperialism», Journal of Peace Research, No. 2, 1972.

——————, «Violence, Peace & Peace Research», in Journal of Peace Research N. 6, 1973.

International Encyclopedia of Social Sciences, New York : The Macmillan Co., & Free Press, Vol. 7, 1968.

Kidron, M., «Imperialism : Last Stage but One», London, International Socialism 9, Summer 1962.

Kohn, Hans, «The Meaning of Imperialism, Colonialism and their Variations, 1958,» in Snyder, Louis (ed.,) The Imperialism Reader : Documents & Readings on Modern Expansionism, New York : Von Nostrand, 1962.

Langer, William L. «A Gitique of Imperialism,» Foreign Affairs XIV. Oct. 1935.

—————— , «Farewell to Empire» in Lijphart, Arend (ed.), World Politics, Boston : Allyn & Bacon, Inc., 1977, Foreign Affaiss, Vol. 41, No. 1, Oct. 1962.

Lichtheim, G., «Imperialism Parts 1 and 2,» New York, Commentary, 49, April & May 1970.

Magdoff, H., «Militarism & Imperialism», Monthly Review, 21, 9, Feb. 1970.

Multinational Corporations in World Development, ST/LCA/190, New York, 1973.

Neisser, H., «Economic Imperialism Reconisdered», New York, Social Research, 27, 1960.

Newbury, C. W., «Victorians, Republicans & the Partition of Africa», Journal of African History, 3, 1962.

Palloix, C., «La Question de I'mperialisme clez V. I. Lenin et Rosa Luxemburg», Pairs, L'Homme et Societé, 5, Jan. - Mar. 1970.

Rodney, W., «The Imperialist Partition of Africna», Monthly Review, Vol. 21, No. 11, April 1970.

Sweezy, Paul, «Corprations, the State & Imperialism,» Monthly Review, Vol. 30, No. 6, Nov. 1978.

United Natons & Decolonization, New York : United Nations, 1985.

الفهــــــــرس

الصفحة

الفصل الثالث
أنماط الاستعمار التقليدى « الرسمى »

الفصل الرابع
تطور الاستعمار

الصفحة

الفصـــل الخامس

حول مفهوم الاستعمار الجديد وعلاقات التبعية

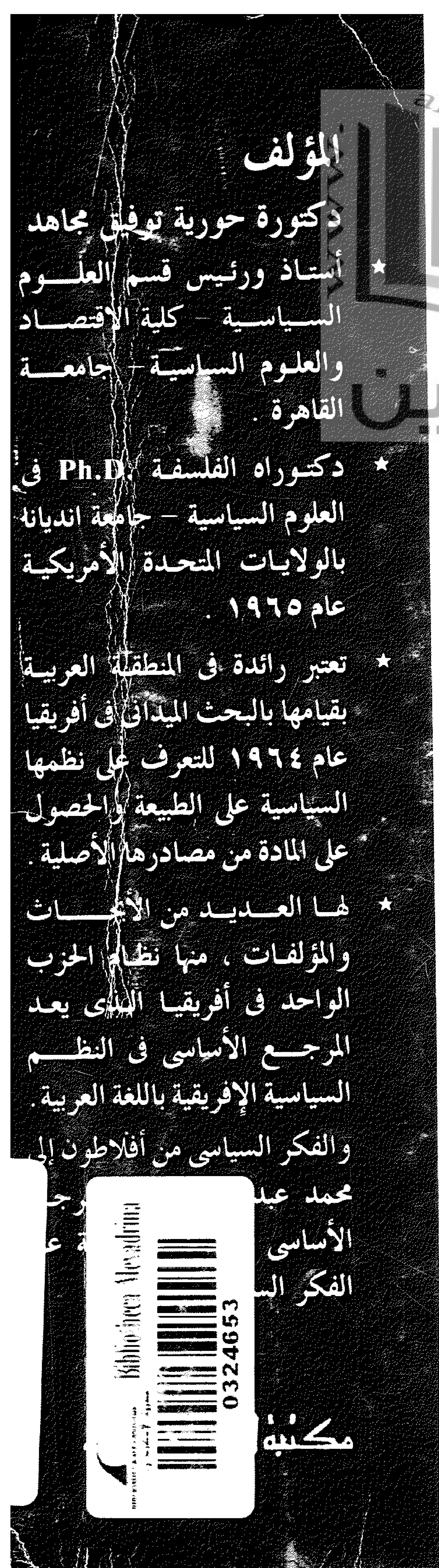
الفصـــل الختامى

ورطـــة التبعيـــة

رقم الايداع ٧٢٩٩ لسنة ١٩٨٩
الترقيم الدولى ٢ ـ ٠١٤ ـ ٣٤٦ ـ ٩٧٧

مطـابع سـجل العـرب




المؤلف

دكتورة حورية توفيق مجاهد

* أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة.
* دكتوراه الفلسفة Ph.D. فى العلوم السياسية - جامعة انديانا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥.
* تعتبر رائدة فى المنطقة العربية بقيامها بالبحث الميدانى فى أفريقيا عام ١٩٦٤ للتعرف على نظمها السياسية على الطبيعة والحصول على المادة من مصادرها الأصلية.
* لها العديد من الأبحاث والمؤلفات، منها نظام الحزب الواحد فى أفريقيا الذى يعد المرجع الأساسى فى النظم السياسية الإفريقية باللغة العربية. والفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبد ... المرجع الأساسى ... الفكر الس...

مكتبة

هذا الكتاب ...

يتناول بالتحليل الظاهرة الاستعمارية كظاهرة عالمية فى الزمان والمكان ترتبط بظاهرة القوة وليس بذات من يمارسها.

ويعتبر الكتاب الأول من نوعه باللغة العربية حيث يتناول موضوعات أهمها :

* تحديد مفاهيم الاستعمار والامبريالية.
* الاستعمار فى الفكر السياسى الواقعى.
* الدوافع المختلفة للاستعمار ونظرياتها.
* أنماط الاستعمار التقليدى « الرسمى ».
* المد والجزر الاستعمارى « تصفية الاستعمار ».
* الاستعمار الجديد وعلاقات التبعية.
* نظرية جالتونج الهيكلية فى الاستعمار.
* الشركات متعددة الجنسية.
* ورطة التبعية.

وهو قائم على التحليل الموضوعى وذلك بالتصدى للمسائل التى تدور حول كيف ولماذا، سعيا لتنظير تلك الظاهرة.